مباحث أجنبية في تاريخ لبنان

بيروت ولبنان

منذ قرنٍ ونصفِ القرن

بقلم

هنري غيز

قنصل فرنسا في ذلك الزمان

تعريب

مارون عبود

الجزء الثاني

منشورات دار المكشوف

مباحث أجنبية في تاريخ لبنان

بيروت ولبنان

منذ قرن ونصف القرن

بقلم

هنري غيز

قنصل فرنسا في ذلك الزمان

تعريب

مارون عبود

الجزء الثاني

منشورات دار المكشوف

عنوان الكتاب بالفرنسية

RELATION

d'un séjour de plusieurs années à BEYROUTH et dans le LIBAN

par

HENRI GUYS

paris, 1847

الطبعة الثانية ، بيروت — لبنان ، تشرين الثاني ١٩٥٠

الفصل السادس والعشرون

الآثار القديمة في لبنان : عين القبو ، فقرا ، صنين ،
جبل الكنيسة ، فيطرون .

ان جميع السائحين الذين جاؤوا بيروت اثناء اقامتي فيها ، كان اقصى رغباتهم شيء واحد ، الا وهو رؤية بعلبك . فمدينة الشمس هي المكان الوحيد الذي اثار فضولهم الى ابعد مدى ، بسبب ما خلفه الفن من آثار لا تزال جميلة جداً . فالكثيرون من الناس لم يعرفوا هذه البقايا الاثرية الا مما وصفها به الكتّاب الرحّالة الذين غالوا في وصفها ، مبارياً بعضهم بعضاً .

ولما كنت قد قمت بعدة اكتشافات فيها ، فقد كنت ادل السائحين عليها جميعاً ، فصاروا يقومون تواً بزيارة الامكنة التي عينتها لهم ، اذا لم يحُلْ دون ذلك ادلاّؤهم الذين قلما يهمهم هذا الامر لانهم غير مطبوعين على التأمل[1] .

واسديت نصائح اخرى عديدة الى سياح عديدين كان في استطاعتهم اجتناء الفائدة كاملة من ارشاداتي لو تقيّدوا بها، ولكنهم

[1] ان السيد شاناي الذي دللته على الطريق التي انشأها الاقدمون بين بعلبك وبيلوس وبيروت ، كتب الي في ١٨ تشرين الاول ١٨٣٠ يقول : ان المكاري ابى ان يرافقه في اتباع طريق يجهلها ، رغم انه لا خوف من ان يضلا ، ومع ذلك فقد تمكن من اكتشاف الطريق القديمة .

لم يفعلوا . ان مهمة اكتشاف الآثار محفوفة بكثير من المصاعب، وهي سبب مشاقّ كثيرة لا يذللها الا رغبة قوية في مشاهدة الآثار القديمة الجليلة، وميل عنيف مفرط الى معرفة الاشياء الطريفة . وهذا الامر يتطلب كثيراً من الوقت، واصحابنا السياح، بوجه عام، يمرّون عجالى بهذا البلد . ولهذا لا يفوزون من غايتهم بطائل .

اني لم احجم قط، في كل رحلة اقوم بها، عن تغيير طريقي عندما كنت اعلم ان هنالك شيئاً تجدر رؤيته . ولا يستطاع ادراك ذلك الا اذا استخبرنا الادلاء او الاشخاص الذين نصادفهم في طريقنا .

لا انكر ان فضولي البالغ حده قد حملني على القيام بعدة رحلات محفوفة بالاخطار وغير مجدية، ولكن أيجب الامتناع عن ركوب البحر اذا كان اليم يزخر بالمخاطر ؟

ان حبي الملحاح للاستطلاع كان غالباً علة رحلاتي الخطرة غير المجدية . كنت اسأل مَنْ التقيهم : هل نجد في ضواحيكم أطلالاً هامة، وقصوراً قديمة، ومعابد وثنية، واخيراً بعض الحجارة الضخمة ؟ فكانوا يقتادونني لارى كتلاً من الصخور بوشر فعلاً قطعها وشغلها، الا ان اهميتها لم تكن لتنسيني قط ما قاسيته في سبيلها من تعب ومشقة .

قرأت في كتاب « فولناي » انه يوجد جسر طبيعي في جرود كسروان، ومع ذلك فليست الرغبة في رؤية هذا الجسر هي التي دفعتني، بعد عودتي من بعلبك، الى القيام برحلة نحو آثار تلك الناحية التي لم يتحدّث عنها رحّالة واحد .

ان مشقات رحلتي الاولى جعلتني اسلك طريقاً اخرى غير التي

سلكتها اول مرة عندما قمت بزيارتي الثـــانية لقلعة فقرا ماراً بعينطورة وعجلتون وفيطرون الخ ...

فاهوال الطريق التي سلكتها قديماً اضطرتني ان ادور ، هـذه المرة ، حول المخرم الضيّق الواقع اوله عند اقدام صنين . وهكذا قيض لي ان ارى بسكنتا ، القرية الكبيرة ، القائمة على منحدر جبل يشرف على وادي الجماجم الرهيب .

ان اهالي هذه القرية من الموارنة والروم ، وهي مقر عشرات الامراء ومشايخ عديدين من بيت الخـــازن . اشتهرت هذه البلدة بالحياكة . وهي تصنع بوجه خاص نسيجاً اكثره مصبوغ باللون الازرق . واكثر نسائها متحجبات بازار اسود .

واذا ما غادرنا بسكنتـا مجتازين منحدر صنين الذي يشكّل نصف دائرة ، نصل الى عين القبو ، وهي مزرعة صغيرة تحيط بهـا اشجار التوت والعريش ، ويجري في اسفلها نبع عذب الميـاه ، يتفجّر وسط قبو معقود بشكل دائرة نقشت على حنيته مخطوطة اغريقية .

ومن عين القبو نتسلق الجبل فنصل الى مسجــد تركي قديم كرّس ، كما قيل ، لجوناس . ومن هنالك نهبط في واد جميل . فاتني ان ادوّن هذه الواقعة ، ولا بأس من العودة اليها :

اضطررنا ، ونحن على طريق بسكنتا ، انننزل عن ظهور جيادنا ونقودها . وبعد ان اسقطت الطرقات السيئة نعالها واصبحت حوافرها في حالة تلف يرثى لها ، كان همنا الوحيد ، لدى وصولنا ، ان نستفيد مما يمكن ان نجده في هذه القرية الكبيرة من اسبـــاب الراحة . ولكن لسوء حظنا صادف ذلك اليوم يوم عيد الرسل ، والبيطار

الماروني لا ينعل جيادنا ولو قبض ذهب العالم باسره . اعتصم بشرائع كنيسته التي تأمر بترك كل شغل وعمل يوم ذلك العيد . وكدنا ان نقضي ليلتنا في بسكنتنا لو لم ينبئونا ان البياطرة الروم ، وهم ليسوا آنذاك من اصحاب العيد ، يمكنهم ان يقوموا بهذه الخدمة التي رفض ان يقوم بها الموارنة . ان الاختلاف بين هاتين الملتين ، الموارنة والروم ، يدور على اثني عشر يوماً بالضبط ، فاولاهما تتبع التقويم الغريغوري (الحساب الغربي) ، والثانية ترفض ان تسلّم به لان احد البابوات دقق هذا الحساب ونظّمه .

وعند المساء حططنا رحالنا في دير سيدة النيــاح ، وهو دير للراهبات المتعبدات من طائفة الروم الكاثوليك من حلب والشام . كان بينهن انئذ راهبة كلدانية ذات صوت جميل جداً . حدثونا عنها فلم نكترث ولم نعر الامر اهتماماً ، لاننا لم نسمع احداً من قبل يتحدث عن هذه العذراء المتعبدة وعن صوتها العذب .

وفي السهرة القصيرة جداً ، رجونا الرئيس العام ، وكان موجوداً في الدير هاتيك الليلة ، ان يرافقنا برجل من خاصته يوصلنا الى فقرا ، فوعدنا بذلك .

ينام السيّاح دائماً في ساعة مبكرة لكيما ينهضوا قبلَ الفجر ، ويعدّوا اعتدة السفر التي تتطلب وقتــاً طويلاً ، ثم ليتخلصوا مـا استطاعوا من حرارة الشمس المحرقة . فما نهضنا وانتهينا من اعداد خيولنا حتى سألنـا عن الرفيق الدليل في هذه الرحلة ، فقيل لنـا انه الكاهن الذي يصلي . ففضّلنا ان نحضر القداس ونستريح في مكان مُضاء ، على ان ننتظره خارجاً في شبه عتمة .

ان دخولنا الكنيسة المقبّبة التي لم يكن ينيرهـا الا شموع

الهيكل ومسارجه قد ايقظ فينا شعوراً لا يمكن ان انساه ابداً .
بهت انا ورفاقي فبتنا كأننا في غيبوبة . ولم نملك مقدرة الافصاح عما نشعر به الا بعد انقضاء عدة دقائق . فصوت مريم الكلدانية الساحر قد كهربنا . ان الحان الروم في طقسياتهم بديعة جداً ، وشجية تحمل على الخشوع . فالانغام المختلفة الايقاع لم تلغَ منها ، وقد كانت تلك الراهبة المتعبدة تجيد فيها وتبدع كل الابداع . كانت تجلس على السدة فيتعالى صوتها الرخيم الى اجواء القبة ، ثم يهبط الى صحن الكنيسة فيوقظ جميع اصداء الهيكل الكثيرة العدد لان الشرقيين كانوا يراعون ، في البنايات التي يشيدونها ، بعض القواعد المتعلقة بحاسة السمع ووقع الانغام لتسد مسدّ الآلات الموسيقية التي يفتقرون اليها .

فقداسة المكان ، وساعة الصبح المبكرة التي لا ينام اثناءها السائحون الا مدفوعين بتعبهم المفرط الذي ينهك قواهم ، وهذه العتمة التي كانت تخيم علينا قد زادت ، ولا شك ، في تأثير ذلك الصوت العجيب الذي لم يسمع مثله احد منا . ويظهر ان ترانيم الراهبات ، حسب هذا الطقس ، مختلفة الايقاع في كل مقطوعة من مقطوعاتها ، فلا تشبه البتة ترانيم الاساقفة المسكوبيّين الخنّاء ، وهذا الذي يزيد في روعتها وسحرها . تحدثت امام كثيرين عن الراهبة الكلدانية ، فذهب كثير من هواة الصوت الرخيم ليروها ، فطار صيتها ، وامست أحد الاشياء التي يشتهر بها الجبل . اذهل صوتها الجميل السيد بودين بقدر ما اذهلني ، فما استطاع ان يخفي اعجابه به ، فاعرب لها عن ذلك قائلاً : « اختاه ، ان صوتك يحمل على تمجيد الله ! » ، ولكن اطراء يوجه الى راهبة عليها ان لا

تفاخر بموهبة دنيوية يذهب ضياعاً ...

ثم ركبنا خيولنا بعد ان افلتنا من هذا الدير الذي سنرجع اليه ثانية . فانبأونا ، لدى عودتنا ، عن آثار ومخطوطات تبعد مسافة ساعة او ساعتين عن الدير لجهة الشرق ، في مكان يدعى بدّين . الا اننا لم نتمكن من الذهاب اليه .

تسلقنا الجبال العالية في طرقات ملتوية صعبة ... لم نبال قط بمشقات الطريق لان المناظر التي كانت تتجدد على التوالي انعشت ابصارنا . انها اجمل بقعة وقع عليها نظري في جميع انحاء لبنان . فالجبال المخضرّة التي تتوّج رؤوسها كتلٌ ضخمة من الصخور كأنها على اهبة الانقضاض ، والاودية الحافلة بغابات السنديان والجوز والصنوبر ، والانهار ذات المياه البلورية[1] العذبة ، هذه جميعها تنسي الدرب الطويل الشاق . فالذاهب الى فقرا من هناك يدركها بعد مشي ساعة .

واول ما رأيناه ، في فسحة كبيرة من الارض تقارب مساحتها نصف فرسخ ، بعض الجدران القائمة بين صخور مبعثرة هنا وهنالك . وهذه الجدران التي لم تتهدم مبنية بحجارة منحوتة متساوية الحجم ، ولا تزال قوية متينة . انها ، ولا شك ، معالم مدينة قديمة .

واذا ما ملنا بضع خطوات عن الطريق ، لجهة اليسار ، نجد انفسنا بين انقاض هيكل فقرا .

يبلغ طول هذا الهيكل اربعة وثلاثين متراً ، وعرضه اربعة

١ ربما يجهل القارئ، ان مياه بيروت سخنة كأنها مغلية على النار ، وان احدى ملذات السائح الذي غادر المدينة في الصيف التنعم بمياه الجبل العذبة .

عشر متراً . جدرانه مبنية بحجـارة يبلغ طول الواحد منها تسعة وثمانين سنتيمتراً ، وسمكه خمسة وسبعين سنتيمتراً . وهذه الحجارة مبنية بدون طين .

تزين واجهة الهيكل ستة اعمدة من الطراز العصري ، ويبلغ قطر قاعدة كل عمود متراً وخمسة وعشرين سنتيمتراً . اما التيجـان التي نجد اربعة منها مستديرة الحجم ، واثنين مربعين لا يزالان باحسن حال ، فيبلغ علوها اربعة امتار وعرضها متراً وثمانية وستين سنتيمتراً. ويبلغ حجم واجهة القواعد متراً وثلاثة واربعين سنتيمتراً ، وعرضها متراً واربعة وثلاثين سنتيمتراً ، وعلوها متراً وخمسة وتسعين سنتيمتراً. وقد حفر في وسط القاعدة اليمنى رسم كاد ان يكون ممحواً .

اما طول الدار والفناء فثمانية وثلاثون متراً ، وعرضها ثلاثون متراً . واذا جئنا الهيكل من الجهة الشمالية ، الى الجهة الواقعة في جانب واجهة الهيكل ، وجدنا ان حائط الفناء مبنيّ حتى منتصفه او اكثر بحجارة منحوتة نحتاً غير دقيق . امـا من الجهـة اليمنى فهو كذلك حتى الثلث . يظهر انه كان يقوم حول الدار رواق تزينه اعمدة يونانية الطراز ، يبلغ قطر دائرتهـا اثنين وسبعين سنتيمتراً . ان عامود الزوايا المزدوج مستلق على الارض ، وهو يتألف من قطعة واحدة .

فالاعمدة وتيجانها واعلى الهيكل واسفله مبنية من حجر واحد . وقد قطعت احجارها جميعها من الصخور المجاورة التي اقتطعت منها حجارة الاروقة الواقعة على مقربة منها . بيد ان جدران الواجهة الخارجية او الفناء واعمدة الاروقة الواقعة قبالة الهيكل مبنية بحجر مصفرّ رملي موجود ايضاً هنالك ، ولكنه يختلف عن حجر

الهيكل الذي يميل الى لون اشهب ضارب الى الزرقة .

ولدى رؤيتنا هذه الكمية الوافرة من القطع والتيجان ، المبعثرة هنا وهنالك ، يخامرنا الشك في قيام رواق امام المدخل الاول ، مدخل الفناء . وهذا ما نرجحه متى لاحظنا ان الاعمدة الخارجية هي اضخم من اعمدة الاروقة . ولقد رسمتُ صورة عامة مستعجلة لهذا الاثر.

ان اختلاف الطراز المعماري يدل ايضاً على ان هذين الاثرين لم يشيدا في عصر واحد . فالبناية الخارجية هي احدث عهداً من الاخرى.

نجد تجاه البوابة الرئيسية ، على بعد خمسين خطوة منها ، خربة مربعة الحجم يُدخل اليها من الجهة الجنوبية . تهدم بناء هذه الخربة الا ثلاثة مداميك يبلغ اطولها ثلاثة امتار وستة وثمانين سنتيمتراً طولاً ، وثلاثة وتسعين سنتيمتراً علواً ، وخمسة وسبعين سنتيمتراً سمكاً . واضخمها يبلغ طوله مترين وخمسة وثمانين سنتيمتراً ، وعلوه متراً وستة وثمانين سنتيمتراً ، وسمكه متراً وعشرين سنتيمتراً .

وعلى مسافة عشر دقائق للجهة الشمالية نجد ايضاً هرماً صغيراً لا يزال قائماً منه ما يقارب الثلث . وتبلغ مساحة قاعدته المربعة الحجم نحو ستة عشر متراً وواحداً واربعين سنتيمتراً . اما علوه الحالي ، لجهة البوابة ، فيبلغ سبعة امتار ونصف المتر .

ان باب المدخل كبير جداً ، واذكر انه مزين بكتابة اتلفتها الايام وشققتها . ولما كنت قد قمت بزيارة هذا الهيكل في ساعات مختلفة من النهار ، تمكنت من استغلال الفترة التي تظهر فيها الحروف جلية ، ونقلت هذه المخطوطة ، والمخطوطة الاخرى المحفورة على حجر الزاوية ، للجهة اليمنى .

ان هذا الباب يؤدي الى ردهة واسعة ، وتجاهه باب آخر

يقود الى دهليز معوج[1] ، معقوف ، ينتهي من الجهة اليمنى الى الدهليز الرئيسي . واذا ما صعدنا وقطعنا حوالى ثلثي المسافة ، للجهة الشمالية ، نجد باباً يؤدي الى الدهليز الواقع في الوسط . فمن هنا بمكننا ان ندخل الدهليز الذي ينتهي بنا الى السطح حيث يقوم الدرج الذي يوصل الى نافذة صغيرة تنتهي فوق المدخل .

ويدخل النور هذا المكان من ثغرة تشبه المرمى ، وهي تخترق كثافة الحائط كلها . وعند منتصف هذا الدهليز نجد ممرّاً يوصل الى غرفة يبلغ علوها ثلاثة امتار وثلاثين سنتيمتراً . واذا ما دخلنا اليها نجد في احدى زواياها ، للجهة اليمنى ، فرجة يبلغ عرضها ثلاثة وثلاثين سنتيمتراً ، وعلوها ستة وستين سنتيمتراً ، وعمقها متراً واحداً . ونرى على جوانب الممر ، الذي يقود الى هـذه الغرفـة ، تقويراً بشكل نصف دائرة ، او خطاً اجوف يبلغ عرضه اربعة عشر سنتيمتراً ، ورفرفه الخارجي عشرة سنتيمترات بعلو خمسة امتار تقريباً . وهو يربط بين اعلى الممر واسفل جهتيه الجانبيتين حيث كان يدحرج البـاب الزحّاف ، فيحكم سدّ الحجرة المخصصة بدفن الموتى .

وفي اسفل الدهليز الرئيسي فرجة توصل الى غرفة صغيرة اخرى تقوم فوق باب المدخل ، يبلغ عمقها في الجهة الشرقية متراً وسبعة وخمسين سنتيمتراً ، ويبلغ عند اسفل زاوية الممر الشمالي والزاوية الخارجية متراً وواحداً وخمسين سنتيمتراً .

[1] وفي طرف الدهليز باب محاط بسور يوصل الى غرفة ثانية مخصصة لدفن الموتى تقوم تحت الاخرى . وارتفاع هذه الغرفة وضخامة الهرم يثبتان ذلك .

يبدو ان هذا البناء قد شيد او رمم بامر من « تيبر كاود » الذي وضعه تحت حماية الاله الكبير « رافولون » ورفع هيكل فقرا اكراماً له .

نجد في الجهة الجنوبية للهرم عدة اساسات لابنية مربعة الشكل منحوتة حجارتها . ونجد حول هذه الاشكال من المدافن ، وبين الصخور ، كميةً كبيرةً من بقايا الحجارة المنحوتة وهي من الرخام الابيض .

انها جميلة جداً ومختلفة الالوان . ونرى ايضاً عدة نواويس اخرى فنحكم ، بناءً على اتقان احد اغطيتها ، انه غطاء لحدِ رجل ذي غنى وجاه .

وعلى مسافة ساعة واحدة شرقي فقرا ، يندفع نبع اللبن ثائراً معربداً في وادٍ عميق وضيّق . يعلو هذا النبع الضخم الغزير جسر من صخرة واحدة . وهو ، ولا شك ، من عمل الطبيعة لا البشر . الا انه من الجائز ان تكون يد الانسان قد انجزت صنعه . والدليل على ذلك هو ان الاقدار لا تستطيع ان توجد قناطر في مثل هذا الاتقان تراعى فيها ، في مدى ما ، المقاييس الهندسية . ان هذا الجسر ، الفريد في نوعه ، يبلغ عرضه واحداً وثلاثين متراً ، وطوله اثنين وخمسين متراً ، وعلوه في اعلى نقطة ثمانية وخمسين متراً . وسطحه مغطى بطبقة كثيفة من التراب تزرع حنطة .

ان منظر هذا الجسر هو بالحقيقة جليل مهيب . فثرثرة المياه التي توقفها عند جريها حجارة ضخمة افلتت من الصخور وتجمعت في النهر ، والصيحات الحادة ترسلها العقبان التي ترتاد هذا المكان ، ونوح اليمام الشاكي الذي عشش هناك ، والهواء الذي تتدافع دونه

الوف خفافيش ترفرف بين زاوية واخرى في شبه عتمة ، كل هذه المرئيات تكسب هذا المكان المنعزل المنفرد منظراً موحشاً . الا انه مهيب جداً ، وله لذته ايضاً .

ان مياه هذا الينبوع الذي يبعد حوالى مئتي قدم عن الجسر تنبثق مرغية مزبدة لتفلت من بين صخرتين بسرعة لا يمكن ان يحدها عقل . انها باردة كالثلج ، وميزتها الهضمية مشهورة في جميع انحاء تلك المنطقة .

وعندما تتدفق المياه من نبعها ، يجري نهر اللبن بسرعة هائلة في مجرين يرويان عدة اماكن ، ثم يلقيان اخيراً عصا الترحال في نهر الكلب ونهر بيروت .

ويزعم الاهلون ان صخرة كالرحى سقطت في هذا الينبوع فحالت قوة تدافع مياهه دون وصولها الى قعره . ويزعمون ايضاً ان تلك الصخرة لا تزال ترى حيث وقفت .

ان ابناء لبنان يزورون فقرا احياناً ، ولا يدفعهم الى تلك الزيارة الا نهر اللبن ومياهه العذبة . اما رؤية الآثار القديمة فلا تهم العرب مطلقاً . فالانقاض تبعث فيهم الهلع لانها ليست سوى انقاض الابنية الدارسة .

اراد شيخان ان يوليااني شرفاً بمرافقتهما اياي في رحلتي الثانية . فتزودا بما يستطيبانه ويستسيغه ذوقهما ، وعلى الاخص بزق من الخمر . وحوالى الساعة العاشرة اخذ الجوع يحرك أمعاء الشيخين . وبينما كنت اخشى ، وقد عيل صبري ، ان يفوتني النور الكافي فلا اتمكن من قراءة مخطوطة استنفدت جميع قواي ، انذرني هذان الجائعان بان وقت الغداء قد حان . ولهذه الغاية ذبحا الجدي الذي

اصطحباه ، حتى اذا ما شرعا بتقطيع اللحم ليشوى على النار ، اخذا يفتحان قابليتها بقلب الحيوان وكبده السخنين ، بعد ان مهدا لهما الطريق ونضحاهما بكؤوس مليئة من الخمرة الذهبية ، وهي اقوى الخمور اللبنانية واشدها بطشاً بالشاربين .

تركنا هذين المولعين بالخمرة يتلذذان كما يشتهيان ، وما مشتهاهما غير اسلوب نحن نراه اكثر ما يكون انحطاطاً في الذوق . ولكي لا نظهر لهما اننا فقدنا تماماً القابلية لدى رؤيتنا ما يستعملانه من اساليب استحضرنا زادنا وتناولنا طعامنا واياهما بالفة معتادة . ان هذين البطلين تمكنا من اكل الجدي وشرب زق الخمر كله دون ان يذوقا مياه النبع الشهيرة التي ظننت انها سيطلبان منها المساعدة .

ولدى عودتي الى فقرا طفت في الحقول الواقعة للجهة الجنوبية والتي تحوي كمية كبيرة من انقاض تدل ، ولا شك ، على انها معالم مدينة قديمة نجهل اسمها حتى يومنا هذا .

اننا نجد بين هذه الانقاض هيكلا صغيراً في طرفه حجرة تقوم المدافن عن يمينها وشمالها ، كما نرى ديماسين نالا قسطاً وافراً من العناية ، وهما محفوران في الصخرة .

وعلى صخرة تقع في الجبل القائم تجاه فقرا ، على بعد مسافة نصف فرسخ منها ، وجدت هذه الحروف الثلاثة المحفورة بصورة غليظة T E B . ان اول هذه الحروف بحجم خمسة وعشرين سنتيمتراً ، والاثنين الاخرين بحجم ستة وثلاثين سنتيمتراً ، وهي تعلو عن الارض مترين ونصف المتر .

ولدى عودتنا الى دير النياح رأينا ناووساً غير بعيد عنه ، تزينه عدة نقوش . اما على جنباته فقد كانت محفورة رسوم تروس .

كان علينا ان نختار في رجوعنـــا قطع احد واديين : وادي جهنم ووادي الصليب . اخافنا الاسم الاول . فهـذا الوادي ، كما يقال ، هو اكثر الاودية خطراً . ومع ذلك فلا يسعنا ان نثني على الثاني . ان طوله غريب حقاً ومهبطه في غاية الانحدار . سرنا فيه ما يقارب الثلاث ساعات بعد ان قدنا جيـادنا وراءنا . وهذا تدبير لا بد من الاعتصام به اذا شئنا ان نأمن التدهور في تلك الجبال .

وفي رحلتي الثانية التي قمت بها الى فقرا زرت آثار فيطرون ، فلم اجد فيها ميزة خاصة . انهـا حجارة ضخمة مبني بعضها فوق البعض الاخر . اما الاخرى فهي في غاية التشويش . واظن انه كان في هذا المكان مرقب تعطى منه المعلومات والاشارات .

ان ذرى جبل صنين لها ايضاً مرقبها . فالبناية المربعة الحجم التي ترى آثارها على اعلى قمة من الجبل لا يعقل ان تكون قـد خصصت لغير هـذا الغرض . والبنـايات التي تلاحظ اليوم هنـالك لم تكن سوى مقر متولي هذه المؤسسة . ان القبو الواسع استخدم ولا شك لجمع مياه المطر .

اما جبل الكنيسة فسمي هكذا لان كنيسة صغيرة كانت تتوّج رأسه . ولهذا الجبل مرقب كما لجبل صنين ، وفيه غرفة معقودة بالحجر تستخدم صهريجاً .

الفصل السابع والعشرون

تابع الآثار القديمة في لبنان .

قمتُ بجولتين الى بعلبك سلكتُ في اولاهما طريق القوافل ، وفي الثانية طريقاً اخرى خططتهـــا لنفسي . وهذا انصح السائحين الذين يريدون ان يذهبوا من بيروت ليزوروا هليوبوليس القديمة ، ان يتبعوا هذه الاخيرة ، فطريق مار موسى التي اعنيها تقصر عنها مسافة اربع ساعات ، وهي فيما عدا ذلك اقل رداءة ، وهذا ما يجعلها مفضلة على غيرها . واذا ما اتبعنا الطريق التي تتبعها قوافل دمشق نقوم بدورة كبيرة ، وفي ذلك اضاعة وقت للسائح لا غير ، فهو لا يرى اذا ما سلك هذه الطريق الا « المغاور المزينـة » . انه مشهد مخيف يطل على وادي البقاع وهو على مسافة بضع دقائق من قب الياس .

وتحت هذه المغاور نجد انقاض بنيات دارسة ذات اتساع غير قليل يبلغ تقريباً الثلاثة عشر متراً . وقد كانت الآلهة حارسة هذا الوادي الخصيب تسكن هـذه الهياكل . ولا شك في ان الحُجُر الثلاث كانت مقراً لتماثيلها .

ان قصر فخر الدين في قب الياس لا يتميز بشيء خاص [1]، وضريح مار الياس المزعوم لا يلفت النظر ولا يستدعي الانتباه .

ان المسلمين يحترمون ، كالمسيحيين انفسهم ، النبي الياس . ومن هنا نتجت كثرة الزيارات التي يقوم بها ابناء الطوائف ، على اختلاف انواعها ، الى هذا المكان . لقد شيد على مقربة من ضريح النبي مسجدٌ يعيش سدنته من الصداقات التي يمنّ بها الذين يترجون الظفر بامانيهم بشفاعة هذا القديس عند زيارتهم مقامه هذا . فتقاليدهم تؤكد لهم ان اشلاء النبي ما زالت حتى اليوم في هذا المكان . والغريب ان هذا الاعتقاد لا يمنع المسلمين والمسيحيين من ان يشفعوا عادة اسم مار الياس بلقب الحي .

تنبيء خريطة البقاع عن وجود عدد كبير من المقامات المكرّسة للانبياء ، وهذا ما يؤكد تقديس المسلمين لهذا الوادي .

والزعم الاشد غرابة هو ان ضريح نوح الذي سأتكلم عنه ، موجود ايضاً في هذه البقعة . وهذا ما جعل لهذه الامكنة شأناً عظيماً في نظر الشعب ، تؤيد ذلك الخطوط العربية التي تكسو جدرانها الداخلية ، فهي تخبر عن اسماء عديدة احتلت مكاناً خطيراً في التاريخ .

واخال ان كثرة هذه المزارات قد نتجت عن منازعات طائفية ، فكل شعب فاتح شاء ان يعزز بدوره اولياءه ، ففرض لهذه الغاية الامكنة التي كرست لمعتقد غير معتقده او حوّلها لاوليائه . فالتنازع في جميع الاعمال هو اول خاصة من خواص الشرقيين .

[1] هدم قسماً كبيراً منه عام ١٨٢٢ الباشوات الذين كلفوا حصار مدينة عكا حين اعلن عبدالله باشا استقلاله .

ولا انصح السائحين ابداً ان يذهبوا ويروا آثار مشيمشة التي تبعد مسافة ساعة ونصف عن مار حنا . فهنالك اربعة نواويس تثير بعض الفضول ، واهمها اثنان يبلغان المترين في الطول والعلو . واذا ما رغبنا في التفتيش عثرنا على بقايا آثار مبعثرة هنا وهنالك ، ولكن كل ما نراه في ذلك المكان يبدو لنا غير منسق ، وميزته الوحيدة هو انه عتيق ليس الا .

وعلى منتصف الطريق الواقعة بين المروج وزحلة ، اي قبل ان نبلغ هذه المدينة بثلاث ساعات ، وجدتُ على احد الصخور طغراء الامبراطور ادريان . ووجدت ، مرة اخرى ، على الطريق نفسها ، تاريخ فترة على جانب كبير من الغموض IX Julii ، واظن انها تدل على ما يدل عليه شهر تموز .

يجد المسافر من زحلة طريقين تمكنانه من الوصول الى بعلبك . سلكت هذين الدربين دون ان اجد اثناء عبوري شيئاً يستحق الالتفات اذا استثنينا مخطوطة ابلح العديمة الاهمية ، والمسجد الصغير الذي يبعد مسافة نصف ساعة من مدينة الشمس . لست اشك في ان هذا المسجد وجوامع المدينة كلها قد شيدت بحجارة الهياكل المختلفة التي قامت في بعلبك . وذلك لاننا نرى في جدرانها جميعاً اعمدة يختلف بعضها عن البعض الاخر في الشكل والنوع .

قمت بعدة جولات من زحلة ، فوفقت الى بعض الاكتشافات . واهم ما اكتشفته ، حسبما ارى شخصياً ، كان الضريح الروماني الذي يسميه العرب : الجب (البئر) لان نبعاً يتدفق هناك من فم السرداب .

يبلغ عرض هذا الاثر ثلاثة امتار وسبعين سنتيمتراً ، ويبلغ

طوله حتى خد الباب ستة امتار وخمساً وستين سنتيمتراً ، ومن هذه الزاوية حتى الزاوية الخارجية ثلاثة امتار ونصف المتر ، اما علوه فنحو ستة امتـــار . انه كان ولا شك مدفن احدى العائلات الميسورة ، وقد وضع تحت حماية الالهة التي كانت ترتع في الحجر الثلاث .

تأسفت لعدم استطاعتي النزول الى السرداب لان مياه النبع لا تجف الا في اواخر الصيف .

وشاهدت عدة هياكل في الطيبة وقصر نابا Qasser Naba ونيحا . فالهيكل الذي لم يقوّض كالهياكل الاخرى يعرف اليوم باسم حصن نيحا ، وتيجان اعمدته تمثل زهر الخندقوق . والهيكل الواقع على مقربة من تلك القرية يسمى القلعة ، وهو فورنثي النمط . ومهما يكن من امر فهو اجمل تنظيماً وتنسيقاً من هيكل فقرا ، وان كانا مبنيين على طراز واحد .

والى الجهة الجنوبية من حصن نيحا تبدو انقاض احدى المدن ، وعلى مسافة عشر دقائق منها ديماس لم نتمكن من الدخول اليه لانه كان محـــاطاً بـسور . ان منفذ هذا الديماس مزين بعمودين مزدوجين . ونجد على بعد بضع خطوات شبه مسلة طولها حوالى المترين كانت ، ولا شك ، تقوم في اعلاه . وفي رأس هذه المسلة رسم حندقوقة .

اما الفرزل ، وهي مدينة قديمة جـاء ذكرها في كتب الصلاة عند الروم ، فما هي اليوم الا قرية حقيرة . استعان اهلوها بحجارة ابنيتها القديمة على تشييد كنيستها . واذ لم يستطيعوا هدمها لغموها وحطموا حجارتها الضخمة ليستطيعوا التصرف بها بسهولة .

نجد على جدران احد بيوت الفرزل صورة رأس ممحوة رديئة الصنع ، وفي اسفلها كتابة باسم محمد بن العباس تحمل تاريخ ٧٣٨ ه وقيل ان محمداً هذا اتى لزيارة هيكل نيحا . وهذا يدلنا على انه صار الى مسجد او انه اشتهر باعجوبة ما .

وغربي المدينة نجد المغاور الشهيرة المنقورة في الصخر . وهي لا تزال كثيرة رغم اندثار بعضها بسبب الانهيارات . يتصل بعض هذه المغاور بالبعض الاخر ، وتزعم التقاليد ان بعض النساك كانوا يسكنونها ، والعرب يطلقون على هؤلاء اسم حبساء الفرزل .

كان هؤلاء النساك يملكون كنيستين او معبدين : الاولى تقوم فوق المغاور ، والاخرى تستوي والارض . ولقد وجدت بين المقاصير ، وهي كلها ذات شكل واحد ، اي مقطوعة بشكل طربوش ، ومتساوية الحجم ، مقصورة كلست ثانية . وهنالك مقصورة اخرى استخدمت غرفة للطعام ، وتبلغ في اوسع مكان منها ستة امتار وسبعين سنتيمتراً .

وتحت المغارة الاولى بقليل نرى ديماس الحبساء ، وتقوم حوله تسع حجر فسيحة يبلغ علوها متراً ونصف المتر . وفوق مدخل هذا الديماس حجرة فيها صخرة تنتهي بنتوء كأنه السن . ونرى في بعض المغاور حفراً بشكل قوارير يرجح انها كانت مستودعات المؤن . وهناك آثار اقنية صغيرة كانوا يتلقون بواسطتها مياه الشتاء او يخزنون مياه نبع ما .

ولما كان يستحيل علينا الدخول الى جميع الحجر فلم نستطع التأكد من ان اولئك الحبساء كانوا يملكون احواضاً كبيرة تجمع فيها المياه . غير اننا نرى هنالك اثراً نستدل منه ان ساقية كانت

تجري في سفح الجبل .

نجد في هذا المكان ما يقارب ست طبقات من المغاور يقوم بعضها فوق البعض الاخر ، وهي تبعد عن الفرزل مسافة ربع ساعة .

وتجاه تلك نجد ثلاث مغاور اخرى مختلفة الاشكال . صغراها مربعة الحجم ، ذات باب كبير ، وقد اطلقوا عليها اسم المعصرة . واذا ما حكمنا بالاستناد الى الحرزة والجرن الذي يتلقى السوائل ، يبدو لنا انها خصصت لهذه الغاية . اما المغارتان الاخريان ، وهما اقل رحابة من الاولى ، فتحتويان بعض التماثيل . واحداهما ذات شقين . اما الاخرى فسقفها مثلث الشكل .

وتجاه البقاع ، جنوبي هذا المكان ، نجد ، اذا ما سرنا في لحف الجبل الذي يحاذي المغاور بعد مسير عشر دقائق صعوداً ، تمثالاً منقوشاً في الصخرة الى جانب حجر ضخم هو على اهبة ان يهوي من مكانه . فهنالك المقلع الذي تقتطع منه الفرزل حجارة البنيان .

ان صنع هذا التمثال متقن ، بيد انه غير تام ، وقد اتلف تلفاً كبيراً . يقارب هذا التمثال المتر حجماً . واني لاجهل السبب الذي حدا العرب الى تسميته بالقسيس او القسيسة .

والان وقد جاء دور الكلام عن بعلبك فسوف لا اسهب في وصفها لان الكثيرين قبلي شاهدوها ووصفوها . سأتكلم عن البناء المقبب وحده . فهو قائم على بعد مائة قدم شرقي الهيكل الصغير ، تزين واجهته الشمالية اربعة اعمدة من الرخام الابيض منحوتة على الطراز القورنثي . وحول هذا البناء تقوم ، في الجهة الخارجية ، اربع حجر تتألف منها زواياه الخمس وتتكىء على خمسة اعمدة من

طراز اعمدة البوابة . وفي كل حجرة قاعدة خصصت ، كما يظهر ، للتماثيل التي كانت تنصب عليها . ان اعلاها مزدان بصفدة عقيق جميلة . لا تزال اربعـة اعمدة وثلاث حجر قائمة حتى اليوم . امـا بقية البناء العليا فقد تهدمت .

يطلق سكان بعلبك الحاليون على هذا البناء اسم كنيسة القديسة بربارة . واذا قسنا هذه البناية ابتداء من الباب يبلغ طولها احدى عشرة قدماً هندسية وعرضها اثنتي عشرة .

وتحت الهيكل الكبير قبة تبتدىء في الجهة الشرقية وتنتهي في الجهة الغربية . اما طولها فمئة وستون قدماً هندسية ، وعرضها ست اقدام . اننا نلاحظ ، على اغاليق عقد هذه القبة ، نقوشاً تمثل الالهة مثل هرقل وديانا الخ ...

وعلى مقربة من تمثال هرقل ، قبالة دار موروبة يبلغ طولهـا مئة واربعاً وثلاثين قدماً وعرضها ثماني اقدام ، نجد هذه الكتابة : Divisi Mosc ، وقد كتبت في سطرين .

ان هذه القبة الموروبة التي تبتدىء على ثلاثة وعشرين قدمـاً من الباب ، تتصل بقبة ثانية موازية للاخرى ، اي انها تمتد ايضاً من الجهة الشرقية للجهة الغربية ، متبعة المقيـاس نفسه في الطول والعرض . وفي اعلاها نقرأ ايضاً هذه الكلمة : Divi .

وعند دخولنا نجد الى اليسار غرفة تبلغ احدى وعشرين قدماً طولاً ، وسبع اقدام عرضاً . اما الى اليمين فنمرّ في مدخل ينتهي الى مسكن يبلغ طوله سبع عشرة قدماً وعرضه سبع اقدام .

جميل ان ندرس ، في هذه المدينة ، المخطوطات المتعددة الموجودة على جدران الهيكل الكبير والمساجد المتعددة . ولقد اكتشفتُ

هنالك اسم ملك فارسي لم يأت على ذكره المرحوم دولو ، في كتابه الذي يدور موضوعه على سلالات الملوك . غير اني ، ويا للاسف ، فقدت نسخة تلك المخطوطة لاني بعثت بها الى قاض في بيروت لاعتقادي انها كانت تحوي آية ظننت انها مأخوذة من القرآن . ولقد قرأت عدة مخطوطات ترقى الى سنة ٦١١ و ٧٠٤ و ٧٤٠ هـ . نقشت بامر من الحكام العرب .

وهذه النبذة التالية الواردة في تاريخ « الهان » العام تنبئنا عن الاجتياحات الكثيرة التي تعرضت لها هذه المدينة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر :

« وفي عام ١٨٠٣ اي ٤٧٦ هـ . استولى توتوخ سلطان بلاد العجم على بعلبك التي كانت يومذاك في يد المصريين ، فعاد هؤلاء واحتلوها مرة ثانية عام ٤٨٤ هـ .

« وعام ٥٢٦ هـ . خضعت بعلبك لمحمد امير دمشق الملقب بشمس الدولة . ثم في عام ٥٣٣ هـ . سقطت بين أيدي عماد الدين زنكي وكانت يومذاك لدمشق . وبعدئذ احتلها مجير الدين عبس .

« وعام ١١٥٧ اي ٥٥٢ هـ . احتل بعلبك نور الدين قطب الدين . وفي هذا العام نكبت سوريا بزلازل ارضية عنيفة . وفي سنة ٥٧٠ هـ. استولى صلاح الدين على بعلبك ، ثم خلفه في الحكم الامير مجد الدين بهرام شاه عام ٥٨٩ . وبعد ذلك خضعت للمغول وحكمها هولاكو خان .

« وفي عام ١٠٢٥ اي ٤١٥ هـ . احتل بعلبك صالح بن مرداخ زعيم العرب الكلابيين .

« وعام ١٤٠٠ اي ٨٠٣ هـ . سقطت بين يدي تيمورلنك . »

ان بعلبك تخضع لدمشق وهي اقطاعة منها . وقد تسلم آل

حرفوش ، امراء المتاولة ، زمام حكمها . وهي الولاية الوحيدة التي عهد بها الى هذه الاسرة مع بعض الصلاحيات التي كانت لها في ضواحي صور . فآل حرفوش هم اول من سكن هذه الناحية من سوريا ، وقد قلّ عددهم اليوم .

يسيطر المتاولة على قسم من البقاع واسع جداً ، وهو اخصب ارض مروية في سوريا . ومع هذا الخصب والريّ فلا يزرع منها ما يكفي لسد رمق شعب بائس قليل العدد .

ان التلال القائمة حول السهل والتي كانت اشهر جميع انحاء سوريا في انتاج اطيب العنب قد خربت واتلفت بلا شفقة بناء على اوامر الامير الحاكم ليمنع الدمشقيين من استثمارها .

فلو لم يحسن آل حرفوش الاستفادة من العلاقات التي تربطهم برعاة بلاد ما بين النهرين العرب ، لما استطاعوا القيام بنفقات اتباعهم المسلحين ، ولكن مقايضتهم مع اولئك الرعاة كانت تدر عليهم كثيراً من الخيرات وتمهد لهم سبل المعيشة .

واذا ما اتجهنا الى بعلبك مارين في منتصف الوادي اعجبنا بذاك النشاط الذي نلمسه في حراثة الاراضي المزروعة حبوباً . اما التشجير فلا يبالى به منذ سنوات عديدة . فالعناية بغرس الاشجار تتلاشى وتزول رويداً رويداً بقدر ما نبتعد عن حدود دولة لبنان .

يشعر الناظر بغبطة لا حد لها اذا ما القى نظرة على سهل البقاع من قب الياس . اما اذا ما تطلع من بعلبك فانه يتألم ويحزن . فمتى تركنا اراضي تلك الولاية لا نرى الا حقولاً يغطيها العوسج والاشواك ، فالعين التي تتعب من رؤية هذا المشهد المؤلم ،

ذي النمط الواحد ، لا تجد امامها لتفتن بعض الافتتان الا مشهد بعض الروابي القاحلة التي يخالها الناظر ، نظراً لتكوينها الغريب ، حجارة قبور مخروطة الشكل . ومنذ حين غامر اهالي جبة بشري وزحلة في شراء عقارات من المتاولة الذين اصبحوا كثيري التخوف فجنحوا الى السلم وصاروا اقل ميلاً الى المنازعات .

كان امراء آل حرفوش قديماً يكيد بعضهم لبعض ويشنون فيما بينهم غارات مستمرة . ولكي يواصلوا منازعاتهم الظالمة ويمدوها بما تحتاج اليه من عتاد وغيره ، اثقلوا كاهل المزارعين بفرض الضرائب الغاشمة عليهم . وهذا هو سبب التباين الذي كنا نلمسه ما بين حالة زراعة هذين البلدين . ان الامير بشير ، رغم طابع حكمه الجائر ولجوئه الى الاساليب العنيفة ليوطد زمام سلطانه ، كان يتقيد ببعض الاصول التقليدية التي تضمن الحقوق الشخصية ضمانة كبرى .

ان من يرى قرى المتاولة يخال ان بيفون قد شاهدها حين وصف الطبيعة التي افسدها البشر . فالقطعة التي كتبها في هذا الموضوع هي صورة تمثل لاعيننا ما نشاهده في هذه المقاطعات ، وترينا الاسباب التي ادت الى الخراب والدمار . قال بيفون :

« ومع ذلك فالرجل لا يتقلد الحكم الا بفضل غزواته وفتوحاته ، فهو يتنعم ولا يملك . انه لا يستطيع المحافظة على سلطانه الا بهذه المساعي التي تتجدد دائماً . واذا ما وقف عدوانه ذوى كل شيء ، وفسد وتبدل وعاد الى مجراه الطبيعي . ان الطبيعة لتستعيد حقوقها وتمحو اعمال الانسان وتكسو اشد آثاره تيهاً وزهواً بالغبار والطحلب ، ثم تدك معالمها كلما تقادم العهد ، فتترك في نفس ذلك

الجائر ندماً وحسرة على اعتدائه على آثار اسلافه . وهذه الايام لا بل القرون البربرية التي يضيع فيها الانسان ملكه ، ويفنى فيها كل شيء ، لا يسببها غير الحروب ، ولا تكون الا في سني الجدب والقحط ، والهجرة التي تقفر البلاد . لا يستطيع الانسان ان يعمل الا متكتلاً ، ولا يقوى الا بتكاتفه ، ولا يسعد الا بالسلم . انه يهلع ويجزع اذا ما فكر بحمل السلاح والقتال اللذين يجران عليه الخراب والويل والتعاسة . وعندما يحرضه نهمه الذي لا يشبع ، ويعميه طمعه الجشع ، يتناسى شعوره الانساني ، ويوجه قواه الى نفسه ، ويحاول ان يتفانى لا بل ان يفنى حقاً . وبعد الايام الدامية والمذابح يرى بعين كئيبة ، عندما يتبدد دخان النصر ، الارض مقفرة ، والفنون مدمرة ، والشعوب مبعثرة ، والامم ضعيفة ، وسعادته الشخصية محطمة ، وقوته الحقيقية مضمحلة[1] . »

١ منتخبات ، ص ٢١ .

الفصل الثامن والعشرون

تابع الآثار القديمة في لبنان . وادي البقاع . دير مار سمعان .
عنجر . النبي زور . النبي نوح . زحلة .

عندما تركت بعلبك احببت ان اسير في لحف الجبال المناوحة للبنان كيلا ادع شيئاً ورائي له بعض الاهمية ، فشاهدت رصيفاً قديماً تتكوّن منه طريق بعلبك التي تؤدي الى صور وصيدا . وهذا الرصيف رفع عالياً ليستطاع المرور عليه ، اثناء فصول الشتاء الممطرة ، حين تكون اراضي البقاع مغمورة بالمياه .

ان انقاض دير مار سمعان ليست بذات طابع خاص ، وهي تدل على مكان مؤسسة دينيـــة مسيحية حلت على الارجح محل هياكل كرّست لعبادات اخرى . وذلك شأن الشعوب المتعاقبة ، فان تقواها تدفعها الى هذا العمل فيحل المعبود المقبل محل المدبر .

تنبىء تقاليد البلاد عن وجود عدة قرى من اصل فرنسي ، تقع عند اقدام الجبال المناوحة للبنان . والقرية التي زرتها لانها تسمى « عنجر الفرنسية » ، يحيط بها سور محصّن ببرج . بنى هذه البلدة المحاربون الصليبيون عندما طردوا من الارض المقدسة[1] . ومع اني

[1] قال السيد بوجولا : تركنا على مسافة ساعة تقريباً من جسر غزّيل بقية

لم اتوصل الى اكتشاف اي اثر يثبت صحة الرواية التقليدية، كنت مقتنعاً كل الاقتناع بصحتها. ان طراز بناء قرية عنجر لا يمكن ان يكون اغريقياً ولا رومانياً او عربياً. ولهذا لا يصح ان تنسب الا الى الاوروبيين. اما القناة التي تجر مياه احد الينابيع الى القرية والقصر فجديرة حقاً بالاهتمام.

ان مياه هذا الينبوع ذات مدّ وجزر. ولهذا ظنها ابناء البلاد مسحورة.

ان المطحنة المائية المشيّدة هنالك يرتادها اكثر ابناء قرى الضاحية الغربية المجاورة للجبال المناوحة للبنان، نظراً لندرة المياه في جميع انحاء تلك البقعة.

وجدتُ بين انقاض قرية عنجر قطع اعمدة من صوّان جميل اسود اللون وابيضه واحمره.

وغير بعيد من هنالك يقوم مقام النبي زور، وهو جامع مشيّد على آثار هيكل قديم.

ان احترام ذلك المكان واجلاله ونوع الحجارة التي استخدمت في البناء الجديد ينبئان ان هذا المحل كان مزاراً مقدساً قبل مجيء الاتراك. وفيما عدا ذلك نرى هنالك حفرة مطمورة طافحة

مدينة يسميها ابناء البلاد عنجر، ويعدونها من اصل فرنسي. فالانقاض التي فيها يرجح انها انقاض احد القصور الفرنسية في زمن الصليبين. أوَ لا يكون اسم عنجر تحوير اسم انجو؟ اولا يكون فولك دانجو، الذي حل محل بودوان الثاني على عرش القدس عام ١١٣١، هو الذي بنى هذا الحصن؟ ان هذا التقدير يبدو لي محتملاً، لان فولك دانجو هو الذي كان اكثر ابناء الشعب اللاتيني تشيداً للقصور. — رسائل شرقية، ج ٦، ص ٤٤٣.

بالمياه ، ويبدو للنظر انها كانت فسيحة . وهناك نواويس وصهريج ينزل اليه بدرج . وحول هذا الصهريج انقاض كثيرة على جانب كبير من الضخامة .

والنبي نوح الذي يبعد قليلاً عـــن المعلقة ، وهي قرية قرب زحلة ، مقام ذو آثار ترقى الى عصرين مختلفين ، فجامعه الكبير المدعو باسم هذا النبي زاره عدد كبير من الخلفاء والسلاطين ، وقد خلدت زياراتهم تلك المخطوطات المنقوشة على جدرانه .

بني هذا الجامع الكبير بحجارة الهيكل القديم . اما ضريح هذا النبي القديم فمشيد في غرفة طويلة تتناسب مع حجم اللحد الذي لا يزيد طوله على الواحد والثلاثين متراً . امـا عرضه فمتر وخمسة وستون سنتيمتراً . ان الذين خطّوا الضريح لم يشاؤوا ان يجعلوه اكبر مما هو عليه خوفاً من الابتعاد عن الواقع ، لان بنية نوح الجبارة ، لا بل اكثر من جبارة ، يجب ان يزاد قبرهـا خمسة او ستة امتار عما هو عليه . بيد انهم ، دون ان يبالوا باحترام هـذا الجسد المقدس ، جعلوا ساقي الدفين منتصبتين عمودياً . وهكذا اختصروا القبر فجعلوا نهايته عند اول الركبتين .

تعد قصبة زحلة حوالى ثلاثة الاف من النفوس ، وهي واقعـة في واد على منحدر رابية . وتحت هذه الرابية تجري ساقية صغيرة فتروي بضع مئات من اشجار الحور بنفياً ظلالهـا اكثر السكان حين يدفعهم قيظ الصيف من مساكنهم الضيقة ، القليلة الارتفاع .

ان بيوت زحلة مبنية بالتراب والقش تدخر حرارة شمس النهار وتحفظها طول الليل . وهذا ما يحمل ابناء زحلة على ان يناموا فوق سطوح منازلهم في العراء . وهذه البيوت نظيفـة الداخل ،

و كثرها كبير واسع يدخله الهواء وتتوافر فيه جميع اسباب الراحة كما في بيوت المدن . ويخيل للذي يرى هذه البيوت انه في احدى قرى جزيرة قبرص المشيدة بالمواد نفسها .

يرتدي سكان زحلة بوجه عام ملابس نظيفة ، جيدة . والنساء يلتحفن بمئزر من النسيج الاحمر ، ويعصبن رأسهن ببساطة كلية . فالطربوش المعصوب بمنديل يغطي الرأس يذكر السائحين بملابس اهل جزيرة قبرص . وفي زحله امر تجدر ملاحظته وهو كيف يدفنون موتاهم . انهم يدفنونهم على وجه الارض تقريباً ، وعلى مسافة بضع خطوات من منازلهم . يضجعونهم في اضرحة تشبه النواويس يبنونها من كلس ورمل فيبدون كالمومياءات لمن يراهم حين يوسّدون الثرى .

اكثر سكان زحله من الروم الكاثوليك . وهم شجعان اشداء ، حمل تكاتفهم جيرانهم المتاولة على احترامهم . وخمسمائة من الزحليين يحمون بلدتهم من كل عدوان خارجي . وعندما اعلن الدروز ثورتهم على الموارنة انضم اهالي زحله الى هؤلاء وصمدوا في وجه الدروز ، لا بل غلبوهم على امرهم وكبدوهم خسائر فادحة .

تتجر هذه البلدة بالمأكولات والانسجة والاصواف والزبدة .

تصدر الاحكام القضائية في زحله باسم الامير الكبير ، والادارة فيه منوطة باحد ضباطه ، يعاونه مطران الابرشية في تدبير الشؤون المختصة به .

ان جميع سطوح منازل قرى البقاع وجدرانها الخارجية مغطاة بكوم من زبل البقر المخلوط بالتبن الخشن الذي عافت اكله تلك الحيوانات . والاهالي يجففون هذا الزبل ليجعلوه وقوداً .

واذا ما استثنينا بضع اشجار من الحور فقلما نجد في سهل البقاع شجرة واحدة . ان الذين يرونه الآن لا يمكنهم ان يهتفوا : ان رجلاً نافعاً مرّ ههنا !

لقد امر ابراهيم باشا بتشجير هذه الناحية ، فجيء بعدد كبير من الاشجار لتزرع في البقاع . ولكن اذا سمحتُ لنفسي ان احكم على الاعمال لا على الاقوال ، اقول : ان هذه البقعة لا تزال قفراء كما رأيتها في رحلتيّ الاوليين ، وقد عملوا فيها كما فعلوا في حلب تحت بصر هذا القائد .

ان زحلة تُفرح وتسرّ في الربيع وخصوصاً من يتيسر له ان يسكن الضاحية المرتفعة منها . والسيد بودين ، الذي انزلني في داره مدة من الزمن ، شيّد فيها لنفسه بيتاً على جانب كبير من الجمال ، في اجمل موقع يمكن ان يتخيله انسان .

وعندما اضطرنا مدفع « نافاران » الى مغادرة مراكزنا اصبح لبنان ملجا جميع فرنسيي سوريا . والسيد بودين القائم باعمالنا في دمشق انكفأ الى زحلة ، بينما كنت انا انزل حيناً بعد حين في مختلف الاديرة . فرجال الاكليروس الذين سمحت لي الفرص ان اخدمهم في عدة مناسبات اظهروا لي اهتماماً بالغاً ليبرهنوا عن عرفان جميلهم .

ان السيد بودين هو صديق لي منذ مدة طويلة (وهو صديق جميع الذين يعرفونه) . ولما كنت اغتنم ساعات فراغي للتلهي ، فقد شاء هو ايضاً ان يحصل على نصيبه مني ، فزرته يرافقني صديق آخر ، هو احد اولئك الفرنسيين المحبوبين الذين عرفتهم سوريا : السيد فورتونه اومان .

وفي تلك الرحلات التي قمنا بها معاً شدّ ما تلذذنا بالتحدث عن وطننا الذي جعله ابتعادنا عنه جميلاً في اعيننا اكثر مما هو عليه الف مرة . اننا نأسف عندما نفقد شيئاً ، وعند ذاك يمكننا ان نقدر قيمته . وهكذا يجب ان نحرم امتلاك شيء لندرك اهميته وحاجتنا اليه .

كانت امرأة السيد بودين ترافقه ، وهي سيدة تتجسد فيها الدعة واللطافة . ففي هذه الرفقة الممتعة قضيتُ خمسة عشر يوماً في رحلاتي اصور واعشب ، وان لم اجنِ من عملي هذا غير تعب ومشقات . واخيراً كنت انتعم بمجالس ضيوفي المجتمعين حلقات حلقات ، وبهم حلَتْ في عيني تلك الامكنة . ما احلى رحلة والبقاع اثناء فصل الربيع ، وعلى الاخص لشخص يحب الحليب ! ان الزبدة والبان الجواميس لذيذة الطعم فيها .

الفصل التاسع والعشرون

تاريخ الموارنة .

قلت سابقاً ان سكان لبنان هم الموارنة ، والروم الكاثوليك ، والروم الارثوذكس ، والدروز ، والمتاولة . اما الملل الاخرى التي نجدها في تلك الجبال كالمسلمين ، واليهود ، والارمن الكاثوليك فضئيل عددها .

سوف لن اتعب قرائي ببحثي مطولاً عن اصل الموارنة ، ولن اتعرض لمجادلات شغلت كثيراً من المؤرخين [1] عن منبع هذه الطائفة ومصدرها ، ولكني اسمح لنفسي بالقول انهم ضلوا جميعاً في قضية تكتنفها الغوامض ، وان اختلف ضلالهم قلة وكثرة . فاذا لم تسفر تحريات علمائنا عن معرفة ما يرغبون فيه ، فذلك لان الاجيال القديمة المقدسة هي ايضاً قد احتفظت باسرارها ،

[1] بحث الكثيرون عن ثبات الموارنة على عقيدتهم الكاثوليكية منذ وجدوا، وعما اذا كان الأبا مارون الذي ينتسبون اليه قديساً حقيقياً او قائلاً بمذهب الارادة الواحدة ليسوع وان اعترف له بطبيعتيه الانسانية والالهية . ان هذه القضية لا تعنينا ، والمؤكد هو ان الموارنة كاثوليكيون منذ عام ١١٨٢ ، وانهم حافظوا على عقيدتهم بكل ما اوتوا من عزيمة في بلاد يحيط بهم فيها المراطقة . — القديس منصور دي بول ، ج ٢، ص ٦٢ .

وارخت سدولاً لا تخترق على ما ضنت به ، او شاءت ان تحجبه عن ادراكنا .

لسنا نعرف معرفة لا تقبل الريب اذا كان الموارنة اتوا الى لبنان من بلاد ما بين النهرين ، او من فلسطين . ومهما يكن من امر فأرجح انهم من اصل جنوبي اكثر مما هم من اصل شرقي ، رغم الاراء التي تؤيد الفكرة الاخيرة . وهنالك رأي ثالث ، يمتّ الى الاول بصلة ، ينبئنا ان الموارنة وجدوا ، في القرن السادس ، في مدن حماة وقنسرين وافاميا ، وان مار مارون ، الذي يقال انه ولد في بلاد ما بين النهرين ، سكن تلك البقاع قبل ذلك بقرنين .

وعلى كل فها كم ما ترويه التقاليد حول هذا الشعب المعروف بالشعب اللبناني اليوم .

ان بعض مسيحيي سوريا الذين اضطهدهم الاسرائيليون والوثنيون ، على اثر نشأة الكنيسة ، فكانوا يسمونهم السريان [1] ، قد لجأوا الى جبل لبنان ، وعاشوا فيه جماعات جماعات حتى القرن الخامس ، الفترة التي قدم خلالها يوحنا مارون ، تلميذ الانبا مارون القديس ، مفتشاً عن ملجأ حصين في لبنان هرباً من ثورات هراطقة بلاد ما بين النهرين وانطاكية الذين ذبحوا ثلاثماية تلميذ من تلاميذ الانبا مارون . اخذ يوحنا مارون يبشر برسالته فلاقى نجاحاً باهراً نظراً لسعة ثقافته وبراعته في الكلام . وهنالك اسّس رهبانية مار مارون فانخرط فيها اكثر السوريين واتبعوا تعاليمها

١ راجع الحاشية التالية .

وكانوا قدوة [1] .

ولدى انشقاق كنيسة الروم او كنيسة الشرق لم ينفصل الموارنة عن الكنيسة اللاتينية . كانوا يعيشون في كسروان ، منفصلين عن الملل الاخرى، ناهجين نهج الرهبان الابرار الذين كانوا يتولون ادارة شؤونهم مدنياً ودينياً ، فكانوا امراءهم وزعماءهم [2] ورؤساءهم في وقت واحد .

ان الامبراطرة او اكليروس القسطنطينية ، وقد قتلهم الحسد لدى رؤيتهم ابناء هذه الجبال يعيشون هادئين ، ناعمي البال ، وسط الخلافات وبلبلة الكنيسة التي كانوا يحكمونها ، اوفدوا اليهم بضع شراذم تخضعهم وتعاقبهم لاتباعهم البابا . الا انها دحرت عدة مرات بعد ان منيت بخسائر فادحة [3]. وعندما اغضبتهم هذه المقاومة استمالوا احد سلاطين دمشق وأغروه ليثأر لهم من هذا الشعب المتمرد . ولما كان جيش هذا السلطان لا يجرؤ ان يهاجمهم بالسلاح فقد لجأ الى استعمال الحيل الحربية . خدعهم بعقد ميثاق تحالف يربط بين مصالحه

١ قبل ظهور هذه البدع التي قسمت الكنيسة الشرقية طوائف مختلفة ، كان يطلق اسم السريان على جميع مسيحيي البلاد الشاسعة الواقعة بين كيليكيا ومصر وتمتد من الفرات وجزيرة بلاد العرب حتى البحر. الا انه بعد ان انشق عدد كبير من المسيحيين عن كنيسة الروم اطلقوا عليهم اسماء مختلفة تميز معتقدهم الخاص عن سواهم او زعيم الطائفة التي ينتمون اليها . — دي لاروك ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

٢ اتى بول لوقا في فهرسه على ذكر سكة فضية ضربها الموارنة القدماء. — ج ٣، ص ٣١٤ . ولكني لم اتمكن من معرفة هذه النقود الهامة ولا ادري اذا كانت موجودة.

٣ يقال ، حسب زعم السمعاني ، انه على عهد الامبراطور يوستانيوس وبعد ان هدم الملكيون دير مار مارون، هزم الموارنة اولئك وتتبعوهم حتى سهول الكورة الى ما بعد طرابلس . وقد لقي قائدا الروم موريق ومورقيان هنالك حتفهما ، والاول دفن في امبون ، والثاني نقل الى عكار .

ومصالحهم ، ليقفا معاً في وجه اولئك الامبراطرة . ثم دعاهم الى اجتماع في سفح من سفوح جبال لبنان حضره الامير ابراهيم الماروني واكبر قواد امته . وفي اثناء هذا الاجتماع العام الذي كان يسوده الارتياح التام ، وبينما كانوا يتناولون طعامهم جميعاً ، اومأ السلطان الى رجاله فذبحوا الامير وعدة اشخاص من اسرته مع جميع قواده وحاشيته الذين حضروا الاجتماع وكان يبلغ عددهم خمسين شخصاً .
واستغل السلطان الذعر الذي عقب هذا الحادث ، فتوغل في الجبل على رأس عدة شراذم من عسكره ، اقرّها في الضواحي ، واخذ يطارد الموارنة التعساء الذين وقعوا في الشراك كقطيع من الماعز ، فذبح منهم قسماً كبيراً بلا شفقة او رحمة . واختبأ قسم آخر في المغاور . اما الباقون فقد تشتتوا هنا وهنالك هاجرين هذه الديار . ثم ان هذه الفلول التائهة بين مكان وآخر التجأت اخيراً الى جبال تراقية الواقعة على شاطىء مالابار ، وهم لا يزالون هنالك ، كما يقال ، حتى اليوم وقد بلغ عددهم مئتي الف شخص . انهم لم يحافظوا ، فيما يختص بتعاليم الديانة المسيحية ، الا على سر العماد الذي يُمنح باسم الاب ، والابن ، والروح القدس ومار يوحنا مارون . والبعض الآخر يزعم انهم كانوا يعمدون برسم اشارة الصليب واسم مار مارون . وهم يجهلون اللغة السريانية . وفي هاتيك الفترة التي تلت نكبتهم تلك دخل المتاولة كسروان وظلوا في هذه المقاطعة حتى ايام الامير يوسف الذي اجلاهم عنها .
ويقال ، بناء على زعم الكثيرين ، ان عدد الموارنة كان كثيراً لا يستهان به في الهند ، وانهم كانوا يعيشون فيها سعداء مستقلين ، لا يعكر صفوهم معكر ، نظراً لاعمالهم الزراعية التي كانوا يقومون

بها ، ومراكز اقامتهم المنيعة التي لا تقتحم .

أوفد البطريرك حنا الحلو والمطران يوسف اسطفان ، مؤسس عين ورقة ، الى تلك البلاد ، سنة ١٨١٣ ، راهبين اضطرا الى التوقف في بغداد بسبب الحيرة التي وقعا فيها لا لعدم توفر الاسباب المؤيدة لوجود هؤلاء النصارى الذين يقال انهم يتحدرون من الموارنة بل للصعوبات التي اعترضت وصولهما اليهم . فعادا على اعقابهما . ومذ ذاك لم يقم احد بمحاولة اخرى من هذا النوع .

ويظن في بغداد ان بعض المرسلين تمكنوا من الوصول الى جبال تراقية فردوا اهليها الى اعتناق الكثلكة . ويجب ان نلاحظ ان البيان الذي نشرته نيابة اسقفية مالابار [1] قد تناول المسيحيين الأوَل المعروفين باسم مسيحيي القديس توما ، الكلدانيين السريان او السريان فقط ، الذين لم يتفقوا والموارنة الا في دحض مغالطات اوطيخا ونسطور — ان هذا البيان لم يأت على ذكر جبل تراقية .

وأشد الالام التي قاساها الموارنة ، في الآونة الاخيرة ، هي بلا ريب تلك التي تلت سقوط فخر الدين . لقد أستنزفت بادىء ذي بدء جيوبهم من جراء دفعهم نفقات اميرهم الضخمة . وعندما حدث الانقلاب وما تلاه من نتائج سيئة سحقوا تماماً . ففي تلك الآونة توطدت ، بنوع خاص ، العلاقات القائمة بين الموارنة والفرنسيين لان مصيرهم البائس لم يكن يريهم خشبة النجاة الا في تدخل ملك فرنسا ، لويس الكبير ، الذي ملأت شهرته قلوب مسيحيي

١ تاريخ انتشار الايمان ، رقم ٦٧ ، ص ٩٥١ .

لبنان ودوّت في جميع جبالهم .

وبهذه المناسبة (١٦٥٩) اخذ الملك على عاتقه حماية البطريرك ، وجميع الاساقفة والاكليريكيين والعلمانيين الموارنـة . ثم توسط سفير فرنسا في القسطنطينية للمحافظة على هـــذا الشعب وحماية مصالحه .

ويظهر ان الموارنة ظلوا في قلق وخوف ، كما يتبين ذلك مما نشره دي لاروك من براءات ملكية ترجع الى عام ١٦٩٧ حول مساعي امراء لبنان وبطريركه في تغيير اسلوب الحكم المجحف بحقوقهم .

ففي عام ١٦٦٢ عين احد افراد آل الخازن ، وهؤلاء هم من اعرق واشرف عائلات الجبل ، قنصلاً لفرنسا في بيروت . وكان القصد من هذا العطف ان يخوّل احد الموارنة الاقوياء بعض السلطة ليعاضد اخوانه ويرعاهم .

وقد فهمت من احد اساقفة هذه العائلة ان الكنيسة الاولى ، التي شيدت في كسروان ، يوم كان يأبى تعصب المتاولة الاقوياء ، حينذاك ، ان يكون للمسيحيين مكان عام يصلون فيه ، كانت في منزل قنصل فرنسا . فهـذا القنصل الخازني جعل مقره الصيفي في الجبل ، فكان ذلك المكان مصيفاً وكنيسة في وقت معاً . وهكذا اتاح لبني ملته ممارسة طقوسهم الدينية .

ترجع شهرة اسرة بيت الخازن الى الشدياق سركيس الذي والاه الحظ فحمى ابناء الامير معن . والصغير الذي ربي بين اولاد الشدياق سركيس اصبح فيما بعد اميراً ، فاتخذ مدبراً له الرجل الذي قام مقام والده . وهكذا احتفظ آل الخازن بهذا المنصب ، لان خلفاء

الامير سلكوا مسلك والدهم ، مدة مئتين وثماني عشرة سنة ، مشتهرين بالمقدرة والاستقامة .

وما بلغت عائلة الخازن قبة مجدها وشهرتها حتى اخذت تعاني صروف الدهر وضربات القدر التي كانت تتوالى عليها بسرعة متتابعة . وعندما أفل نجمها تمكنت بفضل خدمات قامت بها ان تكتسب عطف الرجال العظام في بلاط فرساي والقسطنطينية . ان هاتين الدولتين اتفقتا على مخالفة شرائعها الخاصة ونظمها لتعينا ، كما سبق لي ان قلت ، احد مشايخ آل الخازن قنصلاً في بيروت وقد لقبوه في باريس بالامير .

ان البراءة الملكية الصادرة في شهر تموز ١٧٠٨ تشير الى براءة اخرى سابقة لها يرجع تاريخها الى سنة ١٦٦٢ . اما آخر براءة فصادرة سنة ١٧٢١ . وهنالك براءات اخرى عديدة قد اطلعت عليها عند الموارنة .

واطلعت على فرمانين سلطانيين صادرين عن الباب العالي ، احدهما من السلطان محمد يرجع تاريخه الى سنة ١٠٧٤ هـ . وآخر من السلطان مصطفى مؤرخ في ٢٣ شعبان ١١١٦ هـ . وفي هذه البراءات السلطانية ود وعطف اكثر مما تعودنا ان نقرأ في امثالها ، فالذين وجهت اليهم يدعون فيها ابناء الباب العالي .

غير ان آل الخازن جردوا من مناصبهم حين نشبت الثورات في الجبل ، ففقدوا على اثر ذلك منصب قنصلية فرنسا في بيروت . وقد عهد بهذا المنصب بعد موت آخر قنصل من الموارنة الى مدبّر ماروني هو الشيخ غندور الخوري الذي قتله الجزّار قبل ان يتسلم البراءة .

واذا شئنا ان نبحث عن المنفعة التي تجنيها اليوم اعمالنا التجارية

من تجديد مناصب القناصل والوكلاء ، وجعلها في عهدة شخصيات لبنانية او رجالات شاطىء سوريا العظام ، يتوجب علينا ان نلقي نظرة على حكومة هذه البلدان ، لان نفوذ الاشخاص يتوقف على تأثيرهم لدى هذه السلطات . فبعد ان خلق الاتراك الفتن وبثوا روح التفرقة بين الشعوب والزعماء . اصبحوا هم اسياد البلاد ، وفقد الموارنة مكانتهم في الجبل . اما في المدن فقد اخذ الموظفون الكبار يفضلون التعامل مع الاوروبيين بدلاً من النصارى من رعايا السلطان ، ولا سيما عندما راعي الفرنسيون البلاد وعرفوا ان المثل القائل : « الهدايا الصغيرة تغذّي الصداقة » قد وضع خصيصاً للشرق .

يزعمون ان الحاجة هي التي توقظ فيهم شهوة القبض . اما انا فلا اؤيد هذا الزعم لاني ما عرفت تركياً واحداً لم يستقبل بفرح متناه عرض تقديم هدية ما . ان خازندار داي الجزائر ، وهو على جانب كبير من الثراء ، لم يكن يرتدي غير الاجواخ التي كان يستقدمها له قنصلنا بلون رمادي مفضّض . وكثيراً ما كان يقول هذا الموظف : ان الاجواخ المعروضة في اسواق الجزائر لا تضاهي اجواخ باريس في القيمة والاتقان والجمال . وما اخالها حازت اعجابه العظيم الا لانها كانت تأتيه بلا ثمن .

لا شك ان معرفة الجميل هي التي حبّبت الموارنة بنا . ومع ذلك فهنالك من يزعم ان مودتهم ليست الا رابطة قوامها المصلحة ، وهي تتبدّل بتبدل الحكم القائم عندهم . فموالاتهم لنا تتوقف على موالاة الحكم القائم عندهم وعدمها . لقد وجدتهم على الغالب في كثير من المناسبات غير ودودين ، لا يظهرون اي مبالاة . وتلك الامتيازات التي اكتسبها الفرنسيون في استمالتهم ومودتهم قد

شاخت ... فكم مرة لاقيت منهم مقاومة ومناهضة في الخدمات المتوجب قضاؤها . فلا ادري ، اذا كان لا بد لي شخصياً من الثناء على الموارنة ، كيف استطيع ذلك وانا لم اشعر ، اثناء قيامي بمهمتي الرسمية ، بالعطف الذي كنت اتوقعه منهم . ان الامراء والاكليروس ، او بكلمة وجيزة رجال الدنيا والدين لم يعاملوني المعاملة التي كنت اتأملها وارجوها . ان الشعب الماروني بوجه عام طيب بمقدار ما ، وخيره ذلك القروي الساذج الذي لا يزال يحافظ على عاطفته ، ويتمسك بتقاليده التي لم تستطع الايام ان تفسدها . انه يرى فينا ، كما لاحظ السيد لامرتين ، « حماة اليوم ومحرّري المستقبل . »

نعمت بنفوذ وتأثير قويين في الجبل فكثر فيه عدد اصدقائي ، بعد ما قمت بقضاء حاجاتهم وقدمت لهم الخدمات التي كانت تسمح لي مهمتي بتأديتها ، وعلى الاخص تلك الحماية التي كانت تمنحها فرنسا لرجال الاكليروس الماروني . وقد كنت اطبّقها بحذافيرها بلا هوادة . فانما هؤلاء ينشدون حمايتنا لهم عندما يقومون باعمالهم الدينية . فلو كنت حصرت خدماتي في نطاق الدين فقط لما كان في استطاعتي ان اتمتع بأية شعبية في لبنان ، وكان شأني شأن بعض القناصل الذين لم يتعدوا نطاق الاوامر التي كانوا يتلقونها . فبمشاركتي رجال الاكليروس اراءهم وتنفيذ رغبتهم حملتهم على ان يشعروا ويلمسوا حسنات رعاية فرنسا . ولقد منحت جميع مكاريّ الاديرة « تذاكر » تمكنوا بواسطتها من النزول الى المدن وشراء حاجاتهم دون ان يخشوا السخرة التي كانت تتناول المكارين ودوابهم .

وهنالك عدة مؤسسات دينية اذنتُ لها ، بعد ان فككت بمحصولاتها الحيوانات البرية المتلفة ، بحمل الاسلحة النارية ، حتى اني سعيتُ في السنين القاحلة في اعفاء جميع الديورة من دفع ضرائب الحبوب التي توازي على وجه تقريبي سدس قيمتها الحقيقيـــة . واخيراً فان دار القنصلية الفرنسية كانت ملجأ لهذه الديورة ، فكم من مرة أمدَّتها بمساعدات استغنت بها ، في بحر سنة مجدبة ، عن شراء منتوجات هذه البلاد وقد اغلت ثمنها الفائدة الباهظة التي كان يتقاضاها من يسلّفون عليها .

يريد الخاصة من ناس هذه البلاد ان ينعموا هم ايضاً كاكليروسها بالحماية الفرنسية ، ولا غاية لهم من هذه الحماية الا التخلص من دفع ميرة املاكهم ، وعدم محاكمتهم امام محاكم بلادهم في دعاويهم العديدة ، وما اكثرها عند الطبقات المرموقة المطبوعة على التنازع والخصام .

واخيراً ، وجدت بعد اقامتي مدة طويلة في تركيا ان براءات الحماية ما هي الا امتيازات تنجّي صاحبها من العقاب . والاشخاص الذين يحصلون عليها بطريقة مغايرة للقانون يكونون بالطبع ممن لا يردعهم رادع ، بعد ان يروا انفسهم محميين . انهم يقومون باعمال خطرة مغايرة للقانون ، ويفترون على البشر ، ويرتكبون جميع ضروب المظالم ، فيتعبون السلطة ، بصورة متواصلة ، بدسائسهم التي يدبرونها لها .

كان على الموارنة ، من وقت الى آخر ، ان يؤدّوا فروض الطاعة والخضوع للسدة الرسولية المقدسة ، فكل بطريرك يجب عليه

خلال عشر سنوات تلي انتخابه ان يزور رومية[1]. الا ان الحوادث التي كانت تطرأ لم تكن تسمح دائماً ان يؤدي البطريرك بنفسه هذا الواجب، فكان يوفد نائباً عنه.

ولما ارتقى البابا لاون العاشر الى السدة الرسولية ذهب احد هؤلاء البطاركة وفقاً للقانون، لكي يجدد خضوعه للكنيسة البطرسية واعترافه بعقائدها. وعام ١٥٩٦ اوفد اليهم البابا اكليمنضوس الثامن، الاب جيرولامو دنديني المنخرط في سلك الجمعية اليسوعية لينظر في فض بعض الشؤون المختلف عليها، والقائم الجدل حولها. ولما كان النظام الكنسي لم يكن قد استقر بعد بصورة نهائية فقد طلب البطريرك يوسف من الكرسي الرسولي ان يصلحه بما له من سلطان، فيقطع دابر الخلاف. رفع هذا الطلب الى البابا اكليمنضوس الثاني عشر والتمس منه ان يوفد لهذه الغاية زائراً رسولياً الى جبل لبنان.

وبالاستناد الى هذا الطلب قرر المجمع المقدس بتاريخ ٢٤ تموز سنة ١٧٣٥ وجوب ايفاد قاصد رسولي من قبله ليشترك مع البطاركة ورؤساء الاساقفة والاساقفة الموارنة، فيعقد مجمعاً ملياً تبحث فيه النقاط المستوجبة البحث، ويلغي كل ما طرأ على الطقسيات المارونية اذا كان يضاد العقيدة الرومانية. اما القضايا العويصة الحل فيحفظ حق الفصل فيها للمجمع المقدس.

وبناء على ذلك اوفد البابا المونسنيور السمعاني حافظ مكتبة

[1] ان رئيس جميع الاساقفة الموارنة الذين انضموا حديثاً الى الكنيسة الرومانية كان في مجمع لاتران العام الذي عقد سنة ١٢١٥. – قاموس تاريخي، طبعة ١٨٠٤، ج ٣، ص ٢٢٧.

الفاتيكان ، وهو ماروني لبناني ، بعد ان منحه صلاحية مطلقة في بحث هذه الشؤون وحلها ، فاستقبل بسرور عظيم .

التأم المجمع في دير القديسة مريم في اللويزة من كسروان بتاريخ ٢٨ ايلول سنة ١٧٣٦ ، وأنهى اعماله بتاريخ ٣ تشرين اول ، وطبعت مقررات المجمع اللبناني في دير الروم الكاثوليك ، دير مار يوحنا بالشوير ، حيث يوجد مطبعة عربية ، على نفقة قنصل فرنسا في بيروت ، وهو من آل الخازن .

وخلال تلك الفترة توفي البابا فلم يعمّم ولم ينفذ ما قرّره المجمع في جبل لبنان الا عام ١٧٤١ على عهد خلفه بندكتوس الرابع عشر .

لقد نشرت قوانين المجمع وعدة قوانين اخرى ، ولا تزال الكنيسة المارونية تتقيد بها حتى يومنا هذا .

ومنح المجمع البطريرك حق تعيين المطارنة في الابرشيات التي تفتقر اليهم . واذا ما سيم مطران ما بصورة صحيحة فلا يعود بالامكان حرمانه الامتيازات التي يتمتع بها الا في حالة اقترافه ذنباً كبيراً نص عليه القانون الكنسي .

ومنح البطريرك ايضاً حق استيفاء العشر ، وقبول الهبات ، والقيام بزيارة الابرشيات الخاضعة له ، كل ثلاث سنوات ، وتكريس الزيت المقدس وتوزيعه على الابرشيات السبع ، كما انه ترك له صلاحياته القديمة التي اقرها العرف والتقليد .

ومنع تلك العادة المريبة وهي سكنى الرهبان والراهبات في محل واحد ، او اتصال بنايات الاديرة التي تضم هذين الجنسين ، وحظر كل علاقة او مواصلة بينهما .

وأوعز الى كل مطران ، بوضوح كلي ، ان يقيم في دوائر ابرشيته والا يغادرها الا باذن من البطريرك وفي حالة الضرورة القصوى .

ان وفاة البطريرك يوسف الخازن في ١٣ اذار ١٧٤٣ فسح في مجال الشقاق ، فانتخب بطريركان مارونيان لكرسي انطاكية . الا ان الاب الاقدس استطاع لحسن الحظ ، ببراعته وحكمته ومقدرة موفده الاب جياكومو دي لوقا ، رئيس القدس القديم ، ان يضع حداً لهذه البلبلة ، فالغى انتخاب المتزاحمين غير القانوني ، واحل رئيس الاساقفة ، سمعان الدمشقي ، محلهما . ان هذا الانقلاب انتهى بسلامة ، ولكن بعد جهد ، بمعاضدة الامير الدرزي وقنصل فرنسا في صيدا على اثر اجتماع عام عقد في حريصا بتاريخ ٧ تشرين الاول سنة ١٧٤٣ وحضره جميع رجال الاكليروس الماروني .

الفصل الثلاثون

تاريخ الروم الكاثوليك والدروز .

اتى الروم الكاثوليك لبنان وسكنوه ليتقوا شر اضطهاد الروم المنشقين عن الكنيسة الذين اذاقوهم مرارة التعديات والهوان في جميع انحاء الشرق بعد ان استنصروا الاتراك عليهم . ولكي ندرك ما قاساه هؤلاء التعساء من قبل الروم يجب ان نكون قد قضينا فترة من الزمن في كيو وحلب ومدن توكيا التي اقمتُ فيها . ولا ابالغ اذا قلت ، لادل بقليل من الكلمات على مبلغ الفظاعة التي شاهدتها : ان شعر رأسي كان يقف من شدة الهول .

فالكاثوليك الذين طردوا على التوالي من مدن سوريا التجأوا الى لبنان ، الحصن المنيع . وبفضل حكومة بيروت المسيحية تمكنوا من الاستقرار فيه لينتشروا بعد ذاك في اساكل صيدا وصور وعكا ويافا .

ويظهر انه أعترف بالروم الكاثوليك في الشرق على عهد البابا اكليمنضوس الحادي عشر ، فبطاركة الاسكندرية وحلب ودمشق انشقوا عن الكنيسة الشرقية في وقت واحد تقريباً فانضموا جميعاً الى الكنيسة الرومانية . ثم ما لبث ان اقتفى اثرهم مطران

بيروت[1] .

نظم الكاثوليك ، في مجمع عقد في دير القرقفة قرب بيروت ، عام ١٨٠٦ ، شرائع شعبهم الدينية ونظمه . الا ان براءة بابوية مؤرخة في ١٦ ايلول ١٨٣٥ منعت بصورة جازمة تطبيقها . وبدون ان يؤبه للمتاعب التي يلاقيها السيد مكسيموس مظلوم ، بطريرك الروم الكاثوليك في القسطنطينية ، فقد دعي الى عقد مجمع لتصحيح الاخطاء التي وردت في مقررات المجمع الاول .

ان الروم الكاثوليك يملكون في لبنـــان عدة اديرة للرجال والنساء ، ومجموع عددهم يبلغ ١٨٠٠٠ نسمة . وهم يقيمون بوجه خاص في زحله ، ودير القمر ، والحدث ، وزوق مكايل .

اما الروم الارثوذكس فهم اقل عدداً منهم في هذه البقعة من الجبل ، ويقطنون بكثرة في الشويفات وحدث بيروت وبسكنتا .

وينعم الارثوذكس بحماية روسيا ، وقناصل هذه الدولة يفهمونهم دائماً ان مندوبي ملك فرنسا يدافعون في الاساكل عن مصالح الكاثوليك . ويظهر ان روم دمشق التمسوا قديماً حماية احد قياصرة روسيا ، ولهذا جرت عادتهم على ايفـاد بعثة كل عام الى بطرسبرج مؤلفة من كاهن وعلمانيين ليعربوا لجلالة القيصر عن طـاعة واحترام روم سوريا مقابل قبضهم مبلغ مائة روبل يوهبونها . ولقد صُرفت بادىء ذي بدء هذه القيمة بسبب هذه الحوادث السيـــاسية ، وظل بطريرك دمشق مدة ثلاثة وعشرين عاماً لا يطالب بدفعها ، الا انه لدى مرور السيد لوف كلفه البطريرك التماس مواصلة دفعهـا ، فامر

[1] مذكرات الارساليات الحديثة ، باريس ١٧٢٤ .

الامبراطور عام ١٨٣٧ بدفعهـــا كاملة لاول بعثة تصل . ان بلاط روسيا تعود ايضاً .ان يدفع جميع النفقات الاخرى التي تصرف لهذه الغاية .

تكلمت عن المتاولة في حديثي عن بعلبك ، وسوف لا اذكر عنهم ههنا الا الشيء القليل .

فبعد ان طُرِدَ مشايعو الامـــام علي من وطنهم في احدى مقاطعات بلاد فارس ، لجأوا الى سوريا . فانتشروا في ضواحي حماة وحمص وبعلبك وصيدا وعكا . ثم انتهزوا فرصة انهزام الموارنة فتسلـّلوا الى لبنان واحتلوا القسم الممتد بين بيروت وطرابلس من الجبل حتى الساحل .

وحدث ان ثار على عهد الامير يوسف مشايخ جبة بشري الموارنة ، ومشايخ بلاد جبيل وطردوا المتـاولة ، فتراجع بعضهم الى ضواحي بعلبك . اما البعض الاخر فاحتفظوا ببعض القرى في مقاطعتي جبيل وبشري ، وكانوا فيها ذوي قوة وبأس . بيد ان الجزّار اتى عليهم نهائياً اثر قتله زعيمهم . ان هذا الباشا جعل منهم فلاحين مقابل اجر معين يتقاضونه . ومذ ذاك اصبحوا يعيشون بؤساء . ثم ارهقهم تعنت الحكام المسيحيين والاتراك الذين ناهضوهم فازدادوا فظاظة وخشونة .

واذا ما استثنينا الموارنة فالدروز هم الشعب الاكثر عدداً في لبنان . انهم يحتلون سبع مقاطعات توازي مساحتها ٢٨ ميريامـتراً مربعاً : الشوف ، العرقوب ، الغرب ، المناصف حيث دير القمر ، الشحّار ، المتن ، الجرد واهم قراه الشويفات . ويبلغ مجموع عدد سكان هذه المقاطعات ٢٢،٩٧٠ درزياً و ٣٣،٢٢٠ شخصاً من الطوائف الاخرى .

عرفت اوروبا الدروز معرفة تامة بعد ان حاول كثيرون ان يستخرجوا ، من فوضى الاراء ، تاريخ هذا الشعب ، وبنوع خاص ، ديانته التي لا نعرف عنها الا معلومات غامضة . بيد اني لما كنت لم اقتنع بما اطلعت عليه ، فارى انه يمكنني هنا المغامرة ببحث وجيز جمعته من الاقوال التي استقيتها من ابناء البلاد [1] والاوروبيين الذين مكثوا طويلاً بين الدروز ، ومن المعلومات التي توصلت شخصياً الى معرفتها .

حاولوا ان يردوا كلمة الدرزي الى عدة مصادر ، واظن ان جميع تلك المحاولات لم توفق اذ ان اللفظة التي يسلم بها الجميع تقريباً تختلف عنها بموسيقاها تمام الاختلاف . ان فعل درس يدرس يمكن ان يشتق منه دراسي ، وليس درزي ودروز ، مفرد وجمع هذه الكلمة .

فاسم الدروز لم يطلق على هذه الطائفة الا بعد تمركزها في لبنان . فاول مكان نزلوا فيه لدى وصولهم الى سوريا هو وادي التيم حيث اخذوا اسم تاجانه Téjané .

ان الحماية التي لاقوها في الشوف من شيخ هذه المقاطعة المدعو الدرزي الذي اعتنق اخيراً مذهبهم ، حملتهم على ان ينتسبوا اليه اعترافاً بجميله .

نعلم انهم تلقوا مبادىء ديانتهم من الحاكم [2] ، الخليفة الفاطمي

١ بحث ثلاثة كتاب قدماء المذهب الدرزي : مروج الذهب ، تاريخ ابن سباط ، والطبري .

٢ كان يدعي محمد بن اسماعيل من سلالة ابي طالب . وتنحدر امه من فاطمة الملقبة بالزهراء .

الخامس ، الذي ولد في القاهرة عام ٣٧٥ ه. وظل على كرسي الخلافة مدة خمس وعشرين سنة ، وعاش دون السبعة والثلاثين عاماً .

ان تابعيها الأول اقاموا ، كما سبق القول ، في وادي التيم والجبل الاعلى . وهنالك سنوا شرائعهم ورتبوا نظمهم بصورة نهائية ، ونشروا الكتب التي الّفها حمزة بن علي ، وهي التي تقرأ كل عشية خميس في خلواتهم .

ينقسم الدروز طبقتين : العقال والجهال .

العقّال يتميزون بمسلك هو على جانب من الرصانة . انهم يتأملون ويحافظون على سمت خارجي في غاية الحشمة ، فملابسهم بسيطة جداً ، واحاديثهم تنم عن تواضع ورزانة يوليانهم شرفاً كبيراً .

انهم يعرفون بعمامة بيضاء ، تعقف قبل ان تلف حول الطربوش[١] ، وعباءة من الصوف ذات خطوط عريضة سوداء وبيضاء . ان اجفانهم تكتحل بمسحوق ناعم (الكحل) يكاد لا يمسك لدقته .

يرتقي العقال من مرتبة الى اخرى ، ويبلغ الاولى منها من يثبت انه تقيد بالتعاليم تقيداً دقيقاً .

وهنالك من العقال من يصومون ويحرمون انفسهم تناول المأكولات الشهية ، وهؤلاء هم الذين يسكنون الخلوات وقد تشبعوا من فهم تعاليم كتبهم . ونجد ايضاً عقّالاً يصومون طيلة حياتهم او يقضون على انفسهم ان لا يتناولوا غير خبز الشعير .

يدل العقال على تحفظ متناه في تصرفاتهم مع الناس . فهم

١ كان يعتاض قديماً عن طربوش اليوم بقطعة من جوخ او اي قماش آخر احمر اللون . وهنالك بعض العقال لا يضعون على رؤوسهم الا طرابيش صغيرة ليحافظوا على بساطة اسلافهم .

يأبون ان يأكلوا في كل مكان ، اذا ما اتوا المدينة ، خشية ان يكون الطعام قد أشتري بمال حرام . ولهذا السبب يتحاشون ان تربطهم بالسلطات او رجالها علاقات ما . ان جميع الموظفين هم في نظرهم ظالمون ، برابرة ، لا يستحقون ابداً ما يملكونه او يتقاضونه.

ان نسوة العقال تسمى العاقلات ويقمن ايضاً بواجباتهن الدينية . والعاقل لا يمكنه ان يتزوج ثانية دون ان يصبح جاهلاً .

يفقد العقال صفتهم اذا ما ارتدوا ثياباً انيقة او حملوا سلاحاً في غير حالات الحرب . اما في السفر فيمكن العاقل ان يغير بذلته وهو لا يزال يحتفظ بهذه الرتبة .

للعقال اربعة زعماء او مشايخ ، وهذا العدد غير محصور . انهم يتميزون بعباءة بيضاء وبنظافة كبيرة . ولمشايخ العقل هؤلاء صلاحية الفصل في القضايا الدينية ، وحرمان المخطىء ممارسة الدين . وهم يتلقون تصريح الجهال الذين يريدون ان يصبحوا عقالاً ويعلمونهم اصول الديانة .

ان سلطة كل من هؤلاء متعادلة في كل شيء ، وعندما يتوفى احدهم يحل محله تلميذه الاقرب اليه . كانوا يعترفون قديماً بزعيم واحد . الا ان نوعاً من الشقاق والحسد منذ حوالى ثلاثين سنة قضى على هذه المرتبة الشريفة .

وقد بلغ شيخ العقل درجة عالية من النفوذ حتى ان الامير الكبير كان مجبراً ، اذا ما التقـاه ، ان يقبل يـده . وعلى الرغم من ذلك فتولية هذا المنصب كانت منوطة بقاضي دير القمر ، السلطة الدرزية الثانية في الجبل . انه زعيم الدنيـا ، بينما شيخ العقل زعيم الدين . يتبع هذا الشيخ ، اذا ما انتقـل من مكان الى اخر ، حشد

غفير، فتزحف اليه الجماهير لتمثل بين يديه بغبطة متناهية . وهم يتفاءلون اذا ما استطاعوا لمس طرف ردائه .

وشيخ العقل عند الدروز هو زعيم الدين واول العقـال ، وهو يعيش من صدقات المحسنين . يحيا هذا الشيـخ حياة حكيمة ، متقشفة ، منزوية ، تشبه حقاً حياة احد حكماء الازمنة القديمة . فالاعمال التي يقوم بها اعمال روحية فحسب ، رغم ان الامير الكبير او زعيم الشعب الدرزي الاول ، وكان دائماً من عائلة جنبلاط ، كان يشركه في الاعمال الادارية ويفيد من نفوذه القوي لدى الشعب الذي يقدره حق قدره ، لانه يهيء نفسه لقبول هذه المرتبة الشريفة بقضائه خمس او ست سنوات بالتقشف والحرمان واماتة النفس . ولما كان يكثر عدد المرشحين كانت القرعة تقع دائماً على افضلهم مسلكاً .

يعيش مشايخ العقل من الاموال التي يوهبونها ، فهم يرثون من يموتون بدون عقب ، وجميع الدروز مضطرون الى ان يهبوا لهؤلاء الزعماء شيئاً لينالوا بركتهم .

يثق الدروز بكلام هؤلاء المشايخ والعقال ، ويتقيدون بنصائحهم ، ويكونون جد سعداء اذا ما حصلوا عليها عندما يحتاجون الى توجيه .

ويمكن النسـاء العـاقلات ان يشتركن في المجـالس التي تعقد عشية كل خميس . انهن يجلسن في ناحية من الخلوة ويفصل بينهن وبين الرجال ستار . وعندما يدخلن للمرة الاولى يؤدين يميناً يلقن نصها . وقبل ان يدخلن المجلس ، ينزعن جميع انواع المجوهرات ، حتى ان جميع النساء العاقلات وكثيراً غيرهن لا يتحلين عـادة بحلى ذهبية وفضية .

وحول الخلوة يقوم حراس يمنعون من هم على غير دينهم من ان يخترقوا حجب اسرار المجلس .

تبدأ الصلاة بقراءات تعقبها وجبة من الاكل خفيفة قوامها العسل والزبيب والجوز ، فيأتي كل منهم بشيء لهذه الغاية . والعقال الذين هم من طبقة رابعة ينسحبون بعد القراءة الاولى . ثم يعقب تلك قراءة ثانية تليها المواعظ ، فينسحب على اثرها مشايخ الطبقة الثالثة . وهكذا يفعل مع الثانية الى ان تبقى الطبقة الاولى وحدها ، وهذه تتألف من كبار الاجاويد .

ويزعمون ان قَسَم العقال يتجدد لدى حضورهم كل مجلس يراوح وقته حوالى الساعتين .

تحفظ الكتب في الخلوات ويعتنى بوضعها في اماكن خفية . والدروز يزعمون انهم يملكون عدة كتب . الا ان جميع ما يدور حول هذه العقيدة والتعاليم الدينية مجموع في سبعة اجزاء .

اما اشهر اولياء الدروز فهو الامير السيد عبدالله التنوخي الذي حرم على العقال شرب الخمرة والتدخين .

ولقد تساءلتُ كيف عرفوا التبغ في سوريا يومذاك اذ انه لم يعرف في اوروبا الا منذ حوالى ٢٨٠ عاماً ، فقيل ان العرب كانوا يدخنون منذ زمن قديم نوعاً من الاعشاب يدعى التبغ .

ان الجهال ، وهم اكثر عدداً من الاخرين ، لا يخضعون لقانون ما ، فهم لا يشتركون في الحفلات الدينية ويعيشون في لامبالاة كاملة .

يمكن الجاهل ، اذا ما اصلح سيرته ، ان يصبح عاقلاً ، فيتطلبون منه اداء قسم ، وعندئذ يبدأ اشراكه بالديانة ، فيؤذن له بقراءة الكتب الدينية .

ان الطلاق جائز عند الدروز . الا انهم لا يجمعون بين امرأتين . واذا طلقت المرأة يدفع لها الرجل صداقها طبقاً لما هو في عقد النكاح .

اما الطقوس الخارجية التي يمارسها الدروز فتشبه تقريباً طقوس المسلمين . فهم يدفنون موتاهم على طريقتهم ، الا انهم لا يغسلونهم . وغداة الدفن تذهب النساء ليبكين على الضريح الجديد ضاربات صدورهن بمناديلهن علامة الحزن والاسى .

ان الدروز ، حسبما قيل ، لا ينقطعون كالنصارى عن اكل اللحم ، وما من لحوم محرم عليهم اكلها . الا انه تأكد انهم لا يأكلون الطريدة المصادة .

والدروز غير مبالين الى تعاطي الفنون . فهم شعب زراعي يربي دود الحرير ، وقلما نرى بينهم بنائين او نجارين .

ان العائلات الدرزية الاكثر شهرة هي التالية :

آل جنبلاط وهم حلبيو الاصل يقطنون بعدران والمختارة .

آل عماد (زعماء اليزبكيين) في الباروك .

آل نكد في دير القمر .

خلفاء الامير مراد في المتن وفالوغا ، وخلفاء الامراء قايد بيه في صليما .

امراء آل ارسلان في الشويفات وعين عنوب .

آل هرموش في السمقانية .

بيت عيد في عين زحلتا .

بيت ابو علوان في الباروك .

بيت حمدان في عين قنا .

التلاحقة في عبنات وعاليه .

بيت عبد الملك في بتاتر .

ان آل جنبلاط وعماد ونكد هم اقوى شوكة . ويتولون تدبير شؤون الاخرين . وقديماً تنازع زعامة الجبل حزبان متخاصمان : الحزب الجنبلاطي والحزب اليزبكي اللذان قاما مقام القيسي واليمني .

كان الجنبلاطيون دائماً الاشد نفوذاً وسلطاناً . وهذا ما جعل زعيمهم يأمل بتولي حكم الجبل . الا ان امله خاب ، فقضى عام ١٨٢٥ ضحية طموحه .

كان يقف من الامير الكبير وقفة المنافس لا وقفة احد رعاياه . وكان الامير الكبير يستشيره قبل اتيان كل عمل . ثم ان ثروته الضخمة وتوليه قيادة الجيوش ، بصفته زعيم الامة الدرزية ، كانا يكسبانه سلطة هي الثانية في الجبل . فالدروز يمكنهم ان يجهزوا من اثني عشر الى ثلاثة عشر الف مقاتل .

لا نعلم شيئاً عن اصل عائلات جنبلاط وعماد ونكد . الا اننا نعلم انهم لا يتميزون باي شهرة او مجد . فجنبلاط كان في خدمة قبلان القاضي في الشوف . وعندما مات سيده تولى على املاكه في هذه المقاطعة . اما آل عماد ونكد فلم يعرفوا الا على عهد الامير حيدر الشهابي الذي حكم هذه البلاد بعد انقراض عائلة معن ، فتسلم زمام الحكم لانه متحدر من تلك السلالة الملكية المنقرضة .

ان اول من قام بخدمة الامير حيدر من هؤلاء الزعماء قد كرم الى درجة بعيدة ، فاعطي لقب شيخ . وكان الامير اذا ما كتب اليه يخاطبه بالاخ العزيز .

الفصل الواحد والثلاثون

اخلاق سكان لبنان وعاداتهم .

ان المسيحيين ، رغم بساطتهم وجهالتهم وفقرهم ، هم خير الشعوب التي تسكن لبنان واودعها ، واكثرها اهلية لاقتباس العلم والثقافة ، واشدها خضوعاً للكنيسة الرومانية ، وتعلقاً بفرنسا . انهم يفاخرون بعناية ملوكنا بهم واهتمامهم ، ولا يزالون يطالبون بالحماية القديمة التي سبق ان منحوهم اياها .

ان الموارنة حسنو الخلق . وهم لم يحرموا بعض التفكير . وتصرفاتهم على جانب كبير من اللين . بيد ان الرياء والمداجاة ، وبوجه خاص ، روح الانتقام ترافق عادة هذا المظهر الجذاب .

ان نيبور ، السائح المدقق ، ادرك مثلي ما اتيت على ذكره هنا . ولقد اتيحت لي الفرصة فتأكدت ان بساطة العادات لم تكن تحول دائماً دون فساد الاخلاق . وقد يكون تسرب الى النساء المارونيات ما تسرب الى غيرهن من الفساد . والاهالي المتصفون بالمداجاة واللياقة لا يحجمون متى سنحت لهم الفرصة عن ان يثأروا لانفسهم ممن اساء اليهم ، ولو بعض الاساءة ، او عاقبهم وان كانوا يستحقون ذلك العقاب .

ان الموارنة ، مثل سكان سوريا الآخرين ، قصيرو الاعمار ، ولا

يعرفون الا التباهي المفرط بالملبوسات والاسلحة والخيول. بيد ان ذوقهم هذا محدود جداً لا تفنن فيه، وجميع ثرواتهم تنحصر فيما يرتدونه. ترى نساءهم يتحلين بخواتم ضخمة، واساور فضية حول الزندين، وخلاخل في الساقين، ويتقلدن عقوداً ثمينة، ويضعن في آذانهن اقراطاً من الذهب، ويعتصبن بعصابات تشكّ فيها الدنانير الذهبية، ويعلقن في ذوائبهن عدداً غير قليل من هذه الدنانير. ان غنى الازواج في هذه البلاد يعرف من المجوهرات التي يتحلى بها نساؤهم في النهار وفي الليل اذ انهن ينمن متحليات بها.

واذا كانت الحياة القاسية البائسة دليلاً على قناعة ودماثة اخلاق البشر، فهذا البلد لا يفضله بلد في الاقليم الشامي. فخاصة الضيافة التي اشتهر بها لبنان هي احد الدواعي التي تزيد تعلق الاجانب بهذه البقعة، مع ان تكاليف الحياة فيها اغلى كثيراً مما هي عليه في المناطق الاخرى، حيث تتيسر لنا حاجيات اكثر ملائمة لاذواقنا، واخف وطأة على جيوبنا.

وبعد، فما عساه ان يقدم لضيفه الرجل المرموق بل اكثر الناس ثراء في الجبل؟ في العشاء ارز مفلفل ولبن وبيض، وعند النوم فراش رقيق مبسوط على حصير مع تمني الراحة للضيف العزيز...

ان الصعوبات الناشئة عن أشباه هذه الفنادق تزداد وتنقص تبعاً لحالة اصحابها. فاذا كان صاحب المنزل فلاحاً بسيطاً، واغلب الاحيان ينزل السائحون عند هذا الفلاح، فغرفة نومه هي بالوقت نفسه زريبة مواشيه، وهكذا تؤنس مساكنة البقر، والحمير، والدجاج، والاولاد الصغار، السائح المسكين الى حد بعيد..

اما بيوت الاغنياء فتتألف مـــن ثلاث حجر او اربع غير مرتفعة الابواب لا يستطيع رجل معتدل القامة ان يعبر منها دون ان يحني رأسه . اما مفروشات البيت فتتألف مـن حصير وفراش ووسادة او وسادتين ، وصندوقين او ثلاثـــة دهنت بالاخضر او الاحمر ، ومرآة يبلغ حجمهـــا عشرين سنتيمتراً . وهنالك بعض الاواني الغليظة مـــن الفخار او النحاس تستخدم في قضاء بعض حاجات المنزل ، ثم تصف عـــلى رفوف في انتظار ساعة العمل ، فتكون في هذه الفترة من ادوات الزينة والتجميل . ان النوافذ الصغيرة الضيقة لا اطار لهـــا ولا زجاج ، وهي تغلق في الشتاء بمصاريع خارجية ، ولا توفر الراحة التي تعوّد عليها عندنا ابنـــاء الطبقة العادية .

لا يجلس العرب ابداً في شبابيك منازلهم . فهذه الكوى لم تجعل عندهم الا لينفذ منها ضوء النهار . اما اذا ارادوا ان يتنشقوا الهواء النقي فانهم يذهبون الى الحقول او يتفيأون ظلال اقرب شجرة اليهم . ليس التنزه مـن طبعهم . وهم يعدوننا مجانين لاجل هذه النزهات التي نقوم بها رواحاً ومجيئاً . فهم قلما يفهمون هذه الناحية فينا[1] . واذا قيل لهم ان مثل هذه الحركات البدنية صحية يجيبون : ماذا تقولون ؟ أولا تتمتعون بصحة جيدة الا اذا تأرجحتم كالمبخرة كل يوم ؟

وعندما ندخل على امير او شيخ او رجل وجيه يجب علينا

١ راجـــع في الفصل السابع رأي السيد ساي في هذا الموضوع . ان احد اغاوات اسيا الصغرى قال عندما رأى السيد بوجولا يتمشى في غرفته : لماذا يمشي ما زال لا يريد ان يذهب الى مكان ما ؟ — رسائل شرقية ، ج ٣ .

ان نتقيد ببعض عادات فرضتها التقاليد . يأتي الخدم فيخلعون حذاء الغريب الداخل وينزعون سلاحه . ثم بعد ان يجلسوه على ديوان يأتون بطست ماء ليغسلوا يديه ووجهه اذا شاء . وبعد الغسل ينشفون يديه ووجهه بمنديل موشّى بالحرير والقصب . ثم يبخرونه بالند الذي يحرقونه في حُقّ . وبعد ان ينزع المنديل يخففون من حدة دخان العنبر والند برش قطرات خفيفة من ماء الورد ينضحون بها الضيف الكريم بواسطة منفخ . وبعد الفراغ من هذه العملية يقدمون له الغليون ، فالشراب ، واخيراً القهوة التي لا بد منها .

القهوة عندهم أمُ جميع التشريفات ، وهي علامة احترام الناس ... ولكني اراني هنا معيداً ما سبق لي ان قلته في فصل مضى .

وعندما تحل ساعة الفطور او الغداء يفرش على الارض شبه شرشف فوق الحصير او السجادة التي تؤلف جزءاً من الديوان ، ثم يؤتى بالطاولة وهي عبارة عن اسكملة مدورة توضع فوق الشرشف . ثم يجيئون بكمية ضخمة من ارغفة الخبز يوازي حجم كل رغيف منها حجم صحن صغير ، وهي رقيقة جداً ، وهذا ما حدا احد اصدقائي الذي لم ترقه عادات الشرق الى ان يطلق عليها اسم القشرة . ان الوان الطعام تقدم في صحف من النحاس دفعة واحدة ، الا اللحم المشوي اذا قدم منه ، والسلطة اذا كان سيد الدار عارفاً بذوق الاوروبيين .

ان بلوغنا غرفة الطعام لا يقتضينا عناء الانتقال من مكان الى آخر ، فما علينا الا ان نحني جسمنا ونلتوي يميناً وشمالاً حتى نبلغها .

يدعوك صاحب الدار الى الابتداء بالاكل ، ثم يعلمك بالمثل

كيف تأكل . فلا خادم ينقل اليك الصحفة . فعلى المدعو ان يدس ملعقته في صحن الارز المفلفل ، ثم يغترف شيئاً من طعام سائل يرطبه به ، اذ لا يمكن ان يدخل البطن بدون المركبة التي تجرّه . وهكذا تظل الملاعق متنقلة من صحن الى صحن حتى تنتهي هذه النزهة بشبعك . ان هذه الطريقة تمكننا من اكل ما نستسيغه اكثر من غيره دون ان نضايق في شيء .

الشوكات والسكاكين لا يزال استعمالها مجهولاً عندهم . اما ما يحتاج الى تقطيع من الوان الطعام كالطيور واللحم فيفسخ بالاصابع . وهذا عمل يقوم به صاحب البيت عن ضيفه .

والعرف العربي يقضي ان لا يوضع الشراب الذي يترطب به المؤاكلون على المائدة ، فالخدم يحملون الاباريق والكاسات ليصبوا الماء لمن يطلبه . واذا كان الضيف ممن تعودوا شرب الخمرة فانه لا يحرم منها اذا كانت موجودة في بيت نزل عليه ضيفاً . اما ابناء البلاد فهم لا يشربونها عادة الا في المرافع ، وفي بعض الاعياد . وفي مثل هذه المناسبات يقومون بما يجب لها على حقه . انهم لا يمزجونها بالماء ، ويرون انها تفسد اذا خفف من حدتها .

وبعد ان تقدم الفواكه والحلويات على اثر تناول الطعام تُنقل بسرعة كلية الى مرحلة ثانية . انها فترة تتنعم فيها حاسة السمع . يسخرون اشهر المغنين في الجيرة ليشنفوا بالحانهم آذان المؤاكلين . وكل ذلك احتفاء بالضيف الغريب ، اذ يتوجب ان يقام بواجبه خير قيام . واذا اهمل شيء من التقاليد يلام المضيف . اما خير مغنّ عندهم فهو عادةً شمّاس الكنيسة . وهو يقوم احسن قيام بدوره هذا ، لان هذا العرف قد ابتدعه الكهنة عملاً بقول مار بولس

الذي فهموه حرفياً تقريباً :

« مكلمين بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح واغاني روحية ، مترنمين ومرتلين في قلوبكم للرب ، شاكرين كل حين على كل شيء في اسم ربنا يسوع المسيح لله والاب[1] . »

ان اجمل الاناشيد التي تغنّى في مثل هذه المناسبة مأخوذة عن المسلمين وشعرهم النبويّ ، ذلك لان المقام يستدعي الرصانة والوقار ، فلا يمكن ان ينتقى احسن من تلك لمثل هذا المقام . فالاسلوب الصوفي الذي يسود هذه المقاطع ، المنتقاة التعابير ، يخلب لبّ الرجل العادي . انه يجد فيها موضوعاً جليلاً لانها تتعدّى قوة ادراكه ، وهذا ما يجعله يسر لدى سماعه هذا اللحن الأخنّ الناعم الذي يجلب الى جفنيه نعاس القيلولة .

ونسيت ان اقول انه يتوجب عند العرب دعوة الضيوف والالحاح عليهم ليأكلوا . واذا ما لوحظ تمنعهم بعد استحلافهم باقدس شيء في العالم ، يمسك سيد الدار لقمة بيده يجمع فيها بين الوان الطعام المختلفة ويقدمها لمن يريد ان يخصه بها ، فيتلقاها هذا الاخير بفمه . ما اسعد الضيف اذا كرر هذا الضرب من اللياقة عدة مرات ! ان العرب يتطلبون من الضيوف ان يكثروا من الاكل عندهم . ولهذا يعبرون عن الاكلة الطيبة بقولهم : انها كادت تخرج من انوفهم ، لكثرة ما استطيبوها وأكلوا منها .

اما كيفية ترك الخوان فعلامتها هزة الى الوراء وهي الحركة نفسها التي تفعل ، ولكن الى الامام ، عندما يجلسون اليه . فحينذاك

[1] الرسالة الاولى الى اهل افس .

يباشر الغسل ، فيأتي الخادم بالطست والصابون والابريق ليناول على اثرها المنشفة بكتفه ، لان يديه تكونان مشغولتين بصب الماء وغيره . ولهذا السبب توضع المنشفة على كتف الخادم ليقدمها في حينها بامالة الكتف صوب الضيف .

ان تدخين الغليون وشرب القهوة يعلنان نهاية الوليمة الممتعة . وصاحب الدار يحاول جهده تفكهة ضيفه ، فيروي له ما ادخرته ذاكرته من اقاصيص فضولية . فالعرب هم بوجه عام قصاصون ماهرون .

ان الذين يحافظون على الروح الجبلية الحق شديدو الانفعال بطبيعتهم ، ويكرهون التصرفات التي تدل على الفة مفرطة ورفع الكلفة .

ان الجبليين وعدداً كبيراً من سكان المدن يحبون الى حد بعيد الزعتر فيأكلونه عند الصباح وينشطون به معدتهم ويفتحون قابليتهم لتناول طعام النهار . انهم يجففون هذه النبتة المعطرة ويحفظونها بعد ان تدق فتصبح ناعمة . ثم يضيفون اليها السماق وبعض الملح لكي تكتسب الحموضة التي يستطيبها العرب ، وعلى الاخص نساؤهم . والزعتر اكبر هدية يقدمها السوريون للمصريين الشامي الاصل ، حتى اني رأيت منه ما يصدر الى لاجئينا في فرنسا نظراً لهذه العادة المستحكمة عند بعد الاشخاص . اننا نقول انها طبيعة ثانية ، اما العرب فيقولون انها طبيعة سادسة .

النساء في الجبل قويات البنية حتى انهن يلدن وهن يقمن باشغال المنزل كما لو لم يكن شيء . واللواتي يتممن منهن بالولادة ويخفن عواقبها ينمن مدة في فراشهن ويطلق عليهن اسم الستات .

وفي المدن والجبال ، عندما تعود النساء امرأة نفساء ، يجب عليهن ، اذا كن مرضعات ، ان يرضعن الطفل الصغير . وهذه العادة تضر اكثر ما يكون باولاد الرجالات العظام اذ انهم يرضعون ، على اثر ولادتهم التي تفرح بها الضيعة والجوار ، اشكالاً مختلفة من الحليب يعرفون مضارها ، ولكنهم لا يفكرون بالغائها .

وهنالك شيء آخر جدير بالملاحظة ، وهو ان الجبلي ذو رأس حاد (مروس) ، وسبب ذلك ضغط الجمجمة وشدّها لدى ولادته ليتمكن من لبس الطربوش بسهولة عندما يشب . ان هؤلاء الرجال المساكين يجهلون المضار التي يعرّضون لها اطفالهم طمعاً في اجتناء منفعة عقيمة [1] .

واذا حافظت بضعة اعضاء اخرى من الجسم على شكلها الاولي فانها لا تلبث ان تصبح بدورها مروّسة مثلها . فالاطفال يمددون في سرير يربطون فيه ويشدون كأنهم اجسام محنطة . ولكي يتمكنوا من قضاء حاجاتهم يضعون لهم اناء يثقبون السرير لادخاله فيه بالمحل المناسب .

تعلن الولادات ، في الجبل والمدينة ، بهتافات الفرح الصاخبة اذا كان المولود ذكراً . اما اذا كان المولود فتاة فبالسكون الكئيب .

ان حفلات العماد عندهم تشبه تماماً حفلاتنا . وجميع التشريفات والتبجيلات تخصص بالكهنة الذين يرافقون المعمّد حديثاً الى المنزل . يذهب الاولاد الى المدرسة بعد ان يبلغوا الرابعة او الخامسة

١ لقد صبرت على اشياء كثيرة . اما ضغط الجمجمة لتتمكن من لبس الطربوش فهذا تعليل سخيف لا يسكت عنه اوسع الناس صدراً . — المعرّب .

من العمر . والمدارس التي يتلقون فيها دروسهم يقوم بنفقاتها دخل عقار ما اشتراه الاهلون ، او وقفه احد الاتقياء ، لينعم به المعلم الذي لا يكون دائماً كاهن القرية . انهم يعلمون فيهـا اللغتين : العربية والسريانية ، ولا يكاد يحسن الصبيان القراءة حتى يحولهم ذووهم الى العمل ، فلا يلبثون ان ينسوا كل شيء . وهذه المدارس تكون خلال سبعة او ثمانية اشهر من السنة في الهواء الطلق ، اما بقية ايام السنة ففي غرفة صغيرة تابعة للكنيسة . وهم لا يلقنون صغارهم فيها الا مبادىء القراءة البسيطة ، اما القواعد فلا يتعلمون منها شيئاً .

يتقاضى كهنة القرى حوالى مئة وخمسين فرنكاً كل عام ، يضاف اليهـا دخلهم الخارجي وهو ضئيل جداً . ان الكهنة لا يمكنهم ان يتقاضوا اكثر من ٣٧ سنتيماً حسنة قداسهم ، كما انه لا يجوز لهم ان يقبضوا سلفاً اكثر من حسنة خمسة قداسات .

والكاهن في لبنان هو الرجل السامي الكمال ، فهو ، في القرية التي يقيم فيها ، قدرة الله الثانية . والفضل في هذا التأليه يعود كله الى الصبغة الضعيفة التي يتميز بها في ثقافته عن العوام من الناس . ان صرامة الاساقفة وبالتالي صرامة الكهنة بعيدة الى حد ان « الحرم » يلفظ عند اقل بادرة . لقد حرم كاهن ابنه لانه حاول انتزاع العصا من يده اذ كان يضربه بها حتى كاد ان يقضي عليه .

وعلى اثر تأسيس المدارس لتثقيف الكهنة لبى الدعوة عدد كبير مـن الطلاب ليكونوا كهنة غير متزوجين . الا انهم لم يستطيعوا خدمة النفوس الا برضى الرعايا ، لان هؤلاء يفضلون بل يطلبون ان يكون خوريهم متزوجاً .

ان غباوة فلاحي الجرود العالية لا حد لها ، ولا شبه . امـــا فلاحو القرى المجاورة للمدن فنجد بينهم اناساً لبقين ، دهاة ، رغم انهم لم ينالوا قسطاً من العلم .

ان اللبنانيين على جانب كبير من القناعة ، وامنيتهم الوحيدة تدخين الغليون . وهذه القناعة تغتفر لهم لانهم يحيون حياة قاسية .

قلما يطبخ الفلاح . وقوام فطوره الخبز والثمار المجففة ان لم تكن في اوانها . اما في المساء فيأكل البرغل والعدس المتبل بالزيت او السمن بعد ان يمزج باللبن ، مستعيناً عـلى اثارة قابليته بالتهام البصل . الزيتون نادر الوجود في بعض النواحي ، وهكذا يصبح شيئاً نفيساً اذا ما وضع على المائدة . اما الامكنة التي يكثر فيها فانه يكون قوام الفطور .

يأكل الفلاحون بعض اعشاب يقتلعونها من الحقول او البساتين ، ثم يقلونها بالزيت ويطبخونها بطرق مختلفة . واذا ما اراد الفلاح ان يأكل ويشبع فانه يرجع الى مؤونته ، وتكون من لحم الخروف ذي الالية الضخمة ، وتعلف واحداً منه كل عائلة وتذبحه في اوائل الشتاء . ان هذا اللحم يقلى بعد ان يقطع اجزاء صغيرة ويحفظ في دهنه ليؤكل في بحر السنة .

واتساءل هنا عما يمكننا استنتاجه بعد ان عرفنا هذه الالوان من الطعام لان روسو يقول : « يمكننا ان نحكم على اخلاق الشعوب اذا عرفنا انواع المأكولات التي تأكلها اكثر من غيرها » ؟

ان كـل الجبليين بالغ حده ، وهو لا يتفق ابداً وقوتهم التي تجعلهم اهلاً ان يقوموا بكثير من الاعمال . ولكن يكفي ان يكون اباؤهم لم يتعاطوا تلك الاعمال حتى يروا انفسهم غير ميالين

اليها فلا يهتمون بها . ومع ذلك فالجبليون فضوليون جشعون . وهذا الامر يصعب تعليله . انهم يفضلون التماس الصدقات على ان يشتغلوا ، ويعدون التسول ضرباً من الكيمياء .

تندر الامراض الخطرة في الجرود العاليـة . فهنالك يعيشون حتى التسعين عاماً . وكثيرون هم الذين لا يموتون في هـذا العمر لانهم لم يلاقوا اعتناء كافياً ، او لانهم حرموا المآكل الجيدة .

ان سكان الجبل فقراء جداً ، واكثرهم لا يملكون غير قميص يضطرون الى غسله نهار السبت . ففي هـــذا النهار نرى الفلاحين والفلاحات يرتدون ثياباً ممزقة ، وقد اظهروا عريهم للمارة . اما في اليوم التالي فيرتدون ثياب الاحد .

ترتدي النساء فساطين زرقاء . ويشددن خصرهن بزنار تزينه بضع قطع من الفضة . والطنطور ، الذي يلف حوله برقع لا يمكن الاستغناء عنه ، هو غطاء الرأس عندهن . اما الفلاحات الفتيات فيحل عندهن الساتان المقلّم محل النسيج ، ويرتدين جبة الجوخ (على الاخص) يحيط بها كشكش صغير . والنساء يزين اسفـل سراويلهن بتطريزها بالخيوط الحريرية . اما باقي اعمال الزينة فتكون حسب البحبوحة التي هن فيها .

والجبليون يستعملون المنديل اداة للزينة اكثر منه للغاية المعلومة . ويعملونه من قطعة نسيج يبلغ عرضها ثلاثين سنتيمتراً . وهو يعلق حذ كيس التبغ في الزنار ، ويستعمل لمسح اطراف الاصابع عندما تتلوث اثناء قيامها بوظيفة المنديل . ان النساء لا يستعملن المناديل الا في حالات قليلة ، اللهم الا في حـــالات الرشح التي يكنّ فيها مضطرات ، حسب قولهن ، ان يحفظن ، كنساء اوروبا ، جميع اوساخ الرأس في جيوبهن .

انه ليصعب ، في مجتمعات الرجال ان يحافظ المرء في حديثه على نبرات متوسطة الارتفاع . فالجميع يريدون ان يتكلموا في وقت معاً . والذين وهبوا رئتين قويتين يتغلبون على الاخرين بقوة صوتهم ، اذ يمكنهم ان يسمعوه ويتابعوه . فيا لتعاسة من يريد ان يبدي رأيه في هذه الجلبة الجهنمية ! يجب ان يصرخ لا ان يتكلم ، وفي اكثر الاحيان تذهب اتعابه ادراج الرياح .

الفصل الثاني والثلاثون

تابع اخلاق سكان لبنان وعاداتهم .

عندما يتلاقى شخصان في الطريق يقذف كل منهما الآخر بدفعة كبيرة من المجاملات . واذا احسنا التعبير قلنا انهما يقومان بهجوم لا هوادة فيه ، حتى اذا ما فرغت جعبة اسئلتهم يفترقان وكل منهما يتمنى للاخر جميع انواع السعادة له ولاولاده ، وانسبائه واصدقائه ، ومواشيه . ثم لا يكفان عن الكلام الا عند حصول مانع طبيعي يحول دون سماع احدهما الاخر . ان الاسئلة التي يطرحانها تتناول اقرباءهما واملاكهما وبهائمهما[1]...

يحاول الموارنة تقليد المسلمين بالقاء التحية ، فيحيي بعضهم بعضاً باسلوب واحد ، وبكلمة واحدة . ففي اول كانون يحيي بعضهم بعضاً بـ « صباح الخير » منذ طلوع الشمس حتى غروبها ، لان هذا النهار ، حسب اعتقادهم ، عيد صباح الخير . اما في غير ذلك النهار فانهم يحيون بمساء الخير ابتداء من الظهر .

يلفظ ابناء الجبل كلامهم لفظاً بشعاً . فهم يمغطون آخر الكلمة

١ ان السيد بواريه ، العالم بالطبيعيات ، يروي هذه الواقعة نفسها في اخبار سفره الى افريقية .

ويضيفون اليها نهاية اعتادوها . انهم يحورون ويمسخون تماماً الكلمات ، ويستعملون كلمات اخرى لم يألفها العرب .

ان قلة كياسة السوريين ، وخصوصاً اللبنانيين ، جديرة بان تكون مضرب المثل . فهم لا يتحدثون ابداً عن امرأة دون ان يستدركوا بقولهم : اجلك الله . وبلا سبب موجب يقول لك بعضهم : لا تؤاخذني على هذه الكلمة . وهنالك تشبيه اخر يستعملونه ، فلا يدل ابداً على تعلقهم بحياتهم الزوجية ، ولا يحمل على الاعتقاد انهم يشعرون طويلاً بألم فقدان الزوجة . انهم يشبهون فقدها بالالم الذي يشعر به عند اصطدام الكوع بشدة . يقولون انه الم موجع ، ولكنه لا يلبث ان يزول سريعاً .

وبالطبع ليس الى مثل هذه التشابيه يجب ان نرجع لنجاري مدام دي ستايل في قولها انهم يستعملون في جنوبي فرنسا تعابير شعرية بعيدة عن الكلفة حتى نكاد نقول انها مستوحاة من اهواء والشمس ، وذلك لان مثل هذه التعابير التي يستعملها العرب لا يستطيع غير القمر ان يوحيها .

ان هذا الشعب الذي قلما يحترم الجنس اللطيف اناني ، مدع ، يحب ذاته . قال بيفون : ان الانشاء هو الرجل نفسه . وعليه فيمكننا ان نستند الى طريقتهم في مخاطبة بعضهم بعضاً في رسائلهم لنحكم على مدى تفكير هؤلاء الجبليين .

انهم يبالغون في منح الالقاب كما يبالغون في مجاملاتهم وجميع اقوالهم واحاديثهم . ولكن الشقة بعيدة جداً بين اقوالهم واعمالهم . فالوعد والوفاء به هما شيئان يختلفان تمام الاختلاف في الشرق وجبل لبنان .

ان البروتوكول المتبع عندهم في تدبيج الرسائل وتوجيهها لا يعرف حدوداً . فكل عائلة وكل طبقة من الناس لها القابها وتبجيلاتها التي تتميز بها من غيرها . وهذا علم خاص وصعب لا يحسن حفظه واتقانه اي امرىء كان . فعلينـا عند الاقتضاء ان نفتش عن الذين يحسنون الكتـــابة لنكتب حسب الاسلوب الذي نرغب فيه . اما هؤلاء الاشخاص المختصون بهذا الفن فيتميزون بدواة يشكونها في زنارهم ، وهي تكون عادة من الفضة . ان اسلوب المجاملات في الكتابة قضية على جانب كبير من الخطورة في نظرهم ، فرب كلمة واحـدة اهملت فأدت الى عدم قضاء الحاجة التي تطلبها .

فوصف الرجل بالرفيع الشأن ، والاجل الامجد ، والمحترم ، لا بل المقدس تستعمل عندهم بكثرة غريبة . انهم يرفعون الرجال عالياً حتى يخيل الينا انهم يخاطبون انصاف الهة لا بشراً . ويجب ان نعترف هنا انهم بقدر ما يجلون الاخرين ويبجلونهم يتضعون هم ويحقرون انفسهم . فصاحب الرسالة يسمّي نفسه الفقير والحقير ، او عبدك ، او المطيع لك ، او اخاك ، وصديقك عندما توجـه رسالة الى نسيب قريب او صديق مخلص .

ليس بسعنا نحن ان نعرب لرئيس ما او زعيم خطير كالباشا ، مثلاً ، عن كثير من هذا التذلل والخضوع . وهكذا نجد هنا تناقضاً كبيراً بين عاداتنا وعاداتهم ، اذ بينما نجرؤ نحن على مخاطبة الله بسؤالنا اياه ان يحرسنا كبؤبؤ العين ، يكون الشرقي جـد سعيد اذا تشرف وسمح له احد الباشاوات مثلاً ان يقبل التراب الذي يدوسه .

ولا يجوز ، عملاً باحكام هذا البروتوكول ، ان توجه الرسـائل الى جناب الست مثلاً ، بل الى حضرتها . اما الزعماء الكبار فلا يخاطبون

بهذا او تلك ، بل بهاتين اللفظتين معاً : الى جناب حضرة ...

اسندت الى غندور الخوري اعمال قنصلية فرنسا ، ولم يكن من عائلة شهيرة ، فتناقشوا طويلاً حول منحه القاباً جديدة بداعي المهمة الجليلة التي رفعته عالياً ، ومن ثم لتعريفه الى الناس بمجرد الاطلاع على عنوان الرسائل الموجهة اليه . فاجتمع الاقارب والاصدقاء لبحث هذه القضية الخطيرة ، فاقترح كل منهم لقباً ظنه كافياً . الا انه لم يُسلم بواحد من تلك الالقاب لانهم رأوها جميعها لا تفي بالمرام ، ولا تؤدي الغاية . واخيراً وقف احد المؤتمرين قائلاً وقد نفد صبره : « أرى انكم سوف لن تحكموا على اقتراحي الذي سأتقدم به كما سبق لكم ان حكمتم على سواه . ارجوكم ان تضيفوا الى اسمه البروتوكولي : ايها الرب ربنا ، كم هو جدير اسمك بالاحترام في جميع انحاء الارض . ان عظمتك رفعتك الى ما فوق السماوات[1] . »

ان ابناء الجبل خبثاء جداً حتى انهم ينشغلون بمعنى الكلام المجازي عن انشغالهم بمعناه الصحيح . وهكذا ، دون ان ينتبهوا الى موضوع الحديث ، فانهم يعلقون اهمية كبرى على معني الكلمة اللذين لم يقصدهما المتكلم . ومن هنا نشأ التحفظ في انتقاء التعابير عند من يدققون في كلامهم ، او الاستدراك بقولهم : بلا معنى ، بلا قافية ، عندما لا يسعهم الاستغناء عن الكلمة التي تكون ذات معنيين .

اما اذا تكلموا عن مرض او حادث مؤسف فيضيفون : بعيداً عنك ، او وقاك الله .

١ ترجمة الاب دي لابودوري ، ص ١٧٦ .

ولقد بلغوا اقصى هذه الوساوس فصاروا يتحاشون ذكر اسماء نسائهم حينما يتحدثون عن اسرتهم . فيعبر الرجل عن زوجته في معرض الحديث ، كما يعبر عن ذلك عند الاتراك ، بهذه التعابير التقليدية : اهل البيت ، بنت عمي ، او ام فلان ، اذا رزقت ولداً . وعليهم ، اذا ما استعملوا كلمة امرأة فحسب ، ان يشفعوها حالاً بالاستدراكات اللائقة ، كما لو كانوا يتحدثون عن شيء خسيس ، دني .

ولا يحق لك ان تستطلع العربي عن اخبار واحوال او صحة اهل البيت اذا لم تكن بينك وبينه اقصى الالفة . واذا ما اضطروا الى التحدث عنها في حضرة احد امرائهم وزعمائهم فانهم يطلقون عليها اسم العبدة . والزوجة في معرض كلامها عن رجلها تسميه سيدها ، او ابن عمها ، او ابو فلان ، سواء اسبقت هذه التسمية ولادة الصبي او عقبته .

وكثيراً ما يميل الجبليون الى ابدال اسمهم بكلمة ابو فلان ، حتى انهم تعودوا ان يتكنّوا قبل ان يتزوجوا .

يرون في الزواج عملاً مشرفاً يرفع من قدر الرجل ، ويبتهجون الى ابعد مدى اذا ما كان ولدهم الاول ذكراً . وهكذا تطلق عليهم في اليوم الذي يلي الولادة الكنية الجديدة : ابو جرجس ، ابو حنا ، ابو يوسف ، تبعاً لاسم القديس الذي يقتبسونه من الروزنامة ، او الانجيل ، فلكل يوم قديس . انهم يغضبون ويكدرون من اصبح اباً اذا ما ظلوا يخاطبونه في المجتمعات بالاسم الذي كان له قبل هذا الحادث السعيد .

والذي حدا الى استعمال الكنية قبل الزواج هو ان الكنية عندهم هي خير الالقاب . ومن قلة الادب ان يخاطب الرجل باسمه .

وقد لا يرزق الرجل اولاداً ذكوراً او يحرم العقب سواء اكان ذكراً او انثى . ولذلك يحتاطون لهذه المصيبة قبل وقوعها ، فلا يعيش الرجل بلا كنية طول عمره .

وقد تلتصق الكنية بصاحبها فلا تبارحه مطلقاً وان رزق صبياً وسمي باسم يختلف تمام الاختلاف عنها . والطبقات المرموقة تهتم اكثر من العامة باتباع هـذا العرف . فالامير ملحم الخالي ، الذي رزق خمسة صبيان ، لم يعرف الا بابي فاعور ، كنيته التي عرف بها قبل الزواج والاعقاب . والذين يخشون ان يفوتهم بعض الذوق في انتقاء اسم ما يكتفون عادة بكنية اطلقت على احدى الشخصيات العظيمة . وهكذا اصبح مألوفـــا اليوم ان يكنى جرجس بابي عساف ، والياس بابي ناصيف ، ويوسف بابي الحسن ، وموسى بابي نجيم ، لانه سبق لرجالات اشداء في الجبل ان حملوا هذه الكنى ، فصارت عندهم اليوم من التقاليد .

بيد انه لما كان لكل قاعدة شذوذ حتى في لبنان ، فقد وجدتُ ان الميل الى تبديل اسم الرجل العازب باسم ولده عنـدما يتزوج ويرزق ولداً ، ليس عاماً عندهم ... وعرفت اشخاصاً عديدين ظلوا متمسكين باسمهم الاول ورغبوا رغبة قوية في المحافظة عليه رغم ولادة صبي لهم . فكانوا يعمدون ولدهم حينذاك بطريقة سرية ، ويسمونه ابا الياس مثلاً ، فيستحيل على من يريد ان يكنيهم ان يقول لهم : ابو ابو الياس ... وبهذه الحيلة كانوا يحافظون على اسمهم الذي يؤثرونه على الكنية .

ويزعمون هنا ان محبة الذات تعمل عملها في عادة اطلاق اسم الابن على الاب ، وقد كانت الدافع لاستنباط هذه الوسيلة ، فكلمة

ابو فلان فقط لا توحي لنا اي انقباض . اما ان ندعو امرءاً أبا أبا فلان فهذا لم يسمع بمثله . واذا كنا سمعنا بشيء مثل هـــذا فسببه المصانعة والمداجاة ايام الظلم والاستبداد . أيكون هنالك اسم اجمل من اسم الاب ؟ لقد قدست جميع الشعوب الابوة ، ويجب ان تقدس ايضاً في لبنان حيث لا يزال النـاس يحافظون فيه عـلى عادات الازمنة الاولى البسيطة .

ان النساء لا يتخفين ابداً في الجبل ، فالشباب ينتقون بانفسهم زوجاتهم . وعندما يعلن الاهلون رضاهم تبدأ حفلة الخطبة التي يكون لها بعض الرونق . فالعقد ينظم بحضرة شاهدين يكون احدهما او كلاهما من القسوس ، وفي هذا العقد يذكر ما يقدمه العريس او العروس من اموال ثابتة ومنقولة . وعندما يمنح الكاهن البركة يعتبر هذا العقد الديني كأنه نصف سر مقدس . فلا يمكن نقضه بدون سبب موجب ، او بدون رضى الفريقين ، او اخلال احدهما بتعهداته ، كما انه لا يجوز ان تتجاوز مدة الخطبة ، لغير مبرر شرعي ، مدة سنة . ففي نهاية هذا الاجل يجب ان يتم الزواج ، والا فالسلطات تجبر المتعاقدين على ذلك .

ان الاعراس مستحبة كثيراً في القرى ، تنعشها ، وتخلق فيها ، ولو لبضعة ايام ، اسباب اللهو الكثيرة الجلبة . والعرب يبتهجون في هذه المناسبات حتى الجنون . ان هرج هؤلاء الرجال وهذيانهم يبلغان اشدهما في المرافع وفي الاعراس . فكل واحد يريد ان يعرب عن مقدار اهتمامه واندفاعه امام قريبه او صديقه ، ويحاول ان يتميز من سواه كيما يقال فيما بعد ان هذه الحفلة كانت اكثر الحفلات بهجة وابداعاً .

تكون الحفلات في منزل العريس ، واهل العروس لا يظهرون اية

بهجة كي لا يفسحوا مجالاً للقول بانهم يتملصون بسرور من ابنتهم .
انهم لا يصحبونها الى بيت العريس ، ولا يحضرون حفلة الزفاف لئلا يظن انه لا يسعها الاستغناء عنهم او انها تحتاج الى مساعدتهم .
ترافق العروس قريبة بعيدة النسب ورجل فقير يمسك بزمام الجواد، وذلك لانه لا يجوز مطلقاً ان تقطع العروس الفسحة التي تفصل بين بيتها ومسكنها الزوجي ، مشياً على الاقدام ، وان لم يكن يفصل بين كليهما سوى زقاق واحد . يجب ان تقوم بهذه الرحلة ممتطية جوادها فلا تنزل عنه الا عند وصولها امام منزل العريس . والذي يمسك برسن فرسها يرتدي عادة عباءة او جبة ، وهما ضربان من ثياب هذه البلاد . وهذا الرجل يسرّح حالاً بعد ان يأ كل اكلاً عنيفاً .
اما اذا كانت العائلة لا تملك جواداً او فرساً فانه يصعب عليها ان تقترض او تكتري فرساً من القرية ، لان من خرافات الجبل ان المطية التي تنقل العروس تلاقي حتفها في بحر السنة نفسها . ولهذا يضطرون الى التفتيش عن فرس في امكنة بعيدة جداً ، بعد اخفاء سبب احتياجهم اليها .
اما انا فكنت موقناً ، اذا ما وُجدتُ عرضاً في الجبل ، من انهم سيطلبون جيادي لدى كل حفلة زفاف في الضواحي . وكنت اقرضها بسرعة مدهشة لافهم الذين ينعتونني بالتهور وقلة التبصّر انها كانت تزداد نشاطاً وعافية .
يتألف موكب العروس من عدد غفير من سكان قرية العريس . وهؤلاء ، بعد ان يرتدوا اجمل ملابسهم ، يبدأون بالاغـــاني وتصعيد هتافات الفرح ، ثم يتبعونها بطلقات نارية . انهم يتوقفون من وقت الى آخر ليغنوا دفعة واحدة ، او ليرقصوا . ثم لا تلبث

ان تدوّي الاهازيج ، والصراخات الحادة ، والهتافات للحكام والاقارب والاصدقاء .

تصطحب العروس صندوقاً يضم ثيابها وفراشها ولحافها . والعريس لا يحلق ذقنه او يرتدي ثيابه الا بعد وصول عروسه . اما الاشبين واصدقاء العريس فينتهزون بدورهم هذه الفرصة ليحلقوا هم ايضاً ، زاعمين ان في ذلك فألاً مليحاً .

وعندما يصل الموكب ، يفتش العريس في المكان الذي تتوجه اليه العروس عن نقطة مرتفعة ويقف عليها ليقال انه نزل حتى وصل اليها ، اي انه اسمى منها .

وقبل ان تدخل العروس بيت عريسها تلصق على عتبة باب البيت خميرة وترمي رمانة او رمانات . وهذه العادة ضرب من التفاؤل في حياة الزوجين ومصيرهما .

وغداة اليوم التالي يقوم العريس بزيارة اهل العروس ، بعد ان تكون قد تقدمته الهدية . بيد انه يتحتم عليه ان يعود في المساء الى منزله ، فلا يبيت عندهم تلك الليلة . ان اقارب العروس يأتون جميعهم في النهار الثامن ويصطحبون هدية (نقوط) تراوح قيمتها بين العشرين والمائة قرش تهدى الى العروس خاصة ، ويمكنها ان تتصرف بها على هواها . والعريس يقوم بتقديم مثل هذه القيمة عند زفاف احد اخوة العروس . واخيراً تقام وليمة عائلية يجتمع فيها جميع الانسباء . وهذه الوليمة هي نهاية حفلات العرس .

اما الفلاحون فقد تعودوا ان يعيّنوا ، لدى موافقتهم على زفاف ابنتهم ، مبلغاً من المال هو ثمن العروس كما لو كانت صفقة تجارية . وهذا المبلغ يراوح بين المئتين والخمسماية قرش ويسمى « نقداً » .

ان هذا المبلغ مقدس، وعند موت الزوج يباع جميع ما يملكه، اذا اقتضت الحال، ليدفع كاملاً. وهذا النقد هو الذي يمكن الارامل من التزوج ثانية.

ان الهبات بين الاحياء معمول بها حتى تُثمّن ما يصيب الرجل من ارثه.

وهنالك عادة درجوا عليها في الجبل ثم الغاها الامير بشير منذ اثنتي عشرة سنة خلت. لم يكونوا يسلمون العروس لاهل العريس واصدقائه الا بعد أن يصيب احد هؤلاء برصاصة هدفاً ما يعلق في طرف ركيزة عالية. واذا لم يتمكن احد هؤلاء الموفدين من قبل العريس ان يصيب الهدف، ازدراهم جماعة العروس واحتقروهم. وكثيراً ما كان يؤدي ذلك الى المنازعات، لا بل الى نقض الزواج.

وفي زمن متأخر جداً لم تكن تسلم العروس، وهي في صحبة جمهور غفير من شباب قريتها، الى اهل العريس واصدقائه، الا بعد قتال وهمي ينتهي بظفر هؤلاء. واذا لم يأتهم الله بالظفر ارجيء التسليم الى يوم ثانٍ. ان اتباع مثل هذا العرف ادى، في كثير من الاحيان، الى معارك حقيقية بين شباب القريتين اذا رأوا في هذا الحادث مساً بشرفهم.

تنصرف العروس الى تدبير شؤون المنزل في اليوم الثامن لزواجها. وعليها ان تطبخ، وتسقي الماء من العين، وتقطع الحطب احياناً. والنساء عندما يقمن باشغالهن يشمرن اثوابهن ويشددنها بقمصانهن حتى تبلغ ما فوق الركبتين فتربط بالزنار. ولهذا كن يزيّنّ سراويلهن بالتدبيج والتطريز.

وفي المدن حيث تقوم النساء باشغال المنزل ايضاً تراهن يجلسن مقرفصات بعد ان يستعنّ باعقابهن او ركابهن . انهن يغسلن ويعجنّ ويطبخن ويصنعن القهوة ويتحدثن او يدخنّ وهن في احدى هذه الجلسات . اما عندما يتعبن فيكون كرسيهن حجراً .

ان الدرزيات والمارونيات لا يلففن جميع جسدهن بملاءة غليظة او شفافة كما هي عادة نساء المدن . فقطعة من القماش او الحرير تبلغ مترين او ثلاثة محكمة الوضع في قمة الطنطور تسترسل الى الوراء حتى ثلثي جسدهن يحجبن بها وجوههن اذا دعت الضرورة الى ذلك . والمسيحيات لا يحتجبن الا عندما يشاهدن رجلاً مسلماً او درزياً . اما نساء هذين الشعبين فيختفين عن ابصار جميع الرجال من اى طائفة كانوا .

ان عادة استعمال الطنطور ترجع الى الدروز ، والملاءة الى مسيحي كسروان . ثم ما لبث ان اتبع القسم الاكبر من هؤلاء ، وعلى الاخص الذين يقطنون البلدان الدرزية ، عادة لبس الطنطور .

ان الاميرات وزوجات المشايخ والاشراف كن يلبسن طناطير من ذهب . اما الذين يتعاطين الحرف فطناطيرهن من الفضة بحلى قسم من مقدمتها بالذهب . ان طناطير الدروز قصيرة اكثر من غيرها ، وطناطير نساء العقال والشعب خشبية او مصنوعة من القرون .

اما عادة ارتداء الطرابيش الكبيرة فهي حديثة العهد ، لم تتبع في الجبل الا منذ حوالى مائة سنة . وهذا الزيّ قد أتي به من بغداد ، مع ان هذه الطرابيش تصنع في تونس ، ثم ما لبثت فرنسا ان قلدتها في ذلك .

وهذه العادة قد زالت عندما اخذت عادات مصر تعمل عملها في سوريا. فعودة الامير بشير الى الجبل، عام ١٨٢٣ بعد حصار عكا، على اثر عصيان عبد الله باشا، احدثت انقلاباً كبيراً في ازياء الملبوسات. وهكذا استحسن الجميع ذوق الامير لان الازياء التي درج عليها كانت فخمة جداً.

ان الجبليين يميلون كثيراً الى الفخفخة، فهم لا يملكون الا الملبوسات والاسلحة. واللبنانيون يحبون كثيراً تقديم الهدايا، حتى في زياراتهم البسيطة التي يقومون بها. ولذلك يقولون ان اليد الفارغة كريهة الرائحة. يجب دائماً تقديم هدية للسلطة التي تحكمهم. ويزعمون ان هذا التقليد مستوحى من وصية موسى للاسرائيليين، وهي ان لا يأتوا اليه فارغي الايدي.

لم يعد من اثر في الجبل لليزبكية والجنبلاطية اللتين قامتا مقام اليمنية والقيسية. الا ان البلاد انقسمت بعد وقوع الحوادث الاخيرة الى دروز ومسيحيين. واهالي بيروت بصفتهم مدنيين كانوا اعداء الجبل.

العدل في بيروت خاضع لتأثير ذوي النفوذ الذين يرجحون دائماً كفة الميزان. وهكذا لا يكفل الحق ربح القضايا الخاضعة لاحكام القضاة.

ذهب شخص، بعد ان حكم عليه في دعوى رغم توافر حججه وبراهينه، الى كنيسة قريته واخذ يدق الجرس دقات حزن. وعندما رأى الناس يتراكضون متسائلين عن الرجل المتوفي، قال: « انه الحق! ولما كان الحق شخصاً هاماً فقد احببت ان اعرب عن الاسف الذي اشعر به عند موته في فترة انا بحاجة فيها الى

مساعدته وحمايته . »

اني اقول ، اعترافاً بالحقيقة ، ان اعمال رجال الامن يمكن المفاخرة بها رغم عنايتهم القليلة . فالرأي العام مطبوع على حب الفضيلة والشرف . وهكذا فقلما يذنب شخصان من الجنسين المختلفين الى شرائع الطبيعة . واذا كانت العادات العامة قد فسدت فانما ذلك يكون في القرى المجاورة لبيروت . فيتوجب علينا اذن ان نعزو الى هذه الضاحية ما قلته عن نساء لبنـــان ، اذ ان هنالك اختلافاً بين اللواتي يسكن الساحل ، والاخريات اللواتي يعتصمن بالجبل .

اما اذا توفي شخص فيُخطر على الاثر عموم الاقارب والاصدقاء والمعارف ، فيهتم هؤلاء بايواء المعزين الوافدين من القرى المجاورة واطعامهم . فكل منهم يصطحب الى داره حسب مكنته شخصين او ثلاثة . انهم يتسابقون اليهم ، بعد عودة الموكب من الدفن ، اذ قلما تكون المدافن بعيدة ، لا بل تكون عادة حول الكنائس والمعابد .

وعندما يكون المتوفي رجلا مرموقاً يكرم ، وفقاً للتقليد ، الى مدى بعيد . ان امراء البلدة او الضواحي يوفدون رجال حاشيتهم ليعزوا اقرباء الفقيد . وتتدافع الجماهير من الرجال والنساء لحضور المأتم ، فيأتون من جميع القرى المجاورة . ولما كان لا يجوز اضرام النار في بيت الراحل ، فاصدقاء الفقيد هم الذين يقرون هذه الجماهير وينزلونها عندهم .

وعند وصول كل وفد او شخص من المعزين يتعالى صراخ محزن مقدمة لنواح تصعده النسوة الملتفات حول النعش وينهينه

بتأوه شامل حاد .

والمرطبات التي تصب للمعزين يقدمها على اختلاف انواعها الاقرباء والاصدقاء وزعيم القرية ايضاً . فالامراء والاميرات يرسلون عدة قطع من الاقمشة المزركشة بالذهب والفضة ليُلف بها نعش الميت ، ويلبسون الفراء كلاً من اولاده . وعند عدم وجودهم يلبسها انسباؤه الاقربون . واسرة الفقيد تعد هذا شرفاً لها . وقد تكون هذه اللفتة الاميرية في بعض الاحيان هي المكافأة الوحيدة لخدمات جلى قام بها الفقيد .

ان الجبليين الذين يتمسكون كثيراً بتقاليدهم وانانيتهم يحاولون في مثل هذه المناسبة ان يحيطوا انفسهم بهالة كبيرة من التقدير . وهذا ما يدعوهم الى تكبد مصارفات لا يحتملونها ليفسحوا مجالاً للتحدث عن عظمة المأتم . ولهذا قيل في الابهة : انها تدغدغ ، في هذه البلدان ، كبرياء الاحياء اكثر مما تخلد ذكرى الاموات .

ان الكهنة الذين يحضرون دفن الميت عند الطائفة المارونية كثير عددهم . وهذه الكثرة لا تدل على منزلة الفقيد . فالكاهن لا يعطى الا ما يقارب الاربعين سنتيماً ، ثم يعطى مثل هذا المبلغ بعد حين اذا ما اقام قداساً وجنازاً عن نفس الفقيد .

يحترم الفرنسيون ، بلا ريب ، اكثر من غيرهم في الجبل . والفضل في هذه المنزلة التي اكتسبوها يعود الى من سبقهم . فهنالك بين الذين اتوا حديثاً من يفضلون ان يبرزوا بمظاهر اجنبية عوضاً من ان يحافظوا على اخلاقهم الطبيعية الدمثة الحليمة ، هذه الصفات التي يستعذبها ابناء البلد هنا ، لا سيما وانهم لم يتعودوها في زعمائهم

الوقورين بطبيعتهم ، والذين لا يبتسمون كما يبتسم الافرنسي دائماً .

لا يضع العرب الخاتم في السبابة او الاصبع الوسطى ابداً . اما الاصابع الاخرى فيزين كل منها بثلاثة خواتم او اربعة في اكثر الاحيان، حتى ان الابهام قد لا تحرم نصيبها من الخواتم .

ولما كانت السبابة اذا اشير بها متدلية تعني التهديد، فانه يخشى استفزاز الناس واهانتهم عند المباهاة بالخواتم التي تزينها .

ان الاصبع الوسطى متهمة بقلة النظافة . وهذا ما يحول دونه تزيينها .

الفصل الثالث والثلاثون

تاريخ الامير بشير شهاب.

كان الجزار سياسيا داهية ، بقدر ما كان ظالماً ، غدّاراً ، فلم يفته ما تضمر بعض الامر اللبنانية للبعض الآخر من احقـــاد يذكيها التنافس . فعمل بلباقته على انماء تلك الحزازات في نفوسهم . وكان يعرف نبات آل شهاب ومطامعهم السيـــاسية فيتملقهم تارة ، ويخدعهم طوراً ، يعللهم ويؤملهم ، اميراً بعد امير ، بكرسي الحكم .

ووفقاً لهذا المنهج الذي نهجه الجزّار كانت تُباع خلعة الولاية بالمزاد العلني . وكان الامير الكبير مضطراً ، لاجل المحافظة على كرسيه ، الى ان يقبل بتأدية الثمن الذي كان يتقدم به من الجزّار سائر افراد تلك العائلة ، على الرغم من جسامة المبلغ البـالغة الحدّ . كان للخلعة ثمن باهظ لا بد لباشا عكا من ان يقبضه ، كل عام ، من الزائد الاخير .

وبسبب هذه المزايدة سعى الامير بشير في قتل عمه الامير يوسف ، فمات هذا مخلفاً وراءه ثلاثة اولاد غير مجتمع اشدهم . كان بوسع اقاربهم ، لو خلقوا اقل جشعاً ، ان يمدوا لهم يد المعونة وينتظروا بلوغهم سن الرشد ، ولكن تهافتهم على كرسيّ الولاية وطمعهم بها حدا الاميرين حيدر وقعدان – عمّ ابناء المير يوسف وابن عمهم – ان يطمحا الى الحكم ، فحـــاربا الامير بشيراً الذي كان يقته

الشعب واستطاعا التغلب عليه . فالتجـأ الامير بشير الى عكا ، وطلب المعونة والمدد من الجزار ، فـامدّه بسبعة عشر الف رجل حارب واياهم في الجبل اكثر من سنة دون جدوى . فاضطر الجزار الى سحب جيوشه . ولكي يقهر الاميرين حيدر وقعدان عرض على « مناصب » لبنان ان يعيد اليهم امراءهم الشرعيين ، اولاد الامير يوسف ، فهب ابناء الامير يوسف وطردوا عمهم وابن عمهم وحكموا البلاد بهدوء وسكينة ، ولكن مدة سنة فقط .

ثم حاول باشا عكا ، الذي لم يفتأ بثير الفتن والتفرقة في الجبل ، ان يعيد الامير بشيراً الى كرسي الحكم ، بعـد ان بقي هذا الامير ثلاث سنوات لا يقوم بعمل ما غير تربّص الدوائر بخصومه . فأمدّه من جديد بجيوش لم تكن اكثر توفيقاً من التي امدّه بها من قبل . فالشعب كان لا يزال كارهـاً للامير بشير ، مصراً على عدم القبول بولايته . فغضب الجزار على بشير وألقاه وأخاه حسناً في غياهب سجن عكا ، واعترف لمن لم يتمكن من طردهم بحق حكمهم الجبل .

خال اعداء الامير بشير ان الباشا سيقتل الاخوين . بيد ان الجزار ، وهو ذلك اللبق الحاذق ، لم يكن ليهرق نقطة دم ما زال يأمل بوسيلة يستدرّ بها المال .

وبعد سنتين فـاوض سجينه بالعودة الى الحكم ، فالشعب لم يعد يكنّ لامرائه الحاكمين ذلك الولاء القديم ، فالفرصة اذن مؤاتية . عرض الجزار على الامير بشير واخيه ان يجعلها سيديّ الجبـل شرط ان يدفعا له خمسين كيساً كل شهر (٣٧٥٠٠ فرنك) ، وان يتركا اولادهما عنده رهائن .

وعندما درى الاميران حسين وسعد الدين ، ابنا الامير يوسف ، بما يعدّه ويدبره لهما الجزار من مكايد ، هربا قبل ان تدركهما اظفاره الدامية . وهكذا حكم الامير بشير الجبل ثلاث سنوات لم تقم بها في وجهه صعوبة .

والتمس الاميران الهاربان نجدة باشا دمشق فلم يظفرا بطائل . فحوّلا وجهها شطر باشا طرابلس فخابا ايضاً . والجزار الذي يجني ثماراً طيبة من تعاقب الامراء على كرسي الحكم كان يحاول دائماً اقلاق بال الذين نصّبهم هو ، فعرض مساعدته على ابناء الامير يوسف ، بعد ان نشدوها عند غيره ولم يجدوها ، فقبلوها وهرعوا اليه . وعندما جاء سيدني سميث لنجدة هذه الفرضة (عكا) التي يحاصرها الفرنسيون ، كان هؤلاء الامراء لا يزالون يساومون ويعللون بالآمال .

وقضي الامر فلم يتمكن الامير بشير من الصمود امام مهاجمة قوات الجزار والامراء له ، ففر الى عكار الواقعة على مقربة من طرابلس . فتعهد قائد الاسطول الانكليزي بحمايته لدى الوزير الكبير . وهكذا ابحر الامير على ظهر البارجة ليلتحق بالوزير الكبير ، فادركه في العريش .

ان توصية السيد سميث مهّدت السبيل للامير ، فاستقبل استقبالاً جميلاً ، ووعد بالاهتمام بقضيته فور نهاية الحملة المجهزة ضد الفرنسيين .

وبناء على هذا التأكيد عاد الامير الى عكار . وبعد ان قضى فيها ثلاث سنوات قام بثورة ادّت به فوراً الى القبض على زمام الحكم . استدعاه الاهالي الكارهون لاولاد الامير يوسف لانهم فرضوا ضرائب باهظة ، ارضاء لباشا عكا ، ثم كانت الثورة عليهم ، ففرّ هؤلاء الى بيروت .

وبعد هذا الحادث نشبت حرب بين الامير بشير والامراء المطرودين الذين عاضدتهم جيوش الجزار ، ولكنهم ما لبثوا ان سئموا القتال فتهادنوا ، واقتسموا فيما بينهم حكومة لبنان وكسروان.

وهلك الجزار فلم يحدث موته اي تغيير في هذه المهادنة ، لا بل ساعد على توطيد دعائمها .

غير ان المزاحمة على الكرسي كانت قد حملت المتنافسين على التعهد بدفع مبلغ جسيم يقدّر بتسعة الاف كيس[1] (من ستة الى سبعة ملايين فرنك) . فما ان استولى سليمان باشا ، خلف الجزار ، على ازمّة الاحكام ، حتى اخذ اولو الامر يفكرون بطريقة استيفاء هذا المبلغ الضخم . فاجمع اهالي الجبل امرهم وابوا ان يعترفوا بصحة هذا الدين ، ووجوب دفعه ، ولكنهم اكرهوا على الخضوع وتأدية ما فرضه وأقرّه الباشا اذ جعل هذا المبلغ اقساطاً منجمة ، تدفع في اثناء خمس عشرة سنة ، اي كل سنة ستمائة كيس . وهذا القسط اذا ما اضيفت اليه الضريبة القديمة البالغة مئتي كيس ، يصبح ثمانمائة كيس تدفع كل سنة . وهكذا دواليك حتى يستوفى المبلغ كاملاً .

وفي بداية هذه الادارة السلمية الهادئة شاء اولاد الامير يوسف ان يقوموا بمحاولة جديدة ليستعيدوا سلطانهم على جميع انحاء الجبل . وشعر الامير الكبير ، في الوقت المناسب ، بما ينصب له من شراك ، فاحبط مساعي المؤتمرين . فقتل مديره ومدبر الامراء حاكم مقاطعة

[1] كانت جميع المنازعات التي تنشأ بين الجبل وباشوات سوريا تنتهي دائماً بدفع المال. فالمال ، وحده ، يشبع نهم الاتراك ويهدىء من بغضهم عندما كانوا يستطيعون الانتقام . كان يهدىء من غضبهم ويعيد اليهم عزتهم بعد ان تجرح كرامتهم او يحال دون ما يبتغون .

جبيل [1] ، وفقأ اعين ابناء عمه اولاد المير يوسف . ولكي يبرر الامير الكبير عمله الظالم هذا بسط للباشا مطاوي المؤامرة ، واطلعه على نيات خصومه الاثيمة وما كانوا يضمرون له من كيد وانتقام .

ومما يقال ، حول هذه الحوادث الخطيرة ، ان الامير الكبير رأى فرصة وجود الانكليز في مصر مؤاتية له ، فاغتنمها وتخلص من اعدائه ومزاحميه ، فالقومودور سيدني سميث كان قد فاوضه واتفق معه على موقف معين يقفه حيال انكلترا .

ومن جملة الرسائل التي تلقاها الامير ، رسالة من السيد اولدريدج صادرة عن لندرة ، مؤرخة ١٣ اذار ١٨١٩ ، وهي تنطوي على تفاصيل هامة حول هذا الشأن .

ذكر السيد اولدريدج الامير في رسالته هذه باستقباله اياه في قصره بدير القمر ، عام ١٧٩٩ ، ثم استقباله مرة اخرى لم يذكر وقتها الا بالاشارة الى الهدية التي قدّمت له ، وهي بندقية في منتهى الدقة والجمال يُظن ان الفارس جون بانكس اودعها المتحف البريطاني فيما بعد . وقد قوبلت هذه الهدية بارسال بندقية الى الامير الكبير مرفقة بقطعة من نسيج دقيق عام ١٨٠١ .

ولكي يظهر هذا الضابط ما ناله من حظوة ، وما امتاز به على الذين رافقوا السر سيدني الى جبل لبنان ، فقد ذكر الامير بزيارته الثانية له ، حين رافق الى قصره الضابط يواريت الذي جرح في احدى المعارك .

[1] يقصد المؤلف ابني باز جرجس وعبد الاحد اللذين قتلهما الامير بشير ، بليلة واحدة وساعة واحدة ، في جبيل ودير القمر . — المعرّب .

ثم دخل الموضوع وعرض على الامير بشير عقد محالفة تجارية ، مبيناً له جميع الفوائد والمنافع التي يمكن البلدان ان يجنياها منها اذا عقدت .

وبعد تفصيلات عديدة ختم رسالته بهذه العبارة ليطمئن الامير الذي قد يخالجه الحذر والخشية ، فقال له : « ان انتصارات اللورد ولينغتون الذي قاد جيش اسبانيا ، قد أوثقت وغلّت تماماً ايدي بونابرت ، فحالت الى الابد دون احراجه موقف اصدقائنا في مصر وسوريا . »

وفي غضون ذلك نكب الجبليون واهالي سوريا بموت سليمان باشا الرجل الطيب، فخلفه عبدالله بك ابن كاخيته وعمره اثنان وعشرون عامـــاً ، فافتتح اعماله بذبح من احسن اليه ، ألا وهو مدبر سلفه الاول ، ملحم حايم الاسرائيلي الذي وهب مقدرة لا تجارى في الاعمال الادارية .

ان هذا الوزير الشاب الذي استلم الى نزقه ما لبث ان اتبع سياسة الجزار في قضايا الجبل ، فضاعف السنّابة كيس ، بل زاد على تلك القيمة مبلغاً ضخماً يقدّر بالفين ومئتي كيس .

ولا بدّ من القول هنا ان تعطش الباشا للذهب قد نتج عن الضريبة الفادحة التي قضي عليه بدفعها لينال العفو ، بعد عصيانه على الدولة عام ١٨٢٣ ، في حين انه لم يكن يدري ان الامير بشير قد قاسمه نقمة الدولة عليه ، ثم لم يساهم بشيء في سبيل الحصول على العفو والغفران .

كان مصير الامير مرتبطاً بمصير هذا البـاشا . ظن الامير ان مركز الباشا وطيد لا يتزعزع ، وهو لا يتزحزح من منصبه . فلما

كاد يشعر بترجرج موقف الباشا حتى غادر البلاد ميمماً مصر ، فوجد فيها ملجأ منيعاً يحتمي به . فمحمد علي الذي سبق ان ربطته بالامير علاقات قوية ساعده بكل ما اوتي من نفوذ . وهكذا عاد الامير بشير الى تولي حكم الجبل ، على الرغم من ان الباشوات الذين حاصروا عكا اسندوا منصبه الى الامير عباس .

ورأى الامير الكبير ان البلاد تحركها احزاب تناصبه العداء ، فازداد تخوفه ، ولا سيما حينما وجد الدروز منضمّين ، هذه المرة ، الى اقربائه وذويه الذين يتآمرون على دكّ سلطانه .

كان قد سبق للدروز ان قاموا عام ١٨١٧ بمحاولة من هذا النوع فاستولى الشيخ بشير جنبلاط على الحكم ، مستعيناً بنفوذ ابناء طائفته الكبير في الجبل [١] . الا ان دستور الجبل كان يحظر الولاية على كل زعيم لا ينتمي الى الاسرة الشهابية . وعلى الرغم من ان الامير بشيراً أكره على الفرار الى حوران ، فالشيخ الجنبلاطي لم تواله الا حظوظ عابرة .

لم يقنع الشيخ الجنبلاطي بما بلغ من نفوذ كتوليه منصب وزير الامير ، وهو منصب اطلق يده في حكم ابناء طائفته واكثرية سكان البلاد . فاعلن العصيان عام ١٨٢٥ ، مغتنماً فرصة انحراف صحي شعر به الامير وألزمه الفراش . زحف الدروز يؤازرهم فريق من المسيحيين وبعض افراد آل شهاب الى قصر بتدين [٢] مقر الامير الكبير . وكان يسهل عليهم الاستيلاء عليه لو كان الجبليون

١ بنى هذا الشيخ جامعاً كان يصلي فيه على مرأى من الجمهور آملا ان تظاهره بالاسلام يسهل عليه تحقيق امنيته في بلوغ كرسي الحكم .

٢ قصر بناه الامير بشير على مسافة ربع ساعة من دير القمر .

يعرفون الاستفادة من المناسبات ، ويضحون بعدد قليل من الرجال. غير انهم يفضلون ان يطلقوا نارهم من وراء صخرة يلوذون بها ، او شجرة يختبئون خلف جذعها ، بدلاً من ان يهاجموا عدوهم وجهاً لوجه .

اما اعمال تسلق الاسوار فهذه حركات لا يحسنون القيام بها ابداً ، وهذا ما يجعل مدة الحصار لا نهاية لها . ولذلك ظلّ ابراهيم باشا يحارب ثمانية اشهر حتى استولى على مدينة عكا ، رغم انه لم يدع فيها حجراً على حجر .

ان هجوماً جبهياً كان يمكن ان يؤدّي الى سقوط قصر الامير الذي لم يكن يحميه سوى ثلاثمائة رجل . ولكن الامير اسرع فانبأ الباشا بموقفه فأمدّه ، بسرعة خاطفة ، بجيوش [1] وصلت ، في وقت واحد ، هي والجيوش التي استقدمها الامير من المقاطعات التي يحكمها ، فطوّقوا الدروز ، واعملوا السيوف في رقابهم ، فكانت ملحمة كبيرة ، وقد ابيد حزبهم عن بكرة ابيه ، وزعماؤهم الذين لم يلاقوا حتفهم في القتال ضربت اعناقهم بالسيف في عكا ودمشق .

اما الشيخان بشير جنبلاط وعلي العماد فلقيا هذا الحتف بعد ان صودرت اموالهما ، كما صودرت جميع املاك الامراء الذين كانت لهم اصبع في المؤامرة . ثم ان الامير الكبير فقأ اعينهم وقطع السنتهم . فعل بهم ما كانوا قد اقسموا على ان ينزلوه به اذا ما انتصروا عليه ، وظفروا به .

لزمت اكثرية النكديين الحياد التام في هذه المعركة الفاصلة ،

[1] ان الجهود التي بذلها عبدالله باشا في هذه المناسبة حمت سوريا من احتلال الجيوش المصرية التي شاء ان يبعث بها نائب الملك لتساعد الامير بشير . وقد اوقفت في حينه وبطريقة لطيفة . الا ان النابلسيين وحدهم استغلوا هذه الفرصة وثاروا على الباشا .

فظلوا في مناصبهم ونعموا بثقة الامير . وهكذا كانت هذه الثورة بدء عهد توطيد سلطة الامير بشير ، وان ظل يلقى مع ذلك بعض الصعوبة في ارضاء عبد الله باشا الذي كان يتعبه في مطالبه . كان الباشا لا يقنع باخذ ما يبتز من مال ، بل يريد زج الامير في جميع حروبه مع الاقطاعيين الذين ينكرون عليه سلطانه .

لم يكن في استطاعة الامير رفض مطالب الباشا ، فسخر رعاياه ، معتمداً على ولائهم له بعد ان تالبوا عليه ، ولكن تكليفهم دفع ضرائب باهظة ، بعد نفقات حروب متواصلة شاركوا فيها بقسط وافر من ارواحهم ، قد ساءهم كل الاساءة . وهكذا كان يضحي الامير بمحبة شعبه له ليحصل على رضا الباشا ، بينا هذا الباشا كان يتطلب منه الشيء الكثير ، فكل ما كان يقدمه له الامير لم يكن يرضيه ويشبع نهمه .

وبعد ان حاول « الاروام » [1] احتلال بيروت ، عام ١٨٢٧ ، ظن الباشا ان للامير اصبعاً في هذه القضية . الا ان الامير استطاع ، بعد تضحيات كبيرة قام بها ، تهدئة خاطر هذا الوزير الذي اخذ يعنف الامير ويلومه على علاقاته مع نائب ملك مصر ، ولا سيما بعد النفور الذي وقع بين الباشا وبين محمد علي المحسن اليه .

استمرت هذه الخصومة بين الباشا ومحمد علي مدة طويلة تقرر في نهايتها مهاجمة ولاية عكا ، وكان تنفيذ هذه الخطة في شهر تشرين الثاني ١٨٣١ .

١ هكذا سماهم الشدياق والمير حيدر في تاريخيهما . – المعرب .

كان الامير يخلص كل الاخلاص لمحمد علي . وعلى الرغم من انه شاء ان يتصرف هذه المرة بلباقة وحكمة ، فقد كشف عن سريرته بسرعة ما عودنا اياها ، ولم يكن يأتيها لولا اتفاق سري بينه وبين ابراهيم باشا .

ان تصرفات عبدالله باشا الجائرة ودسائسه وسعيه المتواصل لاعادة المشايخ الدروز الى الجبل ، بعد ان استبقاهم ليهوّل بهم كالاخيلة والاشباح ، اضطرت الامير الى ان ينضمّ الى الحلف المصري . وعلى كل فابراهيم باشا لم يخابر الامير بشيراً الا بعد وصوله الى عكا بخمسة عشر يوماً . وهكذا لم يشأ الامير ان يستبق الحوادث ، فاستعمل جميع وسائله للتخلص ، في غضون شهر كامل ، من موافاته الى ساحة القتال[1] .

واخيراً قدم ، فاستقبله القائد الاعلى للقوات المصرية استقبال رجل محالف له ، لعلمه كل العلم انه لن يتسنى له ان يكون سيد سوريا بدون مساعدة الجبل ومعونته . وهكذا ابقى الى جانبه الامير بشيراً حتى ذهابه الى طرابلس وحمص لانه كان محتاجاً الى ما يمده به من مؤن وذخائر يحتاج اليها هناك .

ولقد قام الامير بمهمته بنباهة ، وادرك الباشا في بعلبك .

[1] ابى الامير بشير رغم مفاوضته السرية مع مصر ان يعلن حقيقة موقفه . واذا كان قد دل في شبابه على حكمة متناهية فلم يهب الى مساعدة الجيوش الفرنسية التي تحاصر عكا ، فانه كان يفضل ، لا سيما وقد زادته السنون خبرة ، لزوم الحياد حتى ظهور حدث هام تميل به دفة الحرب ، ولكن وجود الجيوش المصرية على الشواطىء المجاورة لجباله اضطره الى ايضاح موقفه . – كادلفين وبارو ، تاريخ حملة محمد علي ، ص ٨٤ .

الفصل الرابع والثلاثون

تابع تاريخ الامير بشير شهاب.

ان غياب الامير وابتعاد القوات التي تؤيده وتأمر امره قد حملا الحزب الدرزي على الاعتقاد بان الفرصة سانحة له ليستعيد السلطة التي فقدها. فالروّاد الذين اوفدوا الى اسطمبول عادوا يخبّرون ان جيوش السلطان المعظم ستدخل سوريا وتقدم لهم المعونة التي ينشدونها.

فلو لم يعلن الامير بشير ولاءه لابراهيم باشا لانضم الدروز الى ابراهيم، ولكن صيرورة خصمهم حليفاً لمصر قضت عليهم بان يوالوا الدولة العثمانية.

وما كاد ابراهيم باشا ينتهي من حمص حتى اخذ يهتمّ شخصياً بقضية الامير بشير، فقصد بيت الدين على رأس اربعة الاف رجل مهدداً بهم من هنالك دير القمر. الا ان الدروز غادروا البلد لانهم لم يكونوا يتوقعون قدوم القائد المصري، ومحاربتهم له، فنهبت بيوتهم كلها.

تلك كانت الخدمة الوحيدة التي فاز بها الامير من محمد علي لقاء موالاته له. اما الجبل فلم ينله شيء من عطف محمد علي لانه كابد تضحيات كبيرة اثناء الاحتلال المصري. ومذ ذاك بدأ اللبنانيون

وزعماؤهم يكرهون المصريين بعد ما كانوا يرغبون فيهم .

ما اكتفى الامير بشير بخدمة مصالح مصر بما يسره له موقفه، بل بذل كل ما أوتيه من نفوذ وقوة . لاقى الامير ، كما رأينا سابقاً ، كثيراً من الاضطهادات قبل ثبوته في كرسي امارة لبنان . فهو يقدر ، اذن ، قيمة مساعدة صديق قوي حق قدرها . اهتم ، خلال سني حكمه ، بخلق اصدقاء له ، والاعتماد على رجال يحمونه ، فربطته علاقات وثيقة بجميع رجالات سوريا العظام . كان يخطب ودّهم اما بهدايا يقدمها لهم ، او بقضاء بعض خدمات دعت الحاجة الى ان تطلب منه ، في زمن لم تكن فيه سلطة السلطان سوى اسم بلا مسمى . فكل باشا ، وكل آغا او زعيم كان بوسعه ان يؤلف حزباً ويعلن استقلاله ، فتنتج عن ذلك الحروب . والحزب الذي يغلب على امره لم يكن يجد ملجأ ومعتصماً له الا في الجبل الدرزي. على ان حصانة هذا الملجأ ومناعته لم ينتزعهما الا المصريون .

كان الامير يستقبل جميع الذين ينزلون عليه ، ومن اي فئة كانوا ، بلطف واحد ، ويبقيهم في قصره المدة التي يرون من المناسب قضاءها عنده . وكانت هذه الضيافة ، في جميع الاوقات ، اثقل عبء يقوم به الامير بشير . الا ان سماحة كفه وشهامته كانتا تليقان به تماماً . وما لنا ان نلومه اذا اثقل عاتق شعبه ليرضي امياله النبيلة السمحة ويحسن الحماية والاعتصام .

تعرفتُ الى عدة رجالات عظام من الاتراك ، فلم يترك احد منهم في نفسي بعض الاثر الذي كنت احسه حين امثل بحضرة الامير بشير ، قبل ان هدم ابراهيم باشا معالم سؤدده وعظمته .

وفي جميع الحروب التي خاضهــا المصريون مع البلدان التي

حاولت ان تخلع نير العبودية ، كان الجبليون وحدهم هم الذين يحاولون القاء النير الجديد عن اعناقهم . ففي نابلس وجبال اللاذقية وحوران استعانوا باللبنانيين لان جميع الاساليب الاخرى لم تكن تجدي نفعاً .

قدّم الجبلُ خلال عدة سنوات رجالاً سخّروا في تشييد ابنية دكتها حرب عكا . وأوفد بنائين وعمالاً الى كولك بوغاز ، فانهارت قوى قسم كبير منهم من جراء التعب ورداءة الغذاء والهواء .

ومع ذلك فالمظالم التي اناخت بكلكلها على ابناء الجبل قد اناخت على سكان المدن سواء بسواء . نُزعت الاسلحة في كل مكان ، ولم يذكر شيء من تضحيات الجبل واقدامه واخلاصه . والذين لم يستطيعوا ان يقدموا بنادق أجبروا على دفع اثمانها كما لو كانت في حوزتهم . ناهيك بان التجنيد الذي دعي اليه قد فرض بصرامة وطبق بتدقيق على الدروز والمتاولة ، رعايا الامير ، اكثر مما فرض وطبق على رجال المدن .

ففي العام الاول للاحتلال علل الجبليون الذين خدموا القضية المصرية انفسهم باعفائهم من ثلاثة اشياء : التجنيد الاجباري ، ونزع السلاح ، ودفع الضرائب الجديدة . اما الامل الاخير فما كاد يظهر حتى اضمحل لان السلطة الجديدة ، مع الغائها الفرائض القديمة التي كانت تثقل كاهل المدن ، قررت ان تجبي من الجبل الضريبة القديمة نفسها ولكن ليس بالمقدار الذي فرضه الجزار او سليمان باشا ، بل كما كان يستوفيها عبد الله باشا ، اي بمضاعفتها ثلاث مرات عما كانت عليه بادىء ذي بدء . وعبثاً كان يبدي الامير بشير الى المحتلّ نصائحه التي اوحتها اليه حالة رعيته . فكم اوفد من رسول اثر

رسول لمفاوضة الحاكم العام، وابراهيم باشا، ونائب الملك نفسه. ولكن لم تحقق له رغبة، وطلبته لم تستجب. ولو انها تحققت لكانت دلّت على أنبل عمل هو غاية العدل والانصاف.

هال هذا الرفض ابناء لبنان فاعلنوا سخطهم وهددوا بالعصيان قبل ان يرتضوا بتجنيد ثان. وبهذه المناسبة قدم بحري باشا، مفتش خزينة نائب الملك في سوريا، ليفاوض الامير بالامر. وبعد ان ضايقه بجميع ما يملك من اساليب، ليحمله على الاذعان لامر ابراهيم باشا، قر رأي الامير اخيراً على مقابلة الزعماء الدروز ليطلع على اسباب رفضهم في تقديم عدد الرجال المطلوب منهم.

اجاب الامير، بادىء ذي بدء، ان سلطته تمكنه، في الحالة الحاضرة، من جباية الضرائب ودفعها، ولكن دون ذلك اهوال ومشقات، وهو مع ذلك لا يريد بل يأبى ان يتعرض لسخط الشعب بدون امر خاص من القائد العام.

وفي الصباح اجتمع الامراء والمشايخ الدروز عند الامير، فحاول بحري بك، بما أوتي من مقدرة، ان يقنعهم باجابة ما يطلب منهم، مبيّناً ومعدداً الحسنات التي أتتها الحكومة المصرية فأحيت هذا البلد وانعشته. ثم توسع بوجه خاص فأفاض في تعداد المنافع المنتظرة التي يجرّها عليهم رضوخهم الى ما يطلب منهم، فقال لهم:

« انا مسيحي من العوام، ومع ذلك رقّيت الى رتبة قائد مكافأة على شجاعتي واعمالي المشرفة التي قمت بها. »

ولكنه، حين لم يلق جواباً على كلامه الا سكوتاً كئيباً، شرع يصوّر لهم ما يجره عليهم عنادهم من اخطار:

« انكم تعرفون ابراهيم باشا ، وما يستطيع ان يعمله . لقد استذل السلطان نفسه . فحذار من غضبه ومن البلايا والويلات التي ستجرونها على انفسكم . »

وظل الزعماء صامتين حتى أتى على نهاية حديثه . وعند ذلك اجابوه : انهم قدموا بلا انقطاع جميع ما فرض عليهم ، وانهم لا يزالون على استعداد لتأييد ابراهيم باشا اينما كان . الا انهم يرفضون تقديم الرجال ، وان نائب الملك احتل البلاد لا اهليها لتعبأ في جيوش منظمة .

لقد حزم الشعب امره ونوى على تقرير هذا المصير . بيد ان الزعماء لم يؤيدوا جميعاً هذا الرفض . وشاء الامير الكبير التوفيق بين الشعب وابراهيم باشا فبعث بمائة كيس زيادة عن الضريبة . فتلقى من ابراهيم باشا جواباً يدحض بـه حجج الجبل المخالفة لارادته .

وجه هذا الجواب الى بحري بك وهـذا هو : « قولوا للامير اذا كان بحاجة الى جنودي ، ليستطيع القيام بالتعبئة التي طلبتها منه ، فاني على استعداد الى توجيهها اليـه . واذا كان حضورها يحدث اثراً سيئاً فليدعُ الامير بنفسه الى التجنيد دون ان يجبر عليه احداً . »

ان هذه اللهجة المستغربة التي فاه بها القائد العام ، وخصوصاً بعد الحاحه في طلب تطوع عدد من رجال الجبل ، تحملنا على الاعتقاد بان ابراهيم باشا كان قلق البال ، منهمكاً . وسبب ذلك ، وهذا اول ما تبادر الى افكار اللبنانيين ، هو ما كانت تقوم به السلطنة من استعدادات ، وتأهبات لاستعادة سوريا التي كانوا

يظنونها هدفه الوحيد .

حافظ ابناء الجبل على كرامتهم الشخصية . كانوا يرون انفسهم حلفاء المصريين ويشعرون انه لا يمكنهم ان يضحوا باكثر مما قاموا به ليكونوا عند حسن ظنهم بهم ويكسبوا ثقتهم ... انهم لم يجردوا من سلاحهم الا عام ١٨٣٥ ، وليتنا ندري باية صورة !

اضطر ابراهيم باشا ، لحادث غير منتظر ، لان يتغيب ويكل الى اللبنانيين امر المحافظة على الاساكل ... ولما انبىء ان مؤامرات في الجبل يدبرها الدروز وفريق من المسيحيين ، لم يهدأ له بال الا بعد ان جرد اعداءه واصدقاءه من سلاحهم .

ولهذه الغاية انقض على دير القمر على رأس اثني عشر الف رجل تهافتت عليه من جهات مختلفة . ولكي يتأكد من نجاحه قام بعمله ذاك يوم الاحد ، حين كان المسيحيون يصلون في كنائسهم . اقفلت ابواب الكنائس واخرج منها الرجال واحداً واحداً ، واقتيدوا الى بيوتهم لانتزاع اسلحتهم .

ومن دير القمر التي لا يزيد عدد سكانها على اربعة الاف نسمة من دروز ومسيحيين ، وجهت الجواسيس الى الامكنة الاخرى فجرّدوا اهليها ايضاً . فآلم هذا الاسلوب الجائر اللبنانيين عامة ، والمسيحيين خاصة ، فاضمروا للمصريين حقداً لا يشفى له غليل ، بلْه الكراهية التي كان يلاقيها هؤلاء بوجه عام .

قرر ابناء الجبل ، اكثر من مرة ، اعلان الثورة . الا ان عدة نصائح (ولا اريد ان اطنب في مدح نفسي لانني أسديت قسماً كبيراً منها) قد ارجعتهم عن عزمهم وتصميمهم . كان يسعنا القول عنهم ، لو تمادوا في ضلالهم ، انهم يفتشون عن حتفهم ، ولكن الى م

قادهم بعد ذلك صبرهم ؟.. ففي تلك الحالة التي قلقت فيها الخواطر، كانت دعاية اي حزب كان، مهما ضعف شأنه، تفعل في الجيل فعل الكهرباء اذا ما سلطت على مادة قابلة الالتهاب.

وكان الامير بشير يشاطر رعيته عاطفتها هذه، ويضمر للمصريين البغضاء نفسها التي يضمرها لهم رجاله. بيد ان التجارب والاختبارات الواسعة ألزمته ان يكون حكماً لبقاً. كثر اعداؤه حتى ان قصره نفسه كان يضم عدداً كبيراً منهم يحصي عليه حركاته وسكناته. وهكذا لم يستطع ان يقوم بأي عمل كيلا يبحث عن حتفه بظلفه. فلو تقيّد الامير باوامر قائد الاسطول الانكليزي لكان قضي عليه منذ مدة طويلة، لان سلطة المصريين كانت لا تزال على اشدها في سوريا.

ان حياة الامير حياة عاصفة، واذا كان قد استطاع النجاة من الاخطار التي تعرض لها، فذلك يعود الى حذره الكبير. فالحكمة قضت على الامير بشير ان يكون باغياً ظالماً. لقد حكم في مرحلة من الزمن هي ادقّ مراحل تاريخ الجبل واصعبها. واما الذين ينعون عليه تصرفاته فهم اولئك الذين لا يعرفون موقفه حق المعرفة ويجهلون دياره.

الفصل الخامس والثلاثون

حكم امير الجبل . ادارة البلاد . حالة الزراعة .
دخل الامير . حالة الصناعة .

كان الامير يحكم الجبل كما يحكم الباشوات ولايات السلطنة العثمانية ، اي وفقاً للنظم نفسها وما ينتج عنها من مساوىء في التطبيق . فالانظمة الاساسية حَدّدتْ صلاحية كل ذي سلطة ، ولكن الحكام لا يقفون عند حدود سلطتهم ، فهم يفصلون في جميع القضايا ، دون ان يأبهوا للحق او يعيروا القضاة اصحاب الصلاحية اقل التفات .

كانت العدالة في الجبل بين يدي ثلاثة :

الامير وهو الحكم في الدعاوى الجنائية ، والقضايا التي لها ولو بعض الشأن .

والقضاة وهم يحكمون في الدعاوى المدنية .

والبطاركة الاربعة وهم يفصلون في القضايا الدينية والدعاوى الكنسية التي تنشأ عند الموارنة والروم والسريان والكاثوليك القاطنين جبل لبنان .

وبوجه عام يفصل هؤلاء السادة البطاركة في الدعاوى ، عندما يطلب اليهم ذلك ، بطريقة حبية ويرتضي المتخاصمان حكمهم .

اما القاضيان اللذان يفصلان في الدعاوى المدنية ، فاحدهما مسيحي (وهو مطران ماروني) ، والآخر درزي ، وهذان يستطيعان ان يحكما في جميع المنازعات التي ترفع اليهما دونما تفريق بين مختلف الملل والنحل .

واذا ما نشأت دعوى بين مسيحي ودرزي ، لها بعض الاهمية ، فالامير هو الذي يعين المحكمة التي تنظر فيها .

اما فيما عدا ذلك فكل شيخ يقوم في قريته بوظيفة قاض . ولما كان ابناء الجبل غير ميالين الى التنازع والتخاصم فالمحكمتان الكبيرتان قلما يرجع اليهما . وهناك امر لا بد من ذكره وهو ان لرعايا الامير حق الخيار في رفع شكواهم الى احدى محاكم طرابلس وبيروت ، اذا كانوا يقطنون احدى هاتين الولايتين .

اما القوانين والشرائع التي يحكم بموجبها وتفصل الدعاوى بناء على نصوصها ، فهي الشرائع الاسلامية . وسنرى ، عندما نتكلم عن العادات العامة ، من هم الامراء الذين كانوا يتغلبون بنفوذهم على الحق الصراح والمنطق الصحيح .

ولما كان الشرق لم يألف القيام باحصاءات صحيحة فقد كانوا يهتمون بعدّ البيوت ، واحصاء اسماء الذكور الذين يدفعون « الفريضة » فقط . وهذه الفريضة لم تكن تدل ، كما نرى ، الا على معلومات تقريبية . فالبلدان التركية هي الاماكن التي لا يعرف فيها شيء بصورة دقيقة . فبلادة الشرقيين وغفلتهم تثنيان عزمهم عندما تعترضهم اول صعوبة ولو كانت طفيفة .

ان الضرائب السنوية التي يؤديها ابناء الجبال هي فئتان : الاولى وتسمى مال الاعناق او « الفريضة » ، وهي تفرض على

الاعزب ، كل عام ، خمسة قروش ، وعلى المتزوج سبعة ، وتسعة على من يسكنون ضواحي بيروت . والثانية ، وتسمى الاموال الاميرية ، وهي الضرائب التي سبق لي ان تكلمت عنها آنفاً . انها تفرض على العقارات وفقاً لجدول يجدد تنظيمه في فترات غير معينة ، كخمس سنوات او عشر، او خمس عشرة سنة ، اي عند احتياج الحكومة الى المال .

فالملاك الذي يبلغ دخله زهاء الفي قرش يُقضى عليه بدفع ضريبة سنوية تساوي ثلاثين قرشاً . الا ان حاجة البلاد وبلص الباشا قد يحملان على مضاعفتها حتى تبلغ اضعاف الاضعاف . وعند ذاك يرفع المتكلفون الذين لم يألفوا هـذا الجور صوتهم عالياً ويصرخون . ثم يستسلمون مرغمين لهذه النكبات والبلايا . وفي وقت ما بلغت الضريبة التي فرضت على بزر دود القز (البزرية) ثلاثة قروش ونصف القرش عن كل اوقية . ثم ما لبثت ان ضوعفت.

اما الضرائب المفروضة على الاراضي الصالحة للزراعة فتدفع على الدرهم . والدرهم افتراض لقياس مساحة من الارض يبلغ بذارها مد قمح [1] . وبقدر جودة الارض تفرض عليها هـذه الدراهم ، فيدفع قرش واحد عن كل مساحة لا تقل عن السبعة دراهم ، ولا تتجاوز العشرين درهماً . وهذه الضريبة التي بلغت اليوم ثمانية اضعاف ما كانت عليه سابقاً ، قد استوفيت في بعض الاحوال والظروف ستة عشر ضعفاً .

ان ضريبة « البزرية » تجبى بهـذا الاسم ايضاً في ضواحي

[1] يزن تقريباً ٩ كيلوغرامات .

بيروت ، وهي تبلغ ما يقارب ٤٨٠٠٠ قرش . اما في لبنان فتسمى « الطرح » .

ليس مبلغ هذه الضرائب بالشيء الكثير بالنظر للملاك الذي يكفيه منتوج ارضه فلا يضطر الى الافتراضات الهدامة . ولكن الفقراء الذين لا يكفيهم ريع املاكهم يكادون يزحون تحت عبئها . ولهذا نراهم لا يكفون عن الصراخ والتذمر . وهم يجهلون ان الحالة التي هم فيها لا تزال مرضية اذا ما قابلنا بينهم وبين اهالي جزيرة قبرص وضفاف النيل الخصبة .

ان آل شهاب الذين خلفوا هنا آل روسلان الامراء الدروز ، ينعمون بامتياز يعفي من هم في خدمتهم من دفع ضرائب مال الاعناق والاموال الاميرية والبزوبة والسخرة .

اما الامراء والمشايخ الآخرون فلا يعفون من تأدية جميع ما ذكر بدون عوض ، فعليهم ان يقدموا عدداً كبيراً من الرجال والخيول حين يطلب منهم ذلك الامير الكبير عند الاضطرار . ان هؤلاء الاشخاص ينهجون في جميع تصرفاتهم المنهج الاقطاعي .

تفرض الاموال الاميرية وتوزع على جميع مقاطعات الدولة المختلفة . وكل امير او شيخ يكلف جبايتها في الاقطاعة الخاضعة له . ثم يرسل المبلغ المفروض الى بتدين[1] بعد ان يقتطع لنفسه قسماً منه بمعدل بارتين عن كل قرش (؟) ، او خمسة في المئة ، لسد نفقات الجباية ، والمصارفات ، والمبالغ الاضافية الخ... الخ...

١ محل سكن الامير بشير او قصره .

والاموال الاميرية ، وهي مجموع جميع الضرائب ، يمكن ان تفرض بمعدل يراوح بين الـ ١٥ والـ ٢٥ بالمائة تبعاً للمقاطعات والحاصلات . اما مجموع هذه الضرائب المباشرة وغير المباشرة فيبلغ حوالى الاثني عشر الف كيس (٢،٤٠٠،٠٠٠ فرنك) .

والضرائب لا توزع على الرعية بالسوية . هنالك اختلاف في كيفية فرضها ينتج عن العرف والعادة المحليين . فالمتن ، مثلاً ، لا يدفع الا بناء على تخمين الاراضي . ثم ان خمس قرى تخص امراء آل بللمع معفاة من دفع الضرائب . ومثل هذا الاعفاء تنعم به القرى الساحلية التي تخص الامير الكبير .

وفي الشويفات[1] (ومحصول هذا البلد من الزيت فحسب ، وهو يبلغ في السنة العادية ٢٠٠٠٠ قنطار) توزع الضريبة ايضاً تبعاً لقيمة الارض . وهي تراوح بين تسعة وثمانية عشر قرشاً عن كل قنطار . فالاهالي يدفعون قرشاً عن كل عشرين درهماً ، والملاكون الاجانب يؤدون قرشاً واحداً عن كل ١١ و ١٣ و ١٦ درهماً .

ونجد ايضاً في الجبال اراضي بائرة وعدداً كبيراً من الاهلين الفقراء الذين لا مورد لهم ، ويأكلون من عمل ايديهم .

١ ان الشويفات تذكرني بمصطفى بربر ، متسلم مدينة طرابلس قديماً . لجأ الى هذه القرية بعد ان غضبت عليه السلطة العليا ، ومقته الباب العالي لانه لم يحسن ان يخلق مشايعين يساعدونه ويساندونه . غادر هذا الحاكم القطون تاركاً وراءه ذكريات حلوة : كان قاسياً ولكنه عادل ، وفي عهده نعمت البلاد براحة تامة . ولما عجز عن تقديم براهين جديدة تدل على عدالته واستقامته قام باعمال تنبيء عن ضمير حي . وكان كثير الوساوس ، وقد رد لمن اعتقد انه ظلمهم قيمة الضرائب التي استوفاها منهم اثناء حكمه .

والاراضي تقسم ثلاث فئات : اراضي الامراء ورجال الاكليروس، واراضي المشايخ وبعض الفلاحين الميسورين ، واراضي الطبقة الاخيرة وهي دون تينك غنى وثروة . والفلاحون ، وهم الاكثرية الساحقة ، يعنون بحرث عقارات الطبقتين الاوليين واستثمارهـــا . ولذلك طريقتان :

الاولى ، وهي ان يأخذ الفلاح الذي يعتني بالارض جزءاً من غلتها بتعبه في سبيل عمارها واستثمارها . وها كم المثل : ان ثلاثين رطلاً من ورق التوت تعتبر « حملاً » ، وكل حمل يخمن بمبلغ خمسة قروش يعدها المالك لدى ابرام الاتفاق ، ويقدر القيمة المتوجب له قبضها . اما الفلاح فيتعهد له بدفع مصارفات حراثة الارض وتسميدها وجميع النفقات التي تتطلبها العناية بتربية دود القز في مقابل اخذ نصف الربع . وعندما تنتهي مدة الشركة يعاد تخمين احمال الورق، فاذا نقصت عن قيمتها الاولى يدفع الشريك العطل والضرر بمعدل خمسة بالمئة عن كل حمل ، واذا زادت فله قيمة تلك الزيادة بنفس المعدل . ونرى هنا ان مصلحة الفلاح تجبره على ان يعتني بالارض التي عهد بها اليه .

والطريقة الثانية هي ان لا يتقاضى الفلاح الا ربع الربع لقاء اتعابه ، وان لا يدفع الا قليلاً من المصارفات بمعدل قرش واحد عن كل حمل ورق . ولكن هذا الفلاح لا ينعم بحق الاستقرار في العقار ، فيمكن ان ينزع من يده عند انتهاء كل موسم .

ومهما يكن من امر فهذان الشريكان يجنيان عدة منافع اخرى . فورق التوت الذي ينبت في الصيف يكاد يفي بمصارفات حراثة الارض . واقد اصطلحوا على ان يتركوا للفلاح (الشريك)

اغصان الاشجار وجزوعهـــا الهرمة ، ومشاقة الحرير ، وقسماً من الشرانق غير الصـالحة (المو ّانة) . والشركاء يستفيدون من زيادة الحرير التي تفوق عادة القيمة التخمينية .

وللشركاء ايضاً نصف غلة البساتين والاشجار المثمرة ، فاذا كانوا يحسنون تعهدها كان لهم منها نفع غير يسير .

ان الطبقة الاخيرة من الملا ّكين ، اي طبقة الفلاحين الميسورين ، قلما تشرك احداً في اعمالها . فهم يستأجرون عمالاً واجراء عند قطف الشرانق ، من اولئك الفعلة الذين يقضون ثلاثة ارباع ايام حياتهم دون عمل ، مترقبين هذه الفترة – فترة تربية دود الحرير – التي تستخدم فيها اذرعهم وظهورهم . ان هؤلاء الناس هم اشد اللبنانيين بؤساً كما هم اكثرهم عدداً . فبينهم الرهبان ، والصناعيون ، والرعاة ، والفعلة ، والمكارون ، والحطابون الخ ...

تمشى الامراء ، وهذه الطبقة هي اغنى الطبقات من حيث املاكها ، على طريقة واحدة تنحصر في ان لا يتنازلوا لاي كان من الناس عن شبر واحد من املاكهم . وذلك ناشىء ، كما يرجح ، عن داع سياسي وهو الخوف من اضعاف نفوذهم : اولاً ، بهبتهم عقاراً الى الشعب ، ثانياً ، باضعاف خضوعه لهم ، وهو يرتكز على الحاجة المحلية في طلب العمل ليتمكن من ان يعيش .

اما رجال الاكليروس ، وهم جد حريصين على سلطانهم كالاشراف انفسهم وان تلفعوا بستار الفقر ، فيأبون دائماً ان يتنازلوا عن شيء من عقاراتهم التي حافظوا عليها بفضل عناية الامراء وتقوى الشعب وخضوعه وطاعته .

وهناك سبب آخر وهو ان هذه الاملاك لا تسخو النفس عنها

لجودتها وخصبها . انها لا تحتاج الا الى اليد العاملة التي لا بد منها لاستثمار هذه الارض . وهذه الايدي متوفرة لدى هذه الطبقة المعززة المكرّمة . ان قفيراً من الرهبان الاشداء ، وجميعهم من الشباب المفتولي الاذرع ، يعملون على انمائها عاماً بعد عام . ورؤساء الاديرة الذين يعجّ بهم الجبل يعرفون كيف يستفيدون منها ...

ولكن لماذا لا نزال نرى في الجبل اراضي بوراً ما دام في استطاعة مالكيها، اذا تنازلوا عن ربع دخلها ، ان يجعلوها صالحة للزراعة ؟

السبب بسيط جداً . لم يعتنَ بها لان القسم الكبير منها صخري ، صعبة حراثته ، حتى ان ربع ما ينتجه لا بل نصفه يصبح تافهاً متى حسمنا منه نفقات الحراثة ، وثمن السماد ، وبدل العناية . فالفلاح الذي اثقلت كاهله الديون تتضاعف ديونه اذ لا يسعه في السنوات الاولى ان يأتي عملاً غير الاهتمام بعقاره الجديد الذي استحدثه . وهنالك سبب آخر يحول دون الاهتمام والعناية بالاراضي الصالحة للتوت الذي تربّى على ورقه دودة القز ، او التي تصلح لزراعة القمح ، وذلك لانها عندما يغرس فيها التوت او يلقى فيها بذار الحنطة يفرض عليها الامراء ضرائب باهظة تكاد توازي دخلها . وهذا ما كان يحملهم على تركها بوراً خوفاً من ان يذهب تعبهم هباءً منثوراً ويضيعوا وقتهم فيها . وهكذا فقد الملاّكون اراضيهم لانهم لم يجدوا من يتعهدها .

ان السواد الاعظم من اهالي الجبل اناس فقراء لان الاراضي الصالحة للزراعة لا تكفي لسد حاجاتهم . ولما كان لا بد من سنة تجدب بها الارض ، كل سنتين او ثلاث سنوات ، فقد بيعت الحاجيات

الضرورية للمعيشة بثمن فاحش بعد ان احتكر باشا عكا الحبوب ، فاستدان الاهلون مبالغ باهظة . ثمّ ان المرابين « المحميين » من قبل[1] رجال الحكومة قد اضطروهم الى بيع محصولاتهم بثمن بخس ليستوفوا ديونهم والضرائب . عاملهم الجباة الظالمون بقساوة و كبّدوهم نفقات تفوق القيمة التي تتطلبها الخزينة .

وهنالك طريقة اخرى يمكننا القول انها منتشرة في الجبل كل الانتشار ولا يسلم منهـا احد في الجبل . تلك هي عادة استدانة المال . فهو يستدان اما لسدّ أود المديون بما يستدينه بالربى ، واما ليتعهد املاكه ويضاعف ريعها ثم يفي المبلغ الذي استدانه من غلة العام المقبل . فهذا الضرب من الاتجار اثرى منه تجار البلاد ، وافقر الاهالي من اميرهم الكبير حتى صعلوكهم الحقير ، لان السلفات التي حصلوا عليها ، سواء اكانت من المال ، او الامتعة ، او الحبوب ، كانت تضطرهم الى دفع فائدة تبلغ في ظاهرها عشرة بالمـــاية ، ولكنها كانت تعود على الدائنين بمقدار عشرين او ثلاثين بالماية ، متى نظرنا بعين المدقق الى المنافع الـتي كانوا يجنونها عنـد تخمين المحاصيل المدفوعة وفاء للدين .

وهذا العرف الفاسد ناشىء عن تخوّف الرجال الكبار مـن بلصات السلطات العليا ، وعن خشية الطبقة المرموقة بعض الشيء من زعمائها ، فـمى كل رجل وراء جمع كنز صغير يدفع منه ما يفتدي به روحه حين حلول حدث غير منتظر في بلاد كثرت فيها

[1] سبق لي ان تكلمت عن طبقة من الناس لا يقومون الا بمهمة تسليف الفلاحين المبالغ التي يحتاجون اليها ، بعد ان يلوذوا م برجل كبير يحميهم نفوذه وسلطـــانه عند الحاجة الماسة الى ذلك ، فتقصر يد الحكومة عنهم .

الاضطرابات والفتن والحوادث غير المنتظرة .

اما دخل الامير فاكثره من كراء الاراضي ، ومعادن الحديد ، والميزان ، والحرير ، والمصابن ، والجزية التي يدفعها النَّوَر ، والمكس المفروض على الغنم ، وضريبة الاملاك .

واذا نظرنا الى الاعمال الصناعية التي يتعاطاها اهالي لبنان فنجد انها تنحصر في اعمال غليظة سمجة . فاليد العاملة لم تشجع ولم تتناول اجراً كافياً . اتقنت المنسوجات الحريرية بعض الشيء ، الا ان الرواج الذي لاقته حرائر مصانع انكلترا بسبب تدني اسعارها ، قد قلل عدد المصانع العربية . فالاهالي يؤثرون شراء منتوجات البلدان الاخرى لان اثمانها الزهيدة تلائمهم . انهم لا يتقنون صنع شيء لانهم يفتشون عن الرخص ، ولا يعنيهم من الحاجيات الا ان تكون رخيصة .

ففي زوق مكايل تنسج العباءات ، وهي تعمل اما من القطن او الصوف او الحرير ، او مقصّبة ، فيراوح ثمن الواحدة من الخمسين قرشاً الى الالفي قرش .

ان الصاغة والحاكة والاسكافيين والخياطين والحدّادين والبنّائين والنجارين ، وبوجه عام ، جميع العمال يتقاضون أجراً لا يكاد يسد حاجاتهم . فاكبر اجر يتقاضاه العامل يبلغ فرنكين ونصف على الاكثر .

والكاس الذي يصنع في الجبل يباع لحساب الامير . واذا سمح لبعض الامراء او المشايخ ان يتعاطوا هذا العمل في محل اقامتهم فيكون ذلك مقابل ضريبة يدفعونها للامير .

ان مدينة دمشق ومدن الشاطىء الاخرى تنظر الى الجبل نظرة

بغيضة ، رغم انه كان في اوقات عديدة ملجأ لاهليها . فمن دمشق انطلقت الشرارة الاولى ، فكانت سبب الفتن التي حدثت مؤخراً في الجبل . تطاير ذلك القبس من سراي نجيب باشا ، فالتهمت ناره لبنان لانه كان سبب الحرب الاهلية فيه .

الفصل السادس والثلاثون

عادات امراء لبنان.

الاسر الاميرية في الجبل ثلاث : عائلة شهاب ، وبللمع ، وارسلان التي لا تنحدر من روسلان .

فاولى هذه العائلات عربية الاصل ، وهي تنحدّر من مخزوم ، وهو بطن من قريش اعتنق الدين الاسلامي . خاض ابنه عمر الحروب في سبيل النبي ، وخصوصاً حرب حمص ، فاستطاع ان يستولي على حوران ، ثم ما لبث ان عمّرها .

ويظهر ان اسم شهاب يرجع الى اسم القرية التي سكنتها هذه العائلة في تلك المقاطعة . ولا بدع فتسمية المرء باسم المحل الذي ولد فيه عادة مألوفة في الشرق . وقد جاء في ما كتبه الاب بلانشه اليسوعي ان اول بلدة نجدها في حوران هي شهبا المشهورة بآثارها الجميلة [1] .

وهذه البلدة التي نهبتها ودمرتها الحروب ، جلا سكانها عنها عام ٥٨٠ او ٥٨٨ هـ. الى وادي التيم ، بعد استنقاذها من الاوروبيين الذين كانوا آنذاك اسياد جميع الشاطىء السوري . وفي تلك الفترة من

١ حوليات مجمع انتشار الايمان ، رقم ٥٢ ، ص ٢٠ .

التاريخ حالفت عائلة شهاب عائلة معن الكردية الاصل . ولما انقرضت الاسرة المعنية حلت الاسرة الشهابية محلها في الحكم .

ان آل شهاب الذين لا يتزوجون الا بنات شهابيات ، اضطروا احياناً الى الزواج من السراري الكرجيات [1] ، او الشركسيات . وهكذا شيب الدم الشهابي ولم تحافظ على نقاوة هذه العائلة . ومنذ مدة غير بعيدة اخذوا يصاهرون عائلة بللمع .

اما تاريخ تنصّر الامير ملحم ، سميّ الامير الحالي وجده ، بفضل اهتمام البطريرك مخايل فاضل ، تلميذ روما ، وعنايته ، فيرجع الى حوالى مئة وعشرين عاماً . وقد تمكن هذا البطريرك [2] ، ولكن بدهاء ولباقة ، من استمالة الامير قاسم عمر ايضاً ، ابي بشير الحالي ، المعجب بالعقلية الاوروبية اذ قال له : « اذا كنتم تسلمون ان الاوروبيين متقفون الى هذا الحد فكيف يمكنكم الاعتقاد انهم اتبعوا ديناً وهم يجهلونه ؟ فاجابه من فوره : عمدني . »

ومنذ ذلك الوقت اضطر الامراء الى ان يحذروا الدروز والمسلمين ليستطيعوا ان يحافظوا على سلطتهم ونفوذهم . ولما كانوا مسيحيين في الباطن فقد عمّدوا اولادهم ، ثم ربوهم في الظاهر على الدين الاسلامي ، الامر الذي لم يستهجنه الدروز لانهم كانوا هم ايضاً يتظاهرون بالاسلام تقيّة . كان يكفيهم من هؤلاء الامراء

١ تزوج الامير الكبير في المرة الاولى من أحدى قريباته . اما في المرة الثانية فقد تزوج كرجية ، اشتراها من عبد القسطنطينية . ولقد اطنبوا كثيراً في الثناء على ذكائها ونقاوة قلبها ، وبنوع خاص على تقواها .

٢ يذكر لنا التاريخ اللبناني ان البطريرك يوسف اسطفان الغوسطاوي هو الذي عمد المير قاسم عمر ، لا البطريرك مخايل فاضل . — المعرب .

ان يدفنوا على الطريقة الدرزية . وهذا ما تعنيه تلك الكلمة الشائعة في لبنان وهي : ان امراء الجبل يولدون مسيحيين ، ويعيشون مسلمين ، ويموتون دروزاً .

ذات يوم سأل ابراهيم باشا ، بعد ان سمع هـذا الحديث ، وزير المالية المصرية بحري بك : واخيراً على اي دين هو الامير بشير ؟

فاجاب المسيحي الداهية : على دين مولانا المعظم . فـقـد رمز بجوابه هذا الى نائب الملك الذي لم يكن له دين خاص كما يقولون . فسكت الباشا مقتنعاً بالجواب لانه فهم معناه .

القائد المصري رجل يدهشك ذكاؤه ومعرفته الامور . فهو فطن الى ابعد مدى ، وذو ذاكرة عجيبة .

اما آل بللمع فكانوا مقدّمي المتن على عهد المعنيين . فاحدهم ، واسمه اسماعيل ، بعد ان ذبح ١٤ اميراً يمنياً في محاربتهم القيسيين ، اعطى نفسه لقب الامير وحافظ عليه . واسماعيل هذا كان آخر من نجا من اليمنية التي حكمت سيوفها في رقاب آل بللمع ، حتى كادت ان تفنيهم . وبقدر ما كان الامير اسماعيل شجاعاً كان قليل التبصر . وهذا الحادث يثبت ما نزعم .

تركه طبّاخه بعد خدمة طويلة ، وذهب الى مدينة بيروت التي ابصر فيها النور . فالتقى طبّاخ الامير هذا بدائنه القديم ، فطالبه بما له عليه من دين قديم . ولما ابى الدفع شكاه الى الحاكم ، فزجه في السجن . وصدف ان مرّ من هنالك رجل مـن عائلة الامير اسماعيل ، فاستغاث به الطباخ وطلب مساعدته لينجو مـن مأزقه . فتوسط له طالباً الافراج عنه . فرفض رجال الحاكم اخلاء سبيله .

فأدى ذلك الى جدال "سب" في اثنائه الامير اسماعيل . فاغتاظ الوسيط وأبى مواصلة عمله النبيل . وروى لسيده ، فور وصوله ، ما حدث وما سمعه من كلمات بذيئة الصقت بـــه . فدعا الامير اسماعيل رجاله في القرى الخاضعة له ، وامرهم ان يحضروا بين يديه في اليوم التالي ، ثم طلب في الوقت نفسه من ابن عمه الامير بشير ان يتهيأ على رأس سبعماية رجل ليرافقه عند ذهابه في اليوم الثالث .

وعندما وصل القرويون توجه اسماعيل الى ابن عمه بشير ، فاستغرب عند وصوله الا يرى رجاله على استعداد . فسأله بشير ان يتريث قليلا ليصبوا له بعض الشراب . كان بشير يعرف اخلاق اسماعيل الجموحة ، وقد شاء ان يحول دون هـذه الاعمال الجنونية التي يأتيها ابن عمه .

فقال اسماعيل عند ذاك ، وهو يرغي ويزبد من الغضب ، انه لم يأت ليترطب ، وانه يريد منه ان يقف على رأس رجاله ويمشي . فاصر بشير على رأيه ، وهو وجوب التزام السكينة والهدوء . فافرغ اسماعيل رصاص طبنجته في صدر ابن عمـه ، وواصل سيره حتى بلغ غابة الصنوبر التي تبعد مسافة ثلاثة ارباع الساعة عن بيروت ، فعسكر هناك برفقة الف ومئتي رجل .

ودعا اليه عائلة من « شركائه » اشتهر زعيمها بشجاعته . وبعد ان انتقى منهم ستة رجال اوفدهم الى المدينة ليبيتوا ليلتهم فيها ، ثم امرهم ان يتقدموا من باب المدينة المسمى باب السراي ، عنـــد منتصف الليل تماماً ، ويطلبوا المفتاح مـــن البواب ، فاذا رفض فليذبحوه ويفتحوا الباب .

ونفذت الخطة ، فطلبوا المفتاح من الحارس في الساعة المعينة ، فسلمهم اياه حينما هُدِّد بالقتل . وبهذه الحيلة او المغامرة تسلّل عدد كبير من رجال الامير الى السراي ، فاطلقوا سراح الطبّاخ بعد ان خلعوا باب السجن وقتلوا الذين شاؤوا ان يعترضوهم .

وفي غداة اليوم التالي كتب الامير الى سكان بيروت المسلمين يطلب اليهم ان يقدموا له من المؤن ما يستطيعون تقديمه . ولما درى الحاكم بما جرى سأل الاعيان الا يقدّموا له شيئاً . ولكن هؤلاء الذين يخشون سوء مصير املاكهم الكائنة خارج المدينة ، اضطروا الى ارضاء الامير اسماعيل فأمدوه بالمؤن . وهكذا بلغ اسماعيل ما صبا اليه .

ان مثل هذه الاعمال كانت مألوفة قديماً ، يوم كان حق القوي دائما هو الاقوى ، وهو فوق القوانين وما تفرضه من عقاب .

مات الامير اسماعيل عن ولدين : قايدبيه ومراد اللذين اقتسما فيما بينهما المقاطعة . اما تنصّر هذه العائلة فلم يحدث الا منذ حوالى اربعين عاماً .

ان اشهر الاسرة اللمعية اليوم هو الامير حيدر بن قايدبيه . فهو الذي حكم لبنان او حكم ، على الاقل ، شعبه المسيحي ، لان السلطة كان يمثلها قائم مقامان احدهما مسيحي والاخر درزي ، وهو من عائلة ارسلان .

تعرفت في فالوغا بابن الامير مراد ، وشدّ ما تأسفت عليه لانه كان رجلًا فذاً في بلاده . ان الافتقار الى الثقافة ، او على الاصح عدم توفر اقتباسها جعل هؤلاء الرجال يعيشون في شبه جهالة . فاذا اغتفرت الجهالة عند عامة الشعب فهي لا تغتفر عند من يحكمون

العباد ، وكيف يحكم الجاهل !

وهنالك عرفٌ تمشي عليها آل بللمع وآل شهاب ، وهو ان النساء لا يرثن من ازواجهن ، فلدى وفاتهم يرجعن الى بيوتهن مصطحبات ، كالدرزيات ، نقدهن ونقوطهن . ان هذا العرف مقتبس عن الدروز.

اما عند آل شهاب فترث الزوجة الثمن . واذا رزقت اولاداً فانها تتمتع بحق ادارة املاك زوجها . واكثر الاميرات يشترين عقارات بما يعطين من نقد ، وبما يقدم لهن من هدايا ، على اثر زفافهن ، فيؤمن بهذه الطريقة دخلاً يجنينه منها .

سبق لي ان تكلمت عن اشهر العائلات الدرزية في نهاية الفصل التاسع والعشرين .

قلت ان آل شهاب اعتنقوا الدين المسيحي ، الا ان واحداً منهم حافظ على الدين الاسلامي وهو الامير سليمان الذي يقطن الحدث . اما زوجته واولاده فهم مسيحيون .

عزز الدين الاسلامي جانب هذا الامير عند الباشوات الذين حكموا الولاية ، فكان دائماً على رأس جميع الاحزاب المعارضة في الجبل ، فحارب ابن عمه الامير بشيراً وطرده من البلاد ، وتولى حكمها حيناً من الزمن ، ولكنه لم يستطع المحافظة على كرسيه .

وفي العام ١٨٢٥ دفع غالياً ثمن هذا الشرف العابر . فبعد ان قبض عليه على اثر انهزام الشيخ بشير ، قطع لسانه وسملت عيناه بسفود . وهذا العقاب حل ايضـــاً ، كما سبق لي ان قلت ، باخيه الامير فارس وابن عمه الامير عباس ، شريكيه في تلك المؤامرة .

وعندما نمت الالسن استطاع هؤلاء الامراء الثلاثة ان يتكلموا . ووالى الحظ الامير سليمان وحده فسلمت له عين واحدة . امـــا

الاميران الآخران فهما ضريران لا يبصران . ان هذا العقـاب ، رغم وحشيته ، قد صادف قبولاً عند الكثـيرين . واذا امكن التغاضي عنه فذلك لان الامير لم ينزل بمنازعيه الا العقاب الذي كانوا عازمين على انزاله به لو انه وقع في قبضتهم .

تقسم حاشية الامراء فئتين : المشاة والخيالة . والمشاة لا يحق لهم التقدم على الخيالة .

يجب على كل شخص ، لا بل على كل امير من سائر العائلات الاخرى ، ان ينزل عن متن فرسه ويقبل يد الامير الشهابي اذا التقاه في الطريق .

كان بوسع امراء هذه العائلة ان يكونوا اكثر نفوذاً وقوة مما هم عليه الان ، فيهاب الجميع جانبهم حتى الباشوات ، لو لم تعمل روح الحسد والبغض والتفرقة فيهم عملها ، فيناهض بعضهم البعض الاخر .

فوالي عكا ، وهو الذي ينصب امراء الجبل ، كان يرغب في ان تستمر هذه المشادة بين المتزاحمين منهم ، ليتخذ منها حجة تمكنه من ارهاق جميع الاحزاب ، فيحافظ على سلطانه ، ويرغم الحاكم منهم على ان يبقى نوعاً ما تحت تصرفه المطلق .

كان الامير الكبير يبلص اولاد اخيه وابنـــاء عمه واقرباءه ليضعفهم مادياً ، ويستأصل او يخفف من حدة رغبتهم الملحّة في تقلد الحكم . ثم لم يكتف بذلك ، بل ادخل عرفاً مضراً صار فيما بعد شريعة تتبع . اجاز لاولاد كل امير (الذكور منهم) حين يبلغون المرحلة التي تراوح بين العاشرة والثانية عشرة من العمر ، ان يطالبوا بما يصيبون ارثاً من اموال ابائهم ، سواء اكانت ثابتة او منقولة .

وقد افقر هذا الاشتراع الغريب كل امير ، مهما كان غناه عظيماً .
فاذا رزق عدة اولاد ، كان يرى ثروته وآماله تنهار في وقت معاً . فالرجال الاشد امانة وولاء له كانوا يتركونه ليلتحقوا بابنائه الفتيان الذين يسهل عليهم توجيههم . ان تسلم هؤلاء الامراء الفتيان اموالهم درّ على من اتبعوهم كثيراً من الاموال . اما الامير الاب فقد قوّض بيته واصبح لا يملك شيئاً .

كذلك كان العرف في الجبل قبل وقوع الحوادث الاخيرة .
وبما انني أرى ان أجسم المصائب التي حلت بشعبه عامة ، وبعائلات الامراء خاصة ؛ قد قوضت كل شيء في هذا البلد الذي كان اكثر البلدان عدد سكان ، واهمها اعمالاً صناعية ، واوفرها ثروة في السلطنة العثمانية ، اقول ان نهاية هذه التعاسات لا يمكن ان تحدد ، فالايام وحدها هي التي تنبئنا عما تدبره من مصير لهذه الشعوب المسكينة ، واذ ذاك فقط نعلم أي العادات القديمة التي يجب ان يحافظ عليها ، وايها يجب ان تنبذ ، فالنكبات وان اوجعت فهي تعلم .

ان الشهابيين يتزوجون بنات عمومتهم . فعندما يولد امير في هذه العائلة يقدم له جميع الاقارب هدية من النقود يشتري له بها الاب املاكاً تسجل باسمه ، ولا يشاركه فيها احد . ثم ينفق ريعها السنوي على انمائها وازدهارها . هذه الهدية تسمى « نقوطاً » وهي متبعة ايضاً حين تزف احدى الاميرات . اما النقد فهو خاص بالمرأة .

يتألف جهاز الاميرات وحلاهن مما يأتي : قميص وسراويل من الحرير ، قفطان من الحرير موشى بالذهب ، وآخر من مخمل اسود

اللون ، او قرمزي فيه ضفائر واهداب مقصبة ، وهو مبطن بنسيج حريري مصبّغ او طريء مهدّل ، وكشمير للشتاء ، ومنديل حريري للصيف .

ان الجوارب القصيرة لا تلبس الا في فصل البرد ، وهي تكون حينذاك من القطن ، وتزدان بتدبيج مختلفة الوانه . وتضاف الى كل هذه ، البوابيج عندما تخرج العروس من بيت ابيها . اما حلية الرأس فطنطور مذهب مرصع بحجارة كريمة دقيقة تكون من الماس واللآلىء . وهذا الطنطور الذي يقوم مقام القبعة عندنا ، هو ذو رأس حاد يبلغ طوله حوالى السبعين سنتيمتراً . ان هذا الزي قد اضمحل من الجبل عندما قضت الحوادث الاخيرة بالغاء طناطير الاميرات ، وتيجان ازواجهن .

اما المنديل الذي يشد به الطنطور حول الرأس فهو مرصع باللآلىء ، تعلق في اطرافه نحو عشرين شريطة ، وفي رأس كل منها يعلق دينار او قطعة من الذهب .

وعلى جانبي الرأس صفيحتان من الذهب معلقتان بالطنطور تزينهما حجارة كريمة . تتدلى هاتان الصفيحتان على الصدغين ثم تشدّان حول العنق بشريطة . وتزدان كل من هاتين الصفيحتين بزهاء عشرين ديناراً ذهبياً .

والشعر الذي يتدلى على الوجنتين حتى يبلغ النهد ، تعلوه عشرات الاشرطة الموشاة بلآلىء جميلة شدت اطرافها على الرأس بشبه كلابة .

وهناك ازرار من الذهب (شعيرة) تتخلل شرائط اللآلىء التي كانوا يضيفون اليها سبع شرائط او ثماني مزدانة باللآلىء المنظومة

بسلك من الحرير الاسود . وهذه الشرائط تتدلى حتى آخر الشعر ، ثم تنتهي بطرّة تزينها لآلىء زجاجية ملونة ، او حجارة كريمة كالعقيق والمرجان والزمرد الخ ... وهي توضع في وسط الصفوف الملتوية التي تتألف منها الشرائط الاولى .

ونحيط بهاتين الحليتين سلسلة من الذهب مدرّجة وقد علّق في كل درجة منها دينار ذهبي من دنانير البندقية . ولما كانت هذه الدنانير لا تقل عن الاربعين عدّاً فقد كانت تبلغ الصدر .

اما الجبين فيعصب بخط من المسكوكات الذهبية المتلازّة جداً ، فتلي كل قطعة اختها مغطية ثلاثة ارباعها . وهكذا يبلغ عدد الدنانير ، في هذه الفسحة الضيقة ، من الخمسين الى الستين قطعة . ثم يضعون على منتصف الجبين حجراً من الماس يقف هنالك كالرقيب . ولهذا سمّاه اهل البلاد : « الناطور » .

ان صف المسكوكات يدعى « الصفيّة او الشكّة » وهي اول حلية تتحلى المرأة بها ، ولا تنتزعها ، اذا اضطرتها المصائب التي حلت بها ، قبل ان تبيع جميع حلاها ، فهي كالبيت الذي يقولون فيه : اول المقتنى وآخر المبيع . فالستّ تتخلى عن جميع الحلى الآنفة الذكر الا الصفيّة ، فهي لا تفارق رأسها ابداً مهما حدث . انها تأبى ان تؤلم شعرها وعينيها واسنانها لانها تحس ان رأسها يوجعها اذا فارقته هذه الحلية .

وفوق الجبين ، في وسط جميع هذه الحلى المذهبة ، يجب ان تكون زهرة واحدة من الماس ، على الاقل . واذا تيسر وجود الكثير منها فذلك يكون افضل لان العادة هنا لا تحدّد ابداً عدد المجوهرات . فالنساء يحملن منها كل ما يملكن ، فهن على الغالب

خزينة ازواجهن لانهن يتزينّ بجميع ما يملكن من ذهب .

ومن الضروري وجود عقد من الماس يلف ثلاث لفات حول العنق . وهذا العقد يتالف عادة من حوالى مئة وخمسين حجراً . وهنالك الاقراط التي تزين الاذن ، ويبلغ حجم كل قرط حجم قطعة من قطع الخمسة سنتيمات . اما شكله فمدوّر كالشمس ، وكل شعاع من اشعته مرصع بلؤلؤة ضخمة . ان هذه الحلقات كبيرة ثقيلة حتى انها لا تعلق في شحمة الاذن ، بل بسلاسل اعدت لذلك خلف الرأس .

ومن حلاهن ثلاثة ازواج من الاساور غليظة ثقيلة ، وخواتم من الماس او الياقوت او الزمرد ، تزين ثلاثاً من اصابعهن ، والابهام هي من الاصابع التي تحلّى .

تحمل الاميرات في رقابهن حُقتّينِ صغيرين من الذهب يحتويان على ذخائر معلقة بسلاسل ذهبية تتدلى من عند الساعة المعلقة فوق النهد ، حتى وسطهن .

ورغم هذا البذخ والاسراف نجد اسرّة الاميرات اشبه بمقاعد طويلة تطرح عليها الحصر ، ثم تفرش فوقها شراشف حريرية او قطنية ناعمة ، وتلقى عليها اربع وسائد من الحرير او القطن المطرز بالذهب ، وناموسية من الحرير .

ان الاميرة تتطيب كل مساء فتتضمخ بماء الورد وزهور البرتقال . وكبيرة الاميرات تنام دائماً قبل غيرها . تنزع نساؤها ثيابها ويلبسنها لباس الليل ، ذلك لان العرب سواء اكانوا اغنياء او فقراء ينامون مرتدين ثيابهم . والنساء اللواتي يضعن على رأسهن الطنطور لا يفارقنه في اية حالة من الاحوال حتى اذا اصبن

بمرض .

وللنساء عندهم زينة خاصة يتزين بهـــا ، قبل ان يستلقين في الفراش ، منها ان يزين رأسهن بكثير من الزهور ، كما انهن لا ينزعن المجوهرات التي تزين رأسهن .

الفصل السابع والثلاثون

تابع عادة امراء لبنان .

تعود الامراء والاميرات ان لا يلبسوا ثيابهم العادية الا مدة ثمانية ايام او عشرة على الاكثر ، ثم يهبونها الى رجال حاشيتهم فتكون بمثابة أجر لهم . فالقمصان والسراويل وجميع اصناف البياض حتى الشراشف لا تغسل ، بل تستبدل بغيرها عندما تصبح غير نظيفة .

كانت ملابسهم اليومية بسيطة . فهم لم يعرفوا البذخ في ما كانوا يرتدون من ثياب يومية . وهذه العادة التقليدية لم تلاحظ الا في قصر الامير الكبير . اما الامراء الاخرون فلم يفكروا في اتباعها نظراً لضيق اليد في الحالة الحاضرة .

تسنى لي ان اعود اميراً مريضاً فوجدته يدخن في سريره وفوقه ناموسية لم تغسل منذ امد بعيد . كان فراش سعادته مبسوطاً على مقعد في وسط الغرفة . ولما سألته عن سبب هذا الترتيب ، اجاب انه فعل ذلك لكي يحظى باكبر قسط ممكن من الطراوة والبرودة . كان الافضل ، اذن ، ان لا يختبيء تحت ناموسيته فيملأها دخاناً ويرفع بذلك درجة حرارته .

الامراء تُقبّل ايديهم ، والاميرات اللواتي هن من عائلة واحدة

يقبل بعضهن البعض الاخر، والزوجة تقبل زوجها .

تعيش الاميرات في قصورهن عيشة فراغ وبطالة، فلا ينشغلن الا بما ترويه لهن النساء الخفيفات الروح من اقاصيص واخبار طريفة، ونوادر ظريفة . لقد تعلمن القراءة والكتابة . وفي ذلك خروج على العرف العام الذي يمنع تثقيف النساء . وبعد، فماذا تنفع القراءة في بلاد لا جرائد فيها ولا مجلات ولا كتب ؟

انهن لا يقتنين الا الساعيات (كتاب صلوات) . اما معرفتهن الكتابة فتنفعهن في مخاطبة من استأجروا املاكهن . وهذا النوع من الكتابة لا يلذ ولا يمتع .

ولا يخرج الاميرات والامراء من السراي دون ان تحف بهم حاشية كبيرة، ولا يزورون من هم دونهم مرتبة ومقاماً . والنساء يمتطين الخيول كالرجال انفسهم، وحينذاك يسبقهن ويحيط بهن عدد كبير من المشاة ليعدوا لهن الطريق ويفسحوا المجال امامهن .

والذي حزّ في نفس الامير بشير وآلمه، وكان منه على مضض ابان الاحتلال المصري، هو اضطراره الى ترك مظاهر الابهة والعظمة . كان قد تعودها وربي عليها صغيراً، وكانت تليق به، ولكن اللياقة قضت عليه بتركها مجاملة لابراهيم باشا ذي العادات والمظاهر البسيطة . وهناك سببان حملا ابراهيم باشا على التخشن : الاول صحي، والثاني فطري يمليه عليه ذوقه .

ضحّى الامير بملابسه الفضفاضة، وعمامته الكبيرة، وجميع ما كان له من متاع يدل على عظمة حقيقية يتحلى بها امير كبير . واني لواثق من انه قد بدا له، حين اقلع عنها، انه فقد ثلثي سلطانه ونفوذه . فالرجل العادي الذي تعوّد رؤية الامير بشير بملابس

شخص ذي ابهة وجلال لا يحس بما كان يحس به من مهابة اذا ما التقاه مرتدياً هذه الثياب البسيطة . امـا عند المصريين فالامر بخلاف ذلك ، فالاونبـاشي يلبس البدلة التي يرتديها القائد العام . والشارات ، وحدها ، هي التي تدل على التفاوت في الدرجات .

احتار الامير بشير في بادىء الامر عندما اضطر الى اقتفاء اثر ابراهيم باشا . كان يهمه ان لا يجرح شعور القائد العام الذي اشتهر وعرف عنه انه ينفعل ويثور لاقل بادرة . ومن لا يذكر مصير المعلم غالي المؤلم ، مع ان منزلة هذا الرجل في مصر لم تكن دون مقام الامير بشير في لبنان !

كان الامير يشرب القهوة ذات ليلة بعد العشاء ، وهو غارق في تخيلاته وسط زوبعـة من دخان غليونه . وبينما هو يفكر بالدسائس التي تحاك ، ولا يمكن اي رجل ان يدرك ما تؤدي اليه نتائجها وعواقبها ، اذا هو يفاجأ بنبأ زيارة ابراهيم باشا له . نزل عليه هذا الخبر نزول الصاعقة لانه لم يكن يعرف القائد المصري بعدُ معرفة تمكنه من ادراك الغرض من هذه الزيارة . لقد ضعضعت اضطرابات الجبل الامير بشير واذلته حتى كادت تضطره الى ان يفتش عن عضد له بين الاجانب . كان يجهل تماماً انهم لا يزالون يقدرونه حق قدره ويعتبرونه مفتاح سوريا .

قال له ابراهيم باشا فور دخوله ، وكان غير متكلف في حديثه وهندامه ، انه اتى ليقضي السهرة عنده ليس الا . فأعرب له الامير عن سروره العظيم والشرف الذي اولاه اياه بهذه الزيارة . قال كل ذلك بتعابير فخمة ، واسلوب جبلي جذاب ، وتبجيلات وتفخيمات اعتقد انها تسر البطل الاغريقي .

وكان من حسن الحظ ان يجيد ابراهيم باشا العربية . انه لا يشارك اباه كراهية التحدث بهذه اللغة . ولولا ذلك لكانت المباحثات مملة قتالة ، ولانحصرت احاديث السهرة بالتبجيلات والتعظيمات او بنفثات من الدخان تتصاعد الى افق القاعة من كل جانب . ان تدخين الغليون يلعب دوراً هاماً في الاجتماعات الشرقية ، فاذا تعب المدخن من مج الدخان ينفخ في غليونه ، او تقطع غرغرة النارجيلة ، بين آونة واخرى ، سكينة تلك السهرات المملة .

ثم رأى الامير ان يرد الزيارة للباشا في مساء اليوم التالي ، رغم رؤيته اياه عدة مرات خلال النهار . ولما كان ابراهيم باشا لم يصطحب غير خادم واحد عندما زار الامير ، دالاً بذلك على مقدار تواضعه العميق ، او ليظهر ، على الارجح ، انه دون الامير قدراً ، فقد رأى الامير ان يذهب الى مخيم القائد المصري وحده .

وبعد ان قضى هنالك بعض الوقت ، هم بالرجوع الى مقره . ولما كان لم يتعود السير ماشياً منتعلاً خفاً (سكربينة) عثرت رجله ببعض الحجارة وعلق العوسج باذياله ، فسقط على الارض .

انطفأ المشعال الذي كان يحمله بيده ، فارتاب من كانوا يراقبونه في هذا الحادث ، وخافوا ان يكون قد اصابه سوء ، فانبأوا ابراهيم باشا بالامر ، فهرع القائد ليجد الامير الذي كان يفتش عن مشعاله وسكربينته .

٥

الامراء والاميرات يتناولون الشراب والقهوة قبل غيرهم . واذا ما التقى عدة امراء من مقام واحد وفي مكان واحد فالقهوة تقدم لهم جميعاً في وقت معاً . تلك هي العادة التركية . ويقف

الامراء علامة الاحترام لجميع الذين يقبلون ايديهم ، ما عدا العوام .

اما مآدبهم فصحية بسيطة . وترتب هكذا : يبدأ بتنظيف الحصير ، ثم تبسط فوقه قطعة من القماش الابيض مزركشة اطرافها وقد دبجت عليها عدة رسوم . ثم يضعون في الوسط اسكملة يبلغ علوها حوالى ٣٥ سنتيمتراً . ثم يؤتى بطبق مستدير من النحاس (الصدر) يراوح قطره بين المتر والمتر والنصف حسب عدد الآكلين . ثم يكدس الخبز على الشرشف بمقدار يزيد عشر مرات على الحاجة المطلوبة . وتلك عادة مرعية عند جميع العرب . وهي دليل الوفرة والسعة والكرم . ثم يملأ الطبق حالاً بقصع عديدة مختلفة الحجم ، والشكل والجنس ، محتوية على الطيور او اللحم ، وكثير من المقبلات التي تكون من الزيتون ، والسمك المكبوس بالخل ، واللبن . وأخيراً بقصعة كبيرة من الارز المفلفل . ثم توزع ملاعق خشبية عريضة مسطحة ليأكل الحاضرون من الارز واللبن . فتجول هذه الملاعق الغليظة ، كما يشتهي الآكل ، من صحن الى آخر . الجميع يتناولون ، بملء حريتهم ، ما يرغبون فيه من مختلف الصحون . ولا تكاد تفرغ تلك الصحون والقصاع حتى تملأ ثانية لحماً مشوياً وسلطة .

لا يضعون مع هذه الالوان من الاطعمة الا قليلاً من الجبن . وعندما يشبع المدعوون ينسحبون بنظام واحداً بعد واحد ، فيحل محلهم الخدام . واخيراً ينهض الامير فيقدمون له طستاً وابريقاً من النحاس ليغسل يديه اللتين تكونان بحاجة كبيرة الى ذلك ، لانهما قامتا مقام الشوكة والسكين والملعقة في تناول الطعام . وكثيراً ما يقدم الواحد من هؤلاء الى ضيفه قطعة من اللحم بعد ان يكون قد قضمها باسنانه . وهو لا يفعل ذلك الا برهاناً على

الاعزاز والمحبة العظيمين .

وعندما يغسل الجميع ايديهم يكرّون مرة ثانية على الطبق لتناول الحلويات وقوامها المربيات ، والثمار ، والمهلبية . وهذا اللون الاخير من الحلوى لا بد منه في كل مأدبة ذات شأن .

وفي اثناء تناول الطعام لا تصب الخمر ابداً . ولكنهم يشربون الماء من ابريق ذي انبوب يصب منه كل واحد في حلقه ما يريد من ماء ، مبعداً الانبوب عن شفتيه نحو عشرة سنتيمترات او عشرين سنتيمتراً او ثلاثين .

وبعد غسل الاصابع ثانية ومسح الفم يتربعون بشكل دائرة حول الامير ، ثم يشربون الخمر ويدخنون . وبعد انقضاء ربع ساعة ينسحب كل منهم بهدوء ، تاركاً الامير وحده . فيغتنم سعادته هذه الفرصة وينام [1] .

عندما تخرج الاميرات من دورهن تحدق بهن من الجانبين امرأتان تخالها دعامة لهن . وهاتان المرأتان هما الوصيفتان ، ولا عمل لهما غير المرافقة والتزيين والتجميل .

اما فيما يتعلق بمجالس الامراء ، فالمجاملات توجه الى اكبر الاسرة سناً ، وهو المكرّم قبل غيره . والامراء الباقون يقرّون له بهذه المكانة ويتخلون له عنها . فتقدم له المآكل والمشروبات قبل سواه . واذا ما اتفق وجود اثنين من سن واحدة ومرتبة واحدة ، فهنالك المشكلة العظمى لان كلاً منهما يضن بكرامته

[1] ذكرت الطعام على موائد الامراء لادل على انها لم تكن تتميز بشيء تقريباً عن مأدبة رجل ميسور بسيط .

ويأبى ان يمس شعوره ولو بعض الشيء .

واذا مات امير او اميرة من آل شهاب ، فالدروز يتولون مهمة دفنه او دفنها ، وان كان الامير او الاميرة مسيحيين . هذا تقليد يراعى حتى الآن . فالكهنة ينسحبون من جانب المحتضر ، فور انتهائهم من مهمتهم ، ليفسحوا للعقال في مجال حمله ودفنه في الرمس المخصص لابناء هذه العائلة . انهم يفعلون هذا تقيّة وحذراً من السلطة التركية ، فكأنهم يريدون بهذه الطريقة ان يحولوا دون تمكين الدروز والمسلمين من اثبات مسيحيتهم ، مع انه لا احد يجهل ذلك .

وهناك قضية جديرة حقاً بالتأمل والاستغراب ، وهي ان هؤلاء الامراء الذين أجلّ الاسلام اسلافهم واحترمهم (انهم يتحدرون من سلالة النبي نفسها) ، والذين جحدوا اسلامهم ، وجحودهم هذا معروف في ديوان القسطنطينية ، قد تمكنوا من المحافظة على امتيازاتهم القديمة ، وخصوصاً امتياز الحكم ، دون ان يستطيع الدروز ، رغم دهائهم ومظهرهم الاسلامي ، ان ينازعوهم هذا الحق .

شاء العرف قديماً ان يكون مأتم الامير او الاميرة من آل شهاب مأتماً فخماً ، فتستمر المناحة عدة ايام . وهذا تقليد للعادات العربية في الصحراء . كان يدعى الى المأتم امراء العائلة وابناء القرى المجاورة . وتستأجر النادبات البارزات مقابل اجر ضخم . فالبكاء والعويل واناشيد المديح التي تغنّى بلحن محزن كئيب ، هي المهمة التي تقوم بها هذه الجوقة على اتم وجه . وفي اوقات الاستراحة من الندب والعويل تمثّل بعض مشاهد من حياة الفقيد . كانوا يلبسون شخصاً من خشب أجمل ثياب الامير ، ويدججونه بالسلاح من قمة

رأسه حتى أخمص قدميه ، فيحضر هذه الحفلات وقد حف بـه عدد غفير من رجاله . يستعرض ، اذا جاز لي هذا التعبير ، جميع رجاله مسلحين ، فيمرون امامه اثنين اثنين ، تتبعهم جياده مجهزة بعدتها ، وقد جللت سروجها بقطع سوداء من القماش . ثم يحملون هذا الشخص على محمل ويطوفون به جميع انحاء القرية ، اما ليشهد قتالاً او سباق خيل ، وفي اكثر الاحيان ليحضر الولائم وتنـاول المرطبات ، وخصوصاً القهوة التي لا يستغنى عنها ... ان جميع هذه المشاهد كان يرافقها تفجع وصراخ حاد تتبـاري فيه النساء . ان هذه المآتم التي كانت تكلّف الاسر مبـالغ باهظة قد ادّت الى خراب العائلات . وكثيراً ما كانت تنتهي بمشاجرات دامية .

ادرك ذلك الامير بشير فالغى هذه التقاليد بعد موت اخيه ، منذ حوالى ثلاثين سنة تقريباً ، ولم يبق لها من اثر الا عند آل الخازن الذين يتحدرون ، حسبما يقولون ، من اصل شريف جداً . وهناك امراء آخرون ، لا يمتّون الى الامير الكبير بصلة قربى ، لا يزالون يرعون ايضاً هذه العادة القديمة .

لا يحدّ الامراء على احد ابناء عائلتهم اكثر من اربعين يوماً مهما كانت درجته ، او نسبة القربى التي تربطهم به . امـا حداد الاميرات فعلامته نزع بعض الحلى والمجوهرات التي تزين الرأس والعنق ، وخلع الملبوسات ذات الالوان الزاهيـة الزاهرة . واذا كان المتوفي اماً او اباً او زوجاً ، فانهن يرتدين قميصاً مصبوغاً باللون الازرق . اما سكان اقطـاعة المتوفي فيجبرون على لبس الثياب السوداء اللون ، ولا تستثنى من ذلك القمصان التي لا تخلع ولا تبدّل الا بعد انقضاء اربعين يوماً .

ان نفقات هذا الحداد تؤدّيها عائلة الامير المتوفي ، فترسل الى من شاركوها حدادها كل ما يلزم حتى الصابون ليغسلوا ثيابهم التي لبسوها بناء على رغبتها .

الفصل الثامن والثلاثون

اكليروس لبنان . الاكليروس الماروني ، والملكي ،
والارمني ، والسرياني الكاثوليكي .

يكثر الاكليروس في لبنان[1] نظراً لتعدّد الطوائف ، فمنها الموارنة ، والملكيّون ، والأرمن ، والسريان الكاثوليك . وعند الموارنة اكليروس علماني واكليروس قانوني (اي كهنة ورهبان) .

ان للموارنة بطريركاً واحداً وثلاثة عشر مطراناً وكلهم يقيمون في لبنان ما عدا مطران حلب . وللرهبانيات المارونية ثلاثة رؤساء عامين ، وثلاثة وستون ديراً منها احد عشر ديراً للراهبات .

يبلغ عدد الرهبان ما يقارب الألف والخمسماية راهب ، منهم ستماية قسيس ، والباقون اخوة . اما الراهبات فيبلغ عددهن زهاء الاربعمائة راهبة .

والرهبان يقسمون هكذا :

رهبان القديس انطونيوس	الف راهب ، واربعة عشرون ديراً
الحلبيون	ستون راهباً ، واربعة ديورة
رهبان القديس بنوى	ثلاثمائة راهب، واربعة عشر ديراً

[1] اعني البقعة التي يقطنهـا الموارنة ، وليس القسم الواقع بين نهري الدامور والمعاملتين .

والراهبات تابعات لرهبان مار انطونيوس . وهن متفرقات في ديورتهن المختلفة .

اما عدد الاكليروس العلماني فيبلغ حوالى الخمسماية .

كان يقيم بطريرك الروم الملكيين في لبنان ايضاً ، وكانت كرسيه في عين تراز[1] قبل الانفصال الذي حصل عام ١٨٣٠ ، هذا العمل العظيم الذي قام به الكونت جيامينو .

وللملكيين ستة مطارنة وسبعة عشر ديراً منها ثلاثة للراهبات . وليس عندهم سوى رهبانية واحدة هي رهبانية القديس باسيليوس . الا انه منذ تسع سنوات استقل الحلبيون منهم ، فالفوا رهبانية منفصلة واقتسموا الديورة ، فكان نصيبهم اربعة ديورة للرهبان ، ودير واحد للراهبات . وبلغ عدد رهبانهم مائتي راهب ، منهم خمسون راهباً حلبياً ، والباقون من لبنان والشام . اما الراهبات فيبلغ عددهن اربعين راهبة ، منهن خمس عشرة راهبة حلبية .

يقيم بطريرك الارمن في لبنان حيث يعاونه ، كما هي الحالة عند الروم ، ثلاثة مطارنة . وللارمن في لبنان ثلاثة ديورة منها اثنان كبيران يروّض فيهما المبتدئون ويدربون . ويقبلون ايضاً طلاباً داخليين ليتلقوا علوم الاكليروس العلماني . واكثر هؤلاء يأتون من القسطنطينية وسائر مدن المملكة العثمانية حيث لم يكن يتمتع الارمن هناك ، قبل عام ١٨٣٠ ، بحرية ممارسة

١ نعلم انه يقيم منذ عدة سنوات في مصر او القسطنطينية مناضلا في سبيل شعبه وحقوقه التي يحاول ان ينال منها بطريرك الروم . لا مجال للثناء على المونسنيور مظلوم ، فشهرته تغني عن تعداد الاعمال النبيلة التي اتاها .

شعائرهم الدينية ، بل كانوا تابعين لكهنة الروم الارثوذكس الذين يعمّدونهم ويباركون زواجهم ويدفنونهم . لقد قاسوا متاعب ومظالم الاتراك بحجج وذواع يحسن اعداؤهم اثارتها .

لا يتجاوز عدد الرهبان الأرمن التسعين راهباً . وهم متثقفون ومهذبون ، واكثر رهبان الجبل حكمة . واذا كانت الطوائف الاخرى قد اتت افعالاً عديدة كانت موضوع قيل وقال ، فالأرمن الذين تقيدوا بواجباتهم لم يسعوا الا في سبيل اجتذاب الناس او الفضيلة وحثهم عليها ، فاستحقوا لاجل ذلك تقدير المسيحيين . سلكوا حقاً مسالك مرسلينا ، وخصوصاً اولئك القدماء منهم الذين لم نزل نلمس آثار اعمالهم الطيبة في قلوب الجبليين المخلصين .

قد يحتمل ، بعد مرور مدة طويلة من الزمن ، ان ينسحب الارمن من هذه الديار ليقيموا في البلدان التي يسكنها اليوم ابناء ملتهم براحة واطمئنان .

اما البطريرك السرياني ، وهو يقيم في لبنان ايضاً ، فلا يملك فيه الا ديرين صغيرين . يفتقر هذا البطريرك الى رعية ليس لديه منها الا النزر اليسير . ولهذا انتقل الى حلب ليقيم بين شعب كبير ويكون على مقربة من البلدان التي يسكنها ابناء طائفته ، فيسهل عليه تدبيرهم اكثر مما يكون في لبنان البعيد عن حلب مسافة اثني عشر يوماً .

وهذا البطريرك ، وهو اكثر من عرفتهم في الشرق ثقافةً ، شاء ان ينشىء على مقربة منه المدرسة الاكليريكية التي اضطر الى تأسيسها في لبنان . ولكن رومة حالت دون فكرته هذه ، وحجتها في

ذلك ان الكاثوليك قد لاقوا كثيراً من المصاعب والبلايا في المدن التركية ، او لانها شاءت ان تبعد المبتدئين عن مدينة هي مكان للقداسة وبؤرة للفساد في وقت معاً .

واذا كان يجب على الاطباء ان يسكنوا البلدان الموبوءة ليعودوا مرضاهم بين آن وآخر ، فمن المتوجب على المونسنيور غباره [1] ، ان ينتقي مقراً اكثر ملاءمة لفضيلته في شفاء الامراض النفسانية ، وجراحات النفس ، ورد الضالين الى حضن الكنيسة الحقيقية بما أوتي من مقدرة خطابية ، وبلاغة ، وحجج دامغة .

فهذا الاسقف الذي وضع في لبنان ما كان الا سراجاً تحت مكيال . ففي حلب ، وحدها ، كان يمكنه القيام برسالته الدينية خير قيام ، داعياً الى الحظيرة الخراف الضالة . كان في وسعه ان يهدي الذين ينفصلون عنه ويفرّون الى المدن البعيدة ، ولا سيما بعد ان عينت فرنسا بعض القناصل في هذه البقعة من آسيا . فكم من شعوب لم يكن يعوقها عن اعتناق الدين الكاثوليكي الا تمكنها من الالتفاف حول رجل يقوم بحمايتها .

فحلب تستدعي وحدها ايفاد عدة مرسلين . وتوفيقهم هناك امر مؤكد اذا عرفوا ان يشفعوا محاسن ديانتهم بفضيلة التنفيس عن البؤساء والفقراء ومؤاساتهم . فالجهالة ليست ، وحدها ، سبب الجحود ، بل يضاف اليها فظاظة المسيحيين المعاندين الذين ترثي لهم الكنيسة ، ناهيك بان للفقر والبؤس يداً طولى في ذلك . وهنا على الاخص يجب ان نردد مع الشاعر :

[1] لعله جباره . – المعرب .

من يتدارك البؤس يتدارك غالباً وقوع الجريمة [1] .

اصبحت مدرسة السريان ، اليوم ، في دير الشرفة بعد ان هدم الدروز مدرسة مار افرام . ويدير هذه المدرسة مطران يعاونه ثلاثة رهبان .

ان بطريرك الموارنة الحالي هو من عائلة حبيش التي تنازع آل الخازن صولجان الاقدمية في النبل والشرف . لقد مرّ عهده البطريركي ، حتى يومنا هذا ، في مآزق حرجة جداً . فاذا ما قلنا انه قدر ان يحمي دائماً حقوق طائفته ويصونها في النكبات الجلى التي تعرضت لها ، فذلك يعني اننا وفيّناه ما يستحقه من الثناء ، وأشدنا بذكره كل الاشادة .

كانت علاقاتي مع هذا البطريرك كثيرة وعنيفة . وقد اسفت عندما اضطررت الى مغادرة بيروت ، بعد اقامة اربعة عشر عاماً فيها ، لانني لم احمل معي الى وطني ذكرى جميلة وعذبة عن علاقاتي مع بطريرك الموارنة الذي قمت نحوه ونحو رجال اكليروس شعبه بكل ما يجب عليّ .

وكيلا يخيل الى احد ان معارضة هذا البطريرك ناتجة عن قلة تعلقه بفرنسا ، فارى لزاماً عليّ ان اقول : ان جميع شؤون الجبل ، مهما كان نوعها ، ولا استثني منها شؤون الراهبات ، هي خاضعة لتأثيرات تسيّر من يعالجون تلك الشؤون في اتجاهات تختلف عن الاتجاهات التي تمليها عليهم طبيعتهم ويريدون ان يقوموا بها . فيجب علينا ، بناء على هذا ، ان نفتش عن اسباب تقوّض هذه التأثيرات

[1] دي ليل ، رجل الحقول .

وتشلها وتضعف مفعولها . وهذا يكون إما بان نسعى مباشرة مع من اوحوها ، او بان نتغلب عليها بوسائل هي اقوى منها واشد .

فهذه الآفة المسيطرة على الجبل هي التي جعلت شعوبه الكاثوليكية يرعون الى المجمع المقدس في قضاياهم ومشاكلهم . ولهذا المجمع ممثل في سوريا هو مسجل وقائع اكثر منه قاضياً .

المطارنة الموارنة هم بوجه عام غير ميسورين . ويمكنني ان اقول بهذه المناسبة انهم يتقيدون بنصوص مجمع قرطاجة الذي يفرض عليهم سكنى منزل صغير مؤثث باثاث بسيط رخيص الثمن . ان تقواهم وحياتهم الصالحة هما اللتان تولياتهم هذه المكانة والاحترام ، لا ثروتهم وجاههم .

ان ثقافة رجال الاكليروس في لبنان لم تتسع ولم تعمق ، بل لم تتحسن عما كانت عليه ، رغم احداث مدرستين عامتين قامت بانشائها بعض الاديرة بعد ان قضى مجمع روما المقدس على كل رئيس رهبانية ان ينشيء مدارس لرهبانه . بيد انه يجب القول ان الثقافة ، وان كانت محدودة اليوم ، فقد كانت اضعف منها واقل منذ خمسة عشر عاماً او عشرين .

فالعلوم التي تقتبس في الجبل تنحصر ، عند العامة من الناس ، في حفظهم التعليم المسيحي ومعرفتهم القراءة والكتابة بصورة آلية ، اي بدون تعلّم اي قاعدة . اما علوم رجال الاكليروس فتنحصر في معرفة قراءة اللغة السريانية دون ان يفهم معناها اكثر هؤلاء الرجال ، ثم حفظ بعض معلومات متفرقة في علم اللاهوت الادبي للقديس انطونيوس الذي ترجمه المجمع المقدس ترجمة سقيمة غير واضحة ، اضطرّتِ المعلمين في مواطن شتى الى الاستعانة

بترجمان او بمحل يشرح لهم بعض المقاطع . والحكـــاية الآتية تدلنا اصدق دلالة على ثقافة الرهبان :

وصلني الجزء السادس والاربعون من الجريدة الاسيوية ، فاطلعت عليه راهباً مارونياً ليقرأ فيه قصة القاضي محمد بن معيطل[1]. فابتدأ الراهب حالاً بقراءتها من آخرها[2] ، لان تلك القصة طبعت وفقاً للطريقة الفرنسية ، ثم واصل قراءتها دون ان يتوقف غير منتبه للتباين والتناقض الغريبين اللذين كان يلاقيهما عند انتقاله من صفحة الى اخرى .

واذا كان رجال الاكليروس يفتقرون الى السعة والانطلاق في التفكير ، فحياتهم العملية لا تفتقر الى شيء من ذلك . فالرهبان صناعيون الى حد بعيد ، وهم مثال العمل .

حضرت احتفالاً بقبول مبتدي، في الرهبانية ، ثم رأيته غداة اليوم الثاني ينوء بحمل حجر ضخم لينقله الى موقع عزموا ان يشيدوا فيه بناية جديدة . شدّ هذا الحمل الثقيل الى كتفي المبتـدي، فكاد يختفي تحت ذلك الحجر الكبير . فمن عادة الرهبان تكليف المبتدي، القيام باشق الاعمال واصعبها ، وعليه ان يلزم الصمت العنيف زهاء سنتين . وكل ذلك امتحاناً لصبره وطاعته .

ان الجبل مدين للرهبان في ازدهاره . وهم يكفون انفسهم بانفسهم . فبعضهم يرعون خارج الدير قطعاناً من الماعز والغنم ، وآخرون يزرعون ويحرثون بايديهم اراضيهم ، فتغل لهم قمحاً وشعيراً

١ ص ٢٠٦ .
٢ ص ٢١٩ .

وخضاراً . اما ضمن جدران الديورة فترى حبـــاكين واسكافيين وخياطين وبنائين ونجارين . فهم لا يحتاجون الى السوق لان لديهم جميع ما يحتاجون اليه . وهكذا ينمون عقـــاراتهم بما يفيض من ريعها . اما الهبات والنذورات التي تنهال عليهم من هنا وهناك فكثيرة جداً .

كان عدد رهبان مار انطونيوس عام ١٨٠٣ لا يتجاوز المئتين . اما اليوم فقد ازداد عددهم اربعة اضعاف ما كان عليه .

وللديورة حسنات جمة لا سيما ضيافتها جميع الذين يريدون ان ينزلوا فيها مدة ثلاثة ايام كاملة . وهي تقوم ايضاً بصدقات مستمرة ، فلا يدخلها رجل فقير الحال دون ان يزوّد بعدة ارغفة من الخبز تكفيه مؤونة يومين وان كانت صغيرة الحجم .

يعيش الرهبان عيشة تقشف وزهد . والنظام عندهم يطبق بصورة مثالية . وهؤلاء الرهبان الموارنة المنتمون الى القديس انطونيوس يعيشون ، نوعاً ما ، عيشة شبيهة بالتي عاشها ابو الرهبان الذي تنتمي رهبانيتهم اليه .

قال كاتب ، وهو على جانب من الصواب : « يتوهم البعض ان الفقر الذي نزل بهم من جراء اضطهادات الاتراك المتواصلة هو الذي اضطرهم الى العمل والعناية بالارض . ان الامر غير مـــا يتوهمون . ومردّ ذلك الى طريقة نظمهم الاولى ، لان النساك الاتقياء والمتعبدين قد تعودوا ان يشتغلوا اكثر بياض نهارهم ليكسبوا بعملهم اسباب الرزق ويتحاشوا البطالة التي هي حقاً منبع التجربة[1] . »

١ الاب دنديني ، رحلة الى لبنان ، ص ١٠٨ .

والذي يساعد ازدياد عدد الرهبان هو ان المسيحيين يصبحون في مأمن من تكاليف الحكومة واضطهادها اذا ما لبسوا مسوح الرهبان .

ان رهبان الروم الكاثوليك اقل تقشفاً من الرهبان الموارنة . فهم يأكلون اللحم ، ويدخنون ، ويعيشون على هواهم . اما في الثقافة فيلتقي هؤلاء واولئك على صعيد واحد .

قلت ان الارمن يهمهم اكثر من سواهم التقيد بتعاليم ديانتهم ، فهم يكدون ويجتهدون . وما من شك في انهم مدينون بذلك لاصلهم الشمالي .

ان اجمل الديورة المارونية في الجبل هو دير بكركي الذي اشتهر برئيسته هندية . اما اليوم فقد خلا من الراهبات . وقد اهتم « فولناي » وبعض سائحين آخرين بنقل تاريخ حياة هندية رئيسة ذلك الدير ، فاكتفيت بالاشارة .

اما دير اللويزة فقد اشتهر برحابته ، وغناه بالصور الزيتيـة . ودير مار يوسف البرج بني كله بمال احـد ملوك فرنسا الذي تبرع بتشييده ، ونقل اليه راهبات القلب المقدس المخصص لهن هذا الدير . فالكنيسة هي في شكلها نصف اوروبية ، ومذبحها من الرخام المختلف الالوان . وفوقه شعار من الرخام حفرت عليه هذه المخطوطة المكتوبة على لوحة زيتية :

Ex Lodovigi XV Galliarium Regis munifigeutia edfigium hoc erectum est A° 1769 .

اما المخطوطة الاخرى فقد كتبت بالعربية .

كان في حوزة رهبان دير اللويزة صورة الملك ، وقد وضعوها في

حجرة خاصة معدة لحفظ الذخائر . وهذه الحجرة كانت تضاء دائماً بقنديل كأنها احد المعابد . الا ان غفلة الاخ المكلف هذا الامر قد ادّت الى احتراقها ذات ليلة ، فذهب جميع ما يملكه الرهبان من آثار لقمة النار . انهم لا يزالون يأسفون ، بنوع خاص ، على خسارتهم تلك الصورة الملكية التاريخية . واذا زارهم ذو شأن ساروا به الى الغرفة التي كانت توضع فيها ، ورووا له تفاصيل الحريق الذي جرّ عليهم تلك الخسارة .

وهؤلاء الاباء الانقياء يقومون بصلاة خاصة لملك فرنسا . لقد امدهم بكثير من الاحسانات والتبرعات ، حتى انهم ظنوا انه لا يمكنهم ان يعربوا عن اعترافهم بجميله الا بطلبهم من الله ان يسبغ عليه وعلى ذريته احسن النعم .

اطلعوني في سجلهم على قرار مؤرخ في ٢٥ حزيران ١٧٥٠ يشير الى كتاب وجهه الوزير الى السفارة ، والى قناصل فرنسا في ازمير وحلب وطرابلس وصيدا والقاهرة ، ليعلمهم بان رغبة جلالته هي ان يعامل مفوضوه في الخارج رهبان القديس انطونيوس الذين هم تحت حمايته ، كما يعاملون المرسلين الرسوليين من رعاياه سواء بسواء ، وان يتلقوا مثلهم المساعدة والمعونة .

تشبه الطقوس المارونية الطقوس اللاتينية تقريباً ، اذا استثنينا بعض الاختلافات في خدمة القداس والتراتيل . اما الصوم فيذهبون فيه مذهب الكنيسة الشرقية ، ولكنهم استعاضوا عن السبت بالاربعاء . وهم ينقطعون في هذا النهار ونهار الجمعة عن اكل اللحم والبياض . ويصومون خمسة عشر يوماً قبل عيد الميلاد ، وخمسين يوماً قبل عيد الكبير . ولا يأكلون اللحوم والالبان والبيض مدة اربعة

ايام قبل عيد مار بطرس وبولس . ويعرف ذلك عندهم باسم «قطاعة الرسل» . ثم تأتي في شهر آب الايام التي يسمونها قطاعة السيدة ، وهي زهاء اسبوع . وبعد كل صيام يأكلون اللحم والبياض يومي الاربعاء والجمعة مدة تضاهي مدة كل صيام ، ويسمون ذلك «فسحة» .

لقد نبغ من الاكليروس الماروني رجال مشهورون امثال جبرائيل الصهيوني وجان هيرونيت (؟) الاستاذين والترجمانين على عهد الملك لويس الثاني عشر .

اما اليوم ففي اسبانيـا السيد ميشال قصيرو [1] ، وفي رومة الآباء السمعانيون اصحاب مؤلفات نفيسة . كان للموارنة في هذه المدينة مدرسة اكليريكية اسسها البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٨٤ ، وهم يتهمون الفرنسيين بمصادرة واردانها لدى غزوهم الولايات الرومانية [2] .

١ لعله يقصد ميخائيل الغزيري . — المعرب .

٢ فقرة اقتبست عن مذكرة مخطوطة كتبها والدي وقد توفي قنصلا في طرابلس.

الفصل التاسع والثلاثون

الارساليات الاوروبية في لبنان .

قلنا في اماكن شتى من هـــذا الكتاب ان بعض المرسلين الاوروبيين جاؤوا لبنان واستقروا فيه ليؤدوا رسالة ثقافية بين الشعوب المسيحية التي تسكنه .

اما المنافع التي جنتها هذه الطوائف من حلول هؤلاء المرسلين بين ظهرانيهم فمشهورة ملموسة . فاكثر هذه الطوائف ليس لديها من الكهنة الا عدد يسير جـدا ، وهي لا تستطيع ان تمارس طقسانها بحرية الا في اماكن مارونية بحتة .

فاللبنانيون كانوا يقدرون مرسلينـــا حق قدرهم حتى اخذوا يتلمسونهم وينشدونهم بلهفة اينما كانوا . ولما كان هؤلاء المرسلون بعيدي الهمة يواظبون على تأدية رسالتهم بامانة واخلاص ، فقد تمكنوا من استمالة الذين رغبوا فيهم ، واجتذبوهم نحوهم بما ابدوا من غيرة .

والمام هؤلاء المرسلين بالطب مهّد لهم سبل التقرب ، بادىء ذي بدء ، من الزعماء الدروز والمسلمين الذين كانوا يحكمون تلك البلاد . فما كادوا يستقرون فيها حتى شرعوا بتشييد « مرساليات » يحتاج اليها المؤمنون الذين سخّروا انفسهم لتشييدها . اما العمال

الذين كانوا يتقاضون اجراً فقد تبرع بدفعه لهم الامراء والموظفون عندهم .

ولا ارى ان اليسوعيين هم اول من قاموا بهذه الرسالة في لبنان ، وان كان مؤلف كتاب سوريا المقدسة ينبئنا بانهم حملوا الى الجبل ، عام ١٥٨١ ، قوانين مجمع ترانته . وبرهاني على ذلك هو ان مذكرات الارساليات الجديدة ، وقد كتبها اليسوعيون انفسهم ، تشير الى ان اول ارسالية يسوعية كانت في حلب ، وانهم اقاموا فيها عام ١٦٢٥ .

ان كتاب سوريا المقدسة المطبوع عام ١٦٦٠ ، يحدثنا ، فيما عدا ذلك ، حين يتكلم عن الكبوشيين ، عن ان مدينة بيروت كانت منذ مدة طويلة مركز اقامة هؤلاء[1] .

فانا اذن اميل الى الاعتقاد بان الكبوشيين هم اول من عرفوا في لبنان . ولقد تركوا فيه تذكارات لا تمحى ولا تنسى ، وشيدوا فيه عدة مآوى للفقراء . فمنها ما شيد في بيروت ، وفي غزير ، وفي صليما ، وفي عبيه[2] . وتاريخ انشاء جميع هذه المؤسسات يعود الى عهد قديم جداً .

أسس هذه الارسالية كبوشيو بريطانيا . وعلى اثر وفاة آخر رئيس لهم في عبيه شاء شيخ درزي ان يعرب علناً عن تقديره العظيم نظراً لما اشتهر عنه من فضيلة ، فقبّل يده عندما دخل

١ ص ١٣٦ .

٢ لا اذكر سوى بيوت البلد الذي اخذت على عاتقي وصفه ، دون ان اتناول البيوت التي شيدوها في سوريا .

الكنيسة المعروضة فيها الجثة ، ثم خاطبه بهذه الكلمات المؤثرة : « ان وفاتك لتحسد عليها ! » ثم حوّل نظره الى تلاميذه الذين تبعوه وقال لهم : « تعلمون سيرة حياة هذا القديس، فخذوها اذن نموذجاً لكم . » ثم هنأ الذين حضروا هذا المأتم بان يكون رئيسهم قد بلغ هذه الدرجة السامية من الاحترام .

ان هذا الراهب الشهير يدعى يواكيم ، وقد توفي في مستهل هذا القرن .

قلت فيما سبق ان المرسلين استقروا ، بادىء ذي بدء ، في البلدان التركية بوصفهم اطباء . والامم التي كانت تناهض اعمال هؤلاء المبشرين بالدين المسيحي وتقاومها لم تكن تراعي غير المنفعة التي يمكنها ان تجنيها ، ولم تكن تفكر قط بما يرمي اليه هؤلاء .

قام المرسلون بخدمات جلى في البلدان التي سكنوها . علمّوا فيها اصول الفنون الهامة . وكانوا رسل صلح وسلام ففكوا اكثر مشاكل المنازعات الداخلية . وهذا مـــا مكّنهم من ان يعيشوا نبلاء شرفاء ، لان الناس كانوا يعترفون بفضلهم دائماً . اما اليوم فقد تغيرت الحالة كل التغير .

ان الامور البشرية تتعرض لكثير من التقلبات . فالمهمة الاولى القديمة اخذت تخف وتتضاءل . والمرسلون الذين كانوا يقومون قديماً بكثير من الحسنات اصبحوا اليوم تقريباً غير مبـالين بكل ما له علاقة بالقضايا الدينية . لم يعد يهم احـــداً منهم الا منفعته الشخصية ومصلحته وراحته . واذا استمرت الحال على هذا المنوال اصبح المرسلون لا قيمة لهم ، لا بل يحقرون الامة في نظر الشرقيين الذين اخذوا يلومون بجرأة من كان على شاكلتهم من الكهنة ، ويقولون

علماً ان الديانة اضمحلت في اوروبا ، في هذا الزمن . ففتور المرسلين في تصرفاتهم ومسلكهم قضية غامضة . كانوا يلاقون قديماً كثيراً من المشقات ، فيقاومهم الملحدون والهراطقة والمنشقون عن الكنيسة . اما اليوم فتلك الكراهية التي تعرضوا لها قد ذهب الكثير منها . وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بمرارة بانهم اذا كانوا لم ينهضوا بالاعباء الملقاة على عاتقهم فذلك يعود الى ضعف في الايمان ، وفتور في الهمة لنصرة الله وسمو الديانة .

صحيح ان مصاعب وظروفاً عديدة مؤلمة قد حالت دون قدوم هؤلاء المرسلين الجدد . فقد اتوا ، وهم يجهلون اللغة العربية ، في زمن ليس الناس بحاجة اليهم ، فاذا بهم ، وهم محرومون اسباب العيش ، يستغيثون بالناس ليعيشوا . كان قد ضعف تعلق هؤلاء بهم ، ناهيك بان الاهلين قد اصبحوا فقراء بسبب بؤس البلاد وتعاستها .

ففي هذه الظروف الحرجة اوحت القدرة الالهية الى النفوس الكريمة في فرنسا بتأسيس معهد يعمل في سبيل انتشار الديانة . ان الله وحده يعلم كم آوى هذا المعهد من مسيحيين ، وكم ثبت من اناس في عقيدتهم ، وكم ضاعف عددهم بضمه الى الكنيسة اناساً ابعدتهم عنها ضلالات تعسة ، او اولاداً كانوا جد غرباء عن الدين .

فلهؤلاء ولامثالهم يقول ملاك السماء : ان السلام على الارض يكون لذوي الارادة الحسنة . فليفخر اذن هؤلاء المرسلون لانهم هم عزاء الجنس البشري ، وخشبة نجاة لعدد لا يحصى من البشر . ماذا اقول ؟ الوف وملايين من البشر ! المجد المجد لهم على الارض

وفي السماء ! وسوف لن يحرموا مكاناً الى جانب الذين كانوا على الارض مثلهم محبي الانسانية وناشري الايمان بهمة لا تعرف الملل .

واذا كنا نفتقر الى الكبوشيين الفرنسيين في سوريا ، فلا نزال نملك على الاقل الاباء اللعازاريين ، ابناء وطننا الذين استعادوا ارسالياتهم في عينطوره ، وقاموا باعمالهم المجدية ، فقدرها الناس جميعاً حق قدرها . اسسوا مدرسة كبيرة في ديرهم ، وهذا المعهد يزدهر ازدهاراً مطرداً . فاخرج عدداً لا يحصى من الشباب المثقف ومن مختلف الطوائف دونما نظر الى المعتقد .

فاللعازاريون او اليسوعيون الذين حلوا محلهم عام ١٧٨٣ ، يملكون منذ١٧٤٢ مدرسة في عينطوره اسسها احد وجهاء البلاد الاغنياء . ولكن انهزام مرسلينا عند نشوب الثورة افقدهم هذا المعهد ، وقد كنت على وشك استرداده عام ١٨٣٥ .

رضي الاباء اللعازاريون بالتخلي عنه اذ لم يكن في استطاعتهم ان يقوموا باعبائه وفقاً لنية مؤسسه ، ولكن السلطة الروحية المحلية رأت ان المصلحة تقضي عليها ان تستغل دخله وعائداته فاقامت بوجه مرسلينا مصاعب جمة ، فترك هؤلاء هذا المعهد وشأنه ولم يهتموا بعد ذاك الا بشؤون مدرستهم الخاصة . لم يكونوا يلتمسون ، للنهوض بها ، الا مساعدة السلطة الفرنسية التي لبت النداء بدون ابطاء او تقاعس . ولقد عاضدتُ انا شخصياً معهداً كهذا بجميع ما املك لاني عرفت ، بعد اختباري الطويل ، ان الثقافة هي اول ما تحتاج اليه هذه البلدان المنسية او المهملة .

انبأنا « فولناي » عن الصعوبات التي لاقاها مسيحي حلبي في سبيل

تعلم اصول اللغة العربية ، وخلق طريقة لتسهيل تعليمها لبني امته . ولقد تمكن من ان ينشر بينهم بعض كتب اصدرتها المطبعة في لبنان . غير ان هذه المؤلفات الروحية كانت غير كافية .

كثيراً ما كنت اناصر معهد عينطوره ، وكل معهد آخر يؤسس على طرازه ، حتى اني طالبت بصرف منح مالية لاولاد الفرنسيين الذين لا يتمكنون في سوريا من ان يتعلموا او يشغلوا وظيفه ما . وما كان يدفعني الى ذلك غير حبي الانسانية والوطن .

فهؤلاء الاولاد يجهلون لغتهم ، وسبب ذلك عدم وجود مرسلين وطنيين كاولئك الذين اهتموا قديماً ، في الاساكل ، بتربية الشبيبة . كان ذووهم بغنى عن المصارفات التي يضطرهم اليها ايفادهم الى فرنسا وهم عاجزون عن دفعها . فافرنسيو سوريا وقبرص والمقاطعات المجاورة يجدون في مدرسة عينطوره منفعتين : الاولى تربية اولادهم وتعلمهم لغتهم ، والثانية تهيئتهم لمناصب العملاء والسماسرة والمفوضين ، لانهم يتعلمون في هذه المدرسة اللغتين الفرنسية والطليانية . وهكذا يمكنهم ان يتفاوضوا مع الفرنسيين مباشرة ، بدلاً من ان يلجأوا الى التراجمة او يفهموا خطأ ما ينقل اليهم .

وعلى بضع خطوات مـــن مدرسة الاباء العازاريين يقوم دير الزيارة . وهذا هو الدير الوحيد الذي ينهج نهج الديورة الاوروبية . فالراهبات يعشن من ريع بعض عقارات تمكنّ من شرائها ، ومن مساعدات اخواتهن . ومن هذا الدخل استطعن ان يشيّدنَ كنيسة الدير الجميلة .

تبسط قنصلية فرنسا حمايتها على راهبات الجبل . وكم كنت اشعر بلذة حين اهتم بشؤون هؤلاء العاملات المنزويات عن العالم .

انه يرثي لهن في هذه الاصقاع لانهن يتعرضن لمتاعب لا يجدنها في اوروبا .

ان مقر القاصد الرسولي قريب من عينطوره . فهو يقع بين هذه القرية وبين زوق مكايل ، احدى قرى الجبل الاكثر اهلاً وغناء . وبيت القصادة الذي اسسه المونسنيور لوساتا ، وهو اليوم مطران بيالا في بيامون ، قد زاد من عمرانه المرحوم المونسنيور ده فاسيو المتوفي عـــام ١٨٤٠ . ثم خلفه المونسنيور اوفـاروني فاعرب كالذين تقدموه عن همة لا تعرف الملل ، ومقدرة بالغة في سبيل ازدهار اعمال الكرسي الرسولي المتعلقة بابرشيته في الشرق .

ومنذ حين مثل بلاط رومـة في سوريا المونسنيور جاندولفي الذي اتاحت له اقامته الطويلة [1] فرصة القيام بمهمته على اتم وجه . وظل يعمل مجاهداً في هذه البقعة حتى نال من البابا المكافأة التي استحقها عندما داهمه الموت .

ثم خلفه المطران لوساتا فلمع نجمه في لبنـــان نظراً لمعلوماته الواسعة واساليب تعليمه البارعة . ان شهرته سبقته اليه بصفتـه لاهوتياً عميقاً .

والمونسنيور اوفاروني الذي حل محله اشتهر بهمة لا تعرف الملل ، وتقوى حارة ، ومقدرة في علم اللاهوت عجيبة .

ذهب ، كما نعلم ، ضحية اندفاعه الذي لم يكن يعرف حدوداً . وبعد ان نقلت جثته الى ديار بكر ، استعادها اصدقاؤه وابوا ان يدفن الا في غزير من لبنان حيث قام هنالك برسالته الاخيرة

١ كان احد المرسلين الاول الذين اوفدوا الى تركيا فوصل الى ازمير عام ١٧٨٤ .

ولاقى نجاحاً كبيراً . ولما كانت اعمالي قد قضت عليّ ان اكون في حلب ، عندما حان وقت نقل جثمانه ، فقد قمت عند وصول الجثمان الى حلب بما امرتني به السلطة الفرنسية . فانتزعت يده اليمنى ، وبعض شعره ، وجزءاً من بطرشيله ونقلتها بنفسي ، عام ١٨٤٢ ، الى من يهمه امرها في فرساي .

عاد اليسوعيون الى سوريا منذ اثنتي عشرة سنة ، واسسوا ديرين في الجبل حيث لم يستقر احد من المرسلين . لقد ادوا رسالتهم في مقاطعات مختلفة . وهذا الاهتمام الذي حملهم على تجديد هذه المحاولات سيكلل لا محالة بالنجاح . انهم يهتمون اليوم بتشييد مدرسة للصناعة والفنون . ولا شك في انها ستكون ذات فائدة كبيرة .

جميل النظام الجديد الذي جعل فيه رئيس المجمع المقدس ، جميع المرسلين ، على اختلاف جمعياتهم ، خاضعين لسلطة القاصد الرسولي . فمقر هذا القاصد ملائم جداً لانه يقع في وسط سوريا . وهو يلائم ايضاً العلاقات التي تربط به البطاركة والمطارنة ورؤساء الرهبانيات المقيمين في لبنان ، ومدن سوريا المجاورة له .

الفصل الاربعون

تصرفات المصريين في سوريا . بضع كلمات عن محمد علي .

تنبأ السيد لامرتين عندما قـال منذ سنوات خلت : « غزا الاسكندر آسيا بثلاثين الف جندي اغريقي ومقدوني ، ودك ابراهيم باشا المملكة التركية بثلاثين او اربعين الف فتى مصري يعرفون كيف يحشون البندقية ويمشون مشية عسكرية . ان مغامراً اوروبياً يستطيع بسهولة ، اذا مـا اصطحب خمسة او ستة الاف جندي اوروبي ، ان يتغلب على ابراهيم باشا ... شرط الاعتماد على موارنة لبنان في اعمالهم الحربية [1] . »

وهذا بالواقع مـا حدث . تغافل السلطان عما يلاقيه الشعب السوري من اضطهاد ، فرمى بنفسه بين يدي محمد علي . كانوا يمتدحون محمد علي في سوريا ، اما في اوروبا فقد اثنوا عليه منذ امد بعيد ... استبدت دولة نائب الملك بهذا الشعب الذي حاول مراراً القاء نيره الثقيل ، فكان يتهافت على كل محرر يرجو عنده الخير . فالموارنة هم الذين هيأوا ، وحدهم ، او عجلوا دك النفوذ المصري . وذلـك امر طبيعي لسببين : الاول لانهم كانوا يريدون ان

[1] رحلة ، ج ٣ ، ص ٢٣ .

يستغفروا السلطان اذ اذنبوا في نظره عندما فتحوا ابواب سوريا بوجه ابراهيم باشا [1] ، والثاني لانهم كانوا يريدون ان يثأروا لانفسهم من المعاملات السيئة التي عاملهم بها حماتهم بعد ان ضحوا كل شيء في سبيلهم ...

قلت ان المسيحيين هم الذين ثاروا وحدهم على الوضع الحاضر ، ومع ذلك لا بد من القول ان الدروز ايضاً كانوا مضطهدين كالموارنة انفسهم حين فرض عليهم التجنيد ونزع سلاحهم . وزيادة على ما تقدم نقول : اذا كانت ثورة الدروز في « اللجاه » قد اقلقت الجيش المصري مدة عشرة اشهر كاملة ، واضطرت ابراهيم باشا الى ان يستقدم مصطفى باشا من « كانديا » مصطحباً الفي الباني ، وان يستنجد الموارنة لينتهي من حملة خطرة تقوم بها حفنة من الرجال تحصنت وراء صخور ، فهذه الثورة اقلقت ايضاً الى حد بعيد القائد العام ، واثارت بغضه للدروز . كان يجب عليه اذن ان لا يذال الموارنة ، الذين اخلصوا دائماً له ، ذلك البغض العام وتلك التدابير التي اتخذت تجاههم بعد ان اضطهدوا كفاية .

ولما كنت لا اكتب الا عن مدينة بيروت وقسم من لبنان فيجب عليّ ان لا اتناول في حديثي هنا الا الحكومة المصرية في علاقاتها مع الفرنسيين والاتراك وسكان لبنان .

اضطررت في غضون ثماني سنوات متواصلة ان ادفع واطالب . فبوسعي التأكيد انني اصبحت مطلعاً تمام الاطلاع على ما تكنه

[1] توجه الامير بشير بنفسه الى عكا ، فاستقبله ابراهيم باشا استقبال وجل خائف وابقاه قربه رهينة . فبقاء الامير بشير عند ابراهيم باشا يعني وضع سوريا بين يدي مصر .

لنا السلطات المصرية من شعور .

اما مشاكل لبنان فقد كانت دائماً موضوع اهتمامي ، وما من شك ان بوسعي ان احكم عليها حكماً صحيحاً ، لانني قمت اثناء الاحتلال المصري، عام ١٨٣٥ ، برحلة بين بيروت والقدس بطريق البر، ثم طفت عام ١٨٣٨ و ١٨٤٠ في البلدان الواقعة بين اللاذقية وحلب والبلدان الواقعة بين اللاذقية وانطاكية وحلب ، واثناء وجودي هناك وقعت معركة نيزيب الشهيرة التي ربحها المصريون واضطر القائدان التركيان ان ينسحبا على اثرها .

وبما ان في هذا الحديث خروجاً عن الموضوع فسأقف ههنا هنيهة لانقل ما كتبته في حلب بتاريخ ٣ حزيران عام ١٨٣٩ ، حول ما علمته عن حالة جيش السلطان وتهدم معنويات الجيش المصري .

قلت : « ان نتائج اصطدام هذين الجيشين تعود في رأيي الى القضاء والقدر ، وهي « قدرية » بحتة . » ولكي اعود الى موضوعي واثبت ما قلته عن الحكومة المصرية في معاملة المسلمين ، واوروبي بيروت ، والشعوب الاخرى القاطنة لبنان ، تلك الناحية المنوط بي الاهتمام بها ، فسأبدأ كلامي بذكر بعض معلومات عن الادارة المصرية التي هي ، في نظري ، اساس كل المساويء التي ظهرت . سأهتم بالتكلم عن المظالم التي ارتكبت ، وسأدون على حدة استغاثات الاوروبيين وسكان لبنان .

يعجبون في اوروبا بالدور الذي يلعبه محمد علي . ولهذا يعتقدون انه وهب مقدرة غريبة . بيد ان الواقع يدل على ان ما قام به في هذه البلدان كان طبيعياً . لقد قلد سابقيه واتبع اثرهم . الا انه

نعم بسعادة هي اكبر مما نعموا به . ولذلك نظروا اليه نظرة اعجاب .

جاء محمد علي الى مصر بعد ان قوض الفرنسيون سلطان المماليك ، فكان من السهل عليه اذن ان ينشىء فيها حكومة جديدة . انه زعيم حزب كبير ، ولم يكن يخشى يومذاك من منافس الا علي باشا الذي سموه « البرغل » لما اتصف به من البخل الشديد ، لانه لم يكن يطعم جنوده الا قمحاً مسلوقاً . وهكذا تذللت العقبات امام محمد علي فتغلب عليه .

واستغل محمد علي ضعف المملكة العثمانية وبعدها عن البلاد التي تسيطر عليها ، فوطد فيها نفوذه . كان يحفظ عن ظهر قلب ما قيل في مصر : « ان ارضها من ذهب ، ونيلها عجيب ، واثمارها لذيذة ، ونساؤها دمى يتمتع بها القوي . »

شرع محمد علي يعمل على انماء دخله ، فهو يعلم حق العلم انه الطريقة الوحيدة التي تحقق امانيه وتوصله الى ما يبتغيه . أولم يكن يعرف جيداً تاريخ الجزّار الذي استطاع بماله ان يصلح امره ويسهل جميع اعماله في القسطنطينية ؟

وعندما ادرك الغنى اراد ان يستغل ثروته . فكان من السهل عليه ان يعد جيشاً صغيراً في بلاد واسعة كمصر .

وهب محمد علي فكراً وقاداً وميلاً شديداً الى التجديد ، فطفق يدرب جنوده تدريباً اوروبياً ، متبعاً الاساليب الحديثة . فكان يستعرض ، على التوالي ، جيوشه ، ويقوم بعمليات حربية ، لا بل بحروب صغيرة يستحيل على الجيش العادي ان يقوم بها لما تتطلب من وحدة في العمل وانسجام في الحركة .

ثم رأى ان تكون له بوارج مسلحة ، فجهز بالسلاح جميع مراكبه حتى اصغرها . وليس هذا بغريب ، فكثيراً ما اتيح للباشوات والوجهاء الذين كان لهم بعض الشأن ان يجمعوا رجالاً ويعدوا بواخر حربية ، بقدر ما تسمح لهم اعمالهم وتمكنهم ثروتهم من ذلك .

وليس علينا الا ان نعرف الشرق لنعتقد ان محمد علي كان الرجل الوحيد الذي اعتمد هذين الاسلوبين ليوطد نفوذه [1] ، بل نقول انه عمل في نطاق اوسع من النطاق الذي عمل فيه سابقوه وبطريق اكثر جدوى ، فقد مكنه موقفه من الحصول على امكانيات لم يحصل عليها الغزاة الذين هم من الطبقة الثانية .

نعلم انه كان في حوزة جميع الباشوات جيوش يقومون بنفقاتها على حسابهم الخاص . فكانوا يشهرون الحروب فيما بينهم ، او يغزون البلدان التي يبتغونها دون ان يتمكن السلطان من ردعهم او قمعهم ، حتى اذا ما غضب جلالته بسطوا لاعتابه اسباباً مبررة لغزواتهم . واذا لم تقنعه براهينهم ولم تف حججهم بالمرام استعانوا بالمال الذي كان يفهم القسطنطينية كل غرض وينهي كل شيء .

كان تصرف الباشوات لا بل المقاطعين بوارج حربية يستخدمونها اينما شاؤوا ، ومتى شاؤوا ، امراً عادياً ينظر اليه الناس بلا عجب ، حتى انه كان في حوزة والي رودس سفن حربية ضخمة .

[1] زعموا ايضاً ان نائب الملك اخترع لباساً خاصاً لجنوده . انه لم يقلد الا بذلة البحارة العثمانيين التي كانت في الوقت نفسه بذلة جنود الجزائر .

وقد نقل السيد بوكافيل نموذجاً عن لباس الجندي المصري في مستهل كتابه الذي كتبه عن رحلته ، ونشره قبل الاصلاحات التي ادخلها محمد علي .

اشتهر محمد علي في سوريا بعظمته وعلى الاخص بكرمه . والكرم في الشرق صفة ملازمة للقوة والسلطان . وكان متسامحا الى حد بعيد ، حتى كان يعيش من يتزلف له في نعمة مثالية .

استهل المصريون مآثرهم الطيبة في غزوهم سوريا بعملين يدلان بالحقيقة على مدنيتها ، الا انهما حملا الشعوب السورية على التقزز نظراً لجهالتهم وتعصبهم . فالحانات فتحت ابوابها في المدن والجبال ، فعسكرت « العوالم » في مدخل المدينة ، وحول الطرق العامة التي يطرقها اكثر الناس ، فكان يقصد خيامهن من يجتذبهم هذا التجديد . اما الآخرون فكانوا يقتربون من انديتهن فقط ليسمعوا اصوات الموسيقى ، ويروا حركاتهن المطربة المغرية وهن يعملن . فهؤلاء الغانيات كن يرقصن بعض الاحيان ليجتذبن الهواة ، وكأنهن يقلن لهم : « ادخلوا ، لا تكتفوا بالترهات التي تجدونها عند الباب . »

فاباء العائلات الذين خافوا مغبة هذا العمل الذي أتى به الغزاة المصريون من ضفاف النيل ، سعوا خبثاً لدى السلطات لاقفال هذه البيوت . الا ان هؤلاء النساء أظهرن للملأ ما يحملن من رخص واجازات . وعند ذلك تساءل الناس عما اذا كان يجوز للحكومة ان تجيز مثل هذه الاعمال المخزية ، لا بل هذا الفجور .

سمحت لي الظروف ان اجيب ضابطاً مصرياً زعم انه يتشبه بنا نحن الفرنسيين في جميع ما يعمله ، فقلت له : « اشكر لك هذا الاطراء ، ولكن اعلم انك اذا قلدتنا فانما يكون ذلك على طريقة القرود التي تقوم دائماً باعمال مقلوبة رديئة . »

سبق لي ان تكلمت عن اتباع الفرنسيين عادات هذه البلاد وتقيدهم بها ، وعن السخط الذي يظهرونه لنا هنا اذا خالفنا

مصطلحهم وعاداتهم وتقاليدهم .

ما زلت عند رأيي في طريقة حكم محمد علي لسوريا . لقد عرفته عن كثب في جميع تصرفاته وفي جميع الاوقات التي بسط سلطانه خلالها على هذا القطر .

ان الشقة بعيدة بين ما رأيناه منه وبين ما كنا نأمل ان نراه . فالمصريون لم يهتموا الا بأساليب تنمية دخلهم ، ولم يلتفتوا قط الا لما تقضي به عليهم مصالحهم الخاصة ، غير ناظرين الى ما الحقوه من اضرار بالذين انتزعوا منهم جميع ما يملكونه ليتنعموا به .

ففي بلاد سخر فيها كل شيء لمطامع الحكام ، وضرب عرض الحائط بمبادىء الادارة ، وحقوق الشعب ، يكون لهذه الاجراءات في نفس من لم ينتظرها أبشع الاثر واسوأه .

فاكبر مساوىء هذه الحكومة هو انها لا تتمشى على قانون مقرر ، وان تكون مفتقرة الى بعد النظر . ولكن مهما يكن من امر ، فهذه البلاد لم تكن محكومة بطريقة افضل من هذه اثناء العهد العثماني ، فالدسائس هي التي لاقت نجاحاً اكثر مما لاقته قديماً .

كانت السلطة العليا تجهل اهمية المراقبة والمحاسبة ، وهذا عمل ضروري لا بد من تطبيقه على موظفين لا يعنيهم الا خدع رؤسائهم وسرق الرعية عندما تسنح الفرصة . واذا وجدنا اشخاصاً يخلصون لنائب الملك ولاولاده ، وبصورة خاصة ، لابراهيم باشا ، فهؤلاء هم الشراكسة والجيورجيون لانهم تربّوا جميعاً في سرايات مصر . وهؤلاء هم الذين بلغوا مراتب رفيعة في الجيش . وهم يؤلفون القوة المعنوية الحقيقية في الجيش المصري . اما فيما يتعلق بالطرق

والاساليب الحربية فجميعهم سواء . فهم لا يتدربون الا تدربا بسيطاً ، ويكون ذلك على الغالب مراضاة ومجاراة . فالشجاعة ، في عرفهم ، يجب ان لا تقيد في انطلاقها .

وهؤلاء الضباط يتزوجون جميعهم تقريباً من سراري يرسلهن اليهم الباشا ومعهن بائنتهن . وهذه مكافأة كبيرة ولفتة كريمة . وهم يطلقون على هذا الصهر في تركيا لقب « الداماد » .

كانت الحكومة ترتضي ، في وضعها الموقت ، بجميع العروض التي تجد فيها بعض المنفعة . وهذه السهولة في قضاء جميع الحاجات لم تبحث بطريقة جديّة ، فأدت بعض الاحيان الى اتخاذ اجراءات لا تتفق البتة مع مصالحها الحقيقية .

قبل ان السلطات المصرية لم تكن لتحمرّ خجلا من الوعد والتخلص منه ، وعدم الوفاء به ، لا بل انها كانت مثال الطيش والتقلب في الرأي . فما ان تصدر قراراً وتأمر بتنفيذه حتى ترجع عنه بعد بضعة ايام ، ثم لا يلبث ان يُنسى .

ان المحكمة (المجلس البلدي) التي انشأها المصريون لم تكن تعطي الحق صاحبه الا بعد وساطات فعالة . فاعضاؤها الذين لم يكونوا قط منصفين لم يعبأوا بقوانين العدالة الحقة ، واجترأوا على التلفظ باحكام جائرة، دون او يعوقهم عائق . كانت قاعدتهم الوحيدة هي الحكم في جميع الدعاوى التي فصل بها الديوان دونما نقض ، لكيلا يقال فيما بعد ان السلطة اخطأت في حكمها . اما فيما يتعلق بالعامة فهاكم الطريقة التي تمشي عليها المصريون : كان يربح دعواه من استطاع ان يؤيّد وقائعها باقوال شهود . امـا الحقيقة التي تفتقر الى شهود فـلا يلتفت اليها . فكيفية وقوع

القضية، والظروف الملابسة لها، والاستنتاجات الشخصية، هي امور تافهة في نظرهم ولا يؤبه لها. فالشكل عندهم هو اساس كل شيء.

ويزاد على ما تقدم ان الطريقة التي تتبعها الادارة المصرية تنحصر في عدم انهاء قضية، وعدم مراعاة أيّ كان، وتلافي اعطاء الاوامر الصريحة بجميع الطرق والاساليب، او التنحي عنها اذا ما اعطيت، وعدم الحاق أيّ ضرر بمصالح الخزينة مهما كلف الامر، ومسامحة موظفيها ومأموريها وحمايتهم.

ان الفوضى العظمى التي نتجت عن هذه الاساليب الادارية قد سببت مظالم تذمر منها ابناء البلاد ثم الاوروبيون. كان يهم السلطات الاستمرار عليها لانها كانت مورد ربح ملموس. فعند كل طلوع شمس كنا نجد تدبيراً ادارياً يخلق ويموت. والاجراءات، الاكثر ما تكون اهمية، لم تكن الا بنت يومها. وكثيراً ما اضطر القناصل الى ان يقفوا بوجه السلطة حينما كانت تضر او تتعب. وكثيراً ما كانوا يطالبون بعنف وشدة لكيما ينالوا حقوقهم.

فالضرر ناتج بوجه خاص عن ثقة محمد علي برجال يميلون بطبيعتهم الى الاذى، ومزيتهم الحميدة الوحيدة هي خيانتهم السلطان المعظم. فاكثر المتسلمين الذين عيّنوا في الاساكل حتى عام ١٨٣٧، لم يكونوا مصريين، اولم يروا مصر قط.

واذا كان نائب الملك يمتاز باسلوب خاص في حكمه او انه كان حليماً، بوجه عام، تجاه رعيته، ومتسامحاً متساهلاً لا يكره من لم يكونوا على دينه، فهذا الامر يجهله الحكام الذين نصّبهم كل الجهل. فولاة سوريا لم يكونوا صنيعة محمد علي،

ولم يتأثروا به في تفكيرهم او اساليبهم .

توالى في اثناء الاحتلال المصري اربعة حكام على مدينة بيروت لم نأسف على احد منهم الا على الحاكم المصري[1]. كانوا يحاولون ، وهذا ما يلامون عليه ، اذكاء نار التعصب ، هذا التعصب الراسخ في قلوب الاخصــاء ، والذي انتقل بسهولة الى الجنود لانهم لم يلمسوا روح التسامح والتساهل في رؤسائهم .

تساءل السيد ميشو ، عندما اطلع على عدة مؤلفات مطبوعة في القاهرة ، وبينها الموجز في اسلوب الرسائل ، وفيه حث على مناضلة الكافرين : « لماذ تصدر مطابع الباشا الآن (١٨٣١) هذه المؤلفات التي تحث على الحرب المقدسة ؟ »

وبعد ، فانه يحق للسيد ميشو ان يعجب ، ولكن لا ادري لماذا عزا الى محمد علي نية تحريض جنوده على الوهابيين ؟

ان الضباط الشراكسة يلتهبون تعصباً ، وهم اشبه منهم بغيرهم . اما الباقون فانهم يعيشون على هواهم لانهم من شاربي الكحول الكبار . ولهذا نستطيع القول ، مع الكونت ليفربول : « اذا لم تعلم الحضارة التي اتينا بها الى مصر غير شرب خمرتنا وعرقنا فانه نجاح باهر لصناعة المشروبات الفرنسية . »

ان الاحتكارات والضمانات شملت جميع الحاصلات والاعمــال الصناعية ، حتى ان رجلاً خفيف الروح صرخ ذات يوم ، على اثر مشادة حصلت بينه وبين عدة جباة : « سوف لن نستطيع عما قليل ان نتكلم دون ان نجد واحداً يطلب منا دفع ضريبة على الكلمات

[1] هو تركي او شركسي ربي في مصر .

التي تلفظنا بها . »

كانت قفة الارز تباع بتسعين قرشاً ، في بدء الاحتلال المصري ، ثم ما لبث ان ارتفع ثمنها الى مائة وثمانين قرشاً . احتكرته الحكومة في الاساكل لتبيعه من المستهلكين والذين يشترونه جملة في مصر بثمن فاحش .

كانت تزعم ، حين تحتكر الحبوب ، او تفرض ضرائب ضخمة على ما لا يوافقها احتكاره ، انها تضع بذلك حداً للتعديات والبلصات .

قدمتُ في بدء هذا الكتاب بياناً بالارباح التي جنتها السلطة من تأجيرها الضرائب على اختلاف انواعها ، فالتنافس في المزايدة بين الملتزمين قد ادّى الى خراب بيوتهم ، فاختلاسهم اموال الشعب بقحة متناهية . والاوروبيون انفسهم لم يستطيعوا التفلت من قبضة هؤلاء الا بعد مشادات عنيفة حصلت بينهم وبين القناصل .

وختاماً لهذه المعلومات التي تقدمت بها بصورة موجزة اقول اخيراً : لم تكن القوة المسلحة تتدخل في المنازعات العامة بقصد ان تحول دون وقوع الاضرار او تهدىء من روع المتخاصمين ، بل لتشترك هي شخصياً بالمعركة ، مستخدمة سلاحها ، ولا سيما اذا كان الخلاف بين المسلمين والمسيحيين والفرنسيين . فهؤلاء هم الذين كانوا يتلقون الضربات . لم تكن القوة المسلحة تحجم عن ان تفرض العقوبات اللازمة وتنفذها بنفسها .

الفصل الواحد والاربعون

معاملة المصريين للسلمين.

ان الغبطة التي شعر بها ابناء سوريا عندما احتل المصريون هذا البلد لم تعمر طويلا ، فهي لم تلبث ان زالت عندما ادركوا ان سيدهم الجديد لم يكن يهتم الا بمصالحه الشخصية ، وان سياسة عماله لا تقل ظلماً وتعسفاً عن سياسة الدولة التي ظنوا انهم لن يأسفوا عليها .

فشعوب سوريا لم تكن تتذمر الا من تعسفات باشوات الباب العالي ، واحتكارهم الحبوب ، وتسخيرهم الرعية ، وسواد الشعب ، او على الاقل ، الطبقة العامة من الناس التي تعيش من شغلها اليومي . ولم تشعر بثقل وطأة تلك المظالم الا بعد ان تألم منها الميسورون الذين كانوا عرضة لها اكثر من سواهم . ولما زال الفرح الذي ملأ قلوب السوريين عندما تقلص ظل الدولة ، حلت محله الكراهية للفاتحين فأضمروها لهؤلاء الذين ظنوا انهم محرروهم. وسنرى عما قريب ان الانقلاب الذي حصل لم يكن الا نتيجة دوافع قوية هامة .

فاثناء محاصرة عكا ، حين كان المصريون لا يحتلون الا بعض اساكل سوريا الجنوبية ، ألغيت ضريبة الحبوب التي كان عبدالله باشا قد فرضها . فكان هذا الالغاء سبب ارتياح عام ، فاطمأن

الاهلون الى مصيرهم لان هـذه الضريبة كانت توازي خمس القيمة الحقيقية ، وقد تبلغ احياناً ربعها . ولكن هذه الضريبة ظلت مفروضة على الحبوب التي تستورد من الخارج . ثم ما لبثت الدولة المصرية ان فرضتها ثانية على جميع الحبوب والطحين ، سواء أكانت من انتاج البلاد او كانت مستوردة من غيرها ، ثم خفضتها بعد حين فاستوفت نصفها فقط .

و « الفردة » كانت اول ضريبة فرضت على الاهلين عموماً ، فاحدثت استياءً عاماً . ولم يغفر المسلمون لنائب الملك خطيئة المساواة بينهم وبين المسيحيين .

لم تجرح الفردة كبرياء مشايخ الاسلام وعاطفتهم فحسب ، بل الحقت بهم اضراراً بالغة من جرّاء كيفية جبايتها . كانت هذه الضريبة ثقيلة الوطأة على الفقراء والعمال ، لا بل على الاغنياء انفسهم ، اذ كان على المستطيعين ان يسدّدوا الرصيد المطلوب اذا ما نقص منه شيء . احصوا الناس جميعاً وجعلوهم فئات . وابتدأت الضريبة بخمسة عشر قرشاً وانتهت بخمسماية . واذا لم تف هذه الطريقة بالمرام جعلوهـا على مجموع المتكلفين وقالوا لاعيان كل شعب : « انكم تعدون كذا ، فيجب ان تدفعوا كذا ، فدبروا الامر بانفسكم لان صاحب البيت ادرى بالذي فيه . » فقضى هذا الاسلوب على العمال بدفع اكثر مما يستطيعون لانه لا بد من جباية الكمية المطلوبة . لم يدفع الاغنياء اكثر من خمسماية قرش . وهذا هو الحد الاقصى لما يدفعه الفرد . وهكذا عمّت الضريبة جميع الطبقات ، فكان يدفع الفقير من اربعين الى خمسين قرشاً . اما ما بقي من رصيد هذه الضريبة فعلى الميسورين تسديده .

عرفت اوروبا قديماً اب العائلة الذي كان يدفع ضريبة الفردة عن اولاده الثلاثة ، او الاربعة ، ويجبر على الدفع عنهم ولو ماتوا ميتة طبيعية ، او صرعوا في حرب ، او كانوا بعيدين يحاربون في بلدان قصية [1] .

فالمكلف لا يموت فعلاً في نظر الحكومة المصرية ، الا بعد انقضاء سنتين او ثلاث على موته الحقيقي . ناهيك بانه لا يستطيع ان يموت الا اذا ارادت السلطة فاصدرت بذلك المراسيم التي يقتضي اصدارها وقتاً طويلاً . فشعار الحكومة هنا : العجلة من الشيطان .

ذكر السيد بوجولا ، في هذه المناسبة ، مصيبة اخرى اتى بها محمد علي من مصر الى سوريا : « اذا قلّت موارد القرية واصبحت لا تستطيع ان تقوم بدفع الضرائب ، بسبب جفاف الموسم وانتشار وباء الطاعون ، والتجنيد الذي يستأثر بالايادي العاملة ، فعلى القرية المجاورة لها ان تؤدي تلك الضرائب عنها ، واذا عجزت هذه الاخيرة بدورها فعلى جارتها الاخرى ، وان عجزت القرى جميعاً فالمدينة ، واخيراً الولاية . ان هذا التضامن بين الشعوب في سبيل انعاش الخزينة هو اختراع مخيف كان يصعب علينا تصديقه لو لم نشاهد بام اعيننا هذه الحقيقة المؤلمة . »

رأيت بعيني تنفيذ هذا القانون في ولاية حلب ، فترك الفلاحون مواشيهم وتخلوا عن مزروعاتهم . وقد اضطر بعض الاشخاص ، في اللاذقية ، الى بيع بناتهم . لم يصدق بعض القناصل هذه الاخبار ، ولكنها ثبتت لهم اخيراً .

١ السيد بوجولا ، الصحافة الدورية .

وما انتهت جباية ضريبة الفردة حتى تبعها جمع السلاح ، فكان سبب عدة مظالم . لم يجرؤ احد على القول بان لا سلاح لديه ، فاليهود وبعض المسيحيين الذين لا سلاح عندهم اضطروا الى شرائها وتقديمها ليبرهنوا للسلطة انها لم تخطىء في رأيها .

استذلت الحكومة المصرية ، بهذه المناسبة ، مسلمي بيروت حين عهدت بجمع اسلحتهم الى الامير امين المشهور بمسيحيته . فآلمهم هذا العمل وعدّوه جناية لا تغتفر .

ومع ذلك لم يكن هذا التصرف ابشع ما نزل بهم . فذات يوم ، يوم جمعة ، بينما كان المسلمون يقيمون صلاة الظهر ، طوقت الجوامع شراذم من الجنود وقبضت على جميع المسلمين دونما تفريق بين اسنانهم ، واقتادتهم الى السرايا .

وهكذا قبض على جميع المسلمين ، ثم دعي الاطبـــاء فباشروا معاينتهم . فما خرج مـن ذلك الحصار غير المعوّهين او المصابـين بامراض مزمنة .

ففي كل سنة كانت تنزل بالشعب الاسلامي في بيروت كارثة كهذه ، حتى امست الاعياد الاسلامية مدعاة خشية وهلع ، فيتدبرها كل شخص بالفرار خوفاً من ان يقبض عليه ويساق الى الجبهة سوق النعاج . انـــه لا يسعنا ان نصف اضطراب هؤلاء الاهالي البؤساء في هذه الفترات الرهيبة ، فجميعهم يتراكضون ويتسابقون الى اولياء الامر حيث تقضى الخدمة لقاء دفع مبلغ مـن المال . وقد لا يكفي ذلك فيضطر الرجل الى شراء نفسه مرة ومرتين ، ولا بد له من ان يلجأ الى كنف اشخاص عديدين ذوي نفوذ ليكون اكثر اطمئناناً .

كان التجنيد سبب الوف من الرزايا . فالعائلات كانت تفقد اعز اعضائها إما بانتزاعهم قسراً من بينها ، او بالفرار والتواري من وجه السلطة . كانت الاسرة معرضة لاعمال عنيفة جداً تعاني بسببها مخاوف عظيمة ، وتصعد تأوهات طويلة كلما تذكرت نكبتها . فهي لا تعرف الامن والاستقرار . فالدولة لم تكن تتأخر عن القبض على فريستها ، وان ظنت هذه الفريسة انها نجت لانها دفعت مبلغاً لرجل ما . كان التجنيد شر الوسائل لانقال كاهل الشعب المسكين وارهاقه . فلا يكاد المال يدفع لمشايخ الاحياء والضباط والاطباء ، ليعفوا اشخاصاً من الجندية ، حتى تهب السلطة متحرية حين يبلغها الخبر . بيد ان الاساليب الفعالة كانت تنقصها . فالموظفون الذين ارتشوا كانوا يستميلون اليهم رؤساءهم . وهكذا كانت تظل الاجراءات الاكثر حكمة بدون مفعول .

فجشع الموظفين الضروري تذليله كان يزداد شيئاً فشيئاً . مشوا على طريقة واحدة واعتبروا ان الحق للقوي . ولهذا كان المال اجدى الاساليب . فهو الذي يوصل وحده الى النتيجة المرجوة . فقدت الارامل والايتام عضدهم الوحيد ، فاهملت الاعمال الصناعية وبقيت الحقول جرداء لا تحرث ، واقفرت القرى ، وكل ذلك لاجل تجنيد بضع مئات من الناس يتأوهون تحت سلاحهم الثقيل لانهم اجبروا على القتال مكرهين .

ويا ليتنا نرى العناية بهؤلاء الجنود ! كانوا ينقلونهم الى المستشفيات خوفاً من ان يموتوا في ثكناتهم . علمت من عدة اطباء ان الحكومة المصرية لم تكن تحسن خدمة هؤلاء . فالمرضى المكدسون في حجر ، ابوابها كوى صغيرة ضيقة ، كانوا ينتظرون شفاء لا

رجاء فيه . كان أملهم الوحيد ببنيتهم القوية او احدى الفرص المؤاتية . فالعلاجات لم تستعمل ، وكثرة المرضى لم تكن تسمح دائماً بالقيام بتعليمات الاطباء .

ان التعليمات منعت من هم في طور النقاهة عن اكل اللحوم . وهكذا يجب ان يشفوا اذا كان الله قد منّ عليهم بقوة بدنية .

لم تكن الدولة تجهل ذلك . كان يتوجب عليها ان تستعلم عن الانظمة وتأمر بتبديلها ولا ترتضي ابداً ادارة باغية كهذه . كانت تقضي فقط بالحكم على المذنبين الذين تتمكن من القبض عليهم ، بارسالهم الى لومانات عكا او ابي قير تبعاً لخطورة الجريمة . فكل ما انشأه المصريون ليس سوى خيال للاعمال التي كان يتوجب عليهم ان يقوموا بها ويمثلونها .

زعم ابراهيم باشا ، وكان بوسعه ان يكون رجلاً ادارياً اكثر منه عسكرياً ، انه كان يهتم بادارة جميع شؤون الحكم . اجل ، كان يدير كل شيء بنية طيبة . الا انه كان يفتقر الى اساليب مجدية ، فكل شيء كان يسير من سيء الى اسوإ رغم تخوف مأموريه منه ومحبة جيشه له لان لاسمه شيئاً من تأثير السحر .

قلت له ذات يوم : انه كان له ان يستفيد من امثولة عبدالله باشا ، وان الرجال الذين استخدمهم والمبالغ التي اضاعها في سوريا كانت كافية لازدهار مصر ورفاهيتها ، وان مصر هي اكثر البلدان غنى ، وحكمه يثبت فيها اكثر منه في جميع البلدان التي يحاول امتلاكها .

تبين لي انه فهم ما قلته له تماماً ، وكان يود لو يقول لي : اني كنت على صواب ، ولكن تلك مشيئة القدر .

ان التضحيات التي قام بها المصريون في سوريا كثيرة لا تحصى ، فمحاولتهم امتلاكها اضرت كثيراً بازدهار مصر ، والسلالة الحاكمة فيها .

ان الاخطاء تكلف دائماً بالنسبة لجسامتها وخطورتها .

الفصل الثاني والاربعون .

معاملة المصريين للاوروبيين .

كثيرة هي الاعمال الجائرة التي قامت بها السلطات المصرية ضد الاوروبيين . ولما كان لا فائدة من اعادة ذكرها ههنا ، لان دور الطباعة قد اهتمت بتدوينها فعرفها الجميع ، فاني لا انقل الا بعضها [1] اكمالاً لموضوع كتابي فقط .

لا بدّ لي ، قبل ان ابدأ بها ، من القول ان الاوروبيين حلموا ايضاً بتحسينات جمة . ظنوا ان حكوماتهم ستكون محترمة موقرة ، وتطالب بامتيازات ينعم بها رعاياهم ، ولكنهم ما لبثوا ان رأوا محمد علي يطبق على الاعمال التجارية في البلاد التي افتتحها اجراءات وتدابير جامحة ظالمة ، فمنع منعاً باتاً التجار النازلين مصر من شراء منتوجات هذا الاقليم الواسع ، سواء أكان الشراء من الحواضر او من الارياف .

كان يأمر موظفيه المختصين بمنع كل تساهل وتجديد ، فاضطر الاوروبيون الى ان يتجاوزوا دائماً تعليمات السلطات . ومن هنا

١ ان الذين قطنوا بيروت او سوريا يوم ان كنت انا فيها يستطيعون ، وحدهم ، ان يحكموا على تحفظي الكلي هنا . لقد وجدت بعض العار في نشر حوادث كنا نحن هدفها ، ولذلك عديت عنها ولم أذكر الا ما يحسن ذكره .

نشأت الحرب التي شهرتها السلطات على الفرنسيين ، ولم تكف عنها ابداً ، وقد عرفت سببها بعد مباحثة جرت بيني وبين ابراهيم باشا الذي يحب بطبعه كثرة الكلام .

« لا ينعم الاوروبيون في الديار الشامية بما ينعمون به في مصر . هذا ما قاله لي عام ١٨٣٤ . اما الرعايا الذميون فهم أوفر حظاً من ابناء ذلك البلد . »

تفاقمت هذه الامور حتى اضطر القناصل مراراً الى مطالبة السلطات بالكف عن ارهاق الفرنسيين ، واقامة العراقيل في وجههم .

كنا نفضل ان نتمشى على مبدإ مستقر ليعلم كل منا موقفه وواجباته تجاه الآخر . ولقد طالبت ، عندما اطلعت على تعليمات نائب الملك ، بابقاء الامر على حاله ، ومعاملتنا وفقاً لما منحنا من امتيازات قديمة . ولكن لما كان الموظفون يتقيدون بالاوامر الصادرة لهم ، ولا يهتمون الا بانماء دخل سيدهم فحسب ، فقد لاقيت بعض الصعوبة في حماية افرنسيي سوريا من خطر الاجراءات الجائرة التي هددوا بها . فالسلطة تجاهلت امتيازاتنا ، واخذت تتصرف كما تشاء كأننا لم نمنح واحداً منها ، فلم تكن تجيب مطالبنا العادلة الا بعد ان نصطدم بمقاومة وعناد عنيفين .

ضمّت في غضون ثلاث سنوات كاملة جميع اساكل سوريا الى قنصلية بيروت . وفي هذه المدينة كان ينظر في القضايا المتعلقة بمواطنينا المنتشرين في جميع انحاء هذه المقاطعة .

فالذين حكموا في سوريا باسم محمد علي لم يفرقوا قط بين القناصل وعمال القناصل . فلا يشتكى من احد هؤلاء حتى تصدر الاوامر الشديدة وتبلغ الى الجميع دونما استثناء . ولما كانت اللهجة

العنيفة لا بل التهديدات هي اسلوب المصريين الخاص ، فقد كان يؤدي صدور كل امر من هذه الاوامر الى استفزاز حقبتي يفسح في مجال مناقشات وخلافات لا تنتهي .

لا ننكر ان بعض القناصل الاجانب ووكلاءهم وعمالهم قد استفادوا ، في فترة من الزمن ، من التسامح الذي ابداه موظفو الحكومة ليحموا عدداً لا يحصى من الناس ، وان هذه الاعمال ظلت مجهولة من نائب الملك الذي ظن ان هذه الحمايات كانت تشترى . فممثلو الاساكل ، وهم شركاء بعض القناصل في هذه الصفقة ، قد حاولوا تطبيق اوامر الزجر على قناصل هم براء مما اتهم به اولئك ، وهذا ما كان يدفع هؤلاء الى رفع احتجاجات عنيفة كانت تنتهي اكثر الاحيان بالرجوع عن الاوامر مع بعض التعديلات . بيد ان تلك التعديلات كانت تظل مجحفة بحق من لم يتجاوزوا صلاحيتهم في ممارسة حقوقهم ، ولا تمس من اتجروا بالحماية الا مساً خفيفاً .

هذا هو ، ويا للاسف ، تقدير الرجال الصالحين في هذا البلد . لم يكونوا يحسون الا قليلا من العطف لانهم لا يحسنون ، كغيرهم ، السلب والنهب والدسيسة والمكر . واما اولئك المنحطو الاخلاق فكانوا يظفرون ، وحدهم ، بانعامات ترفض بعنف اذا ما طلبها القناصل .

نعمت بنفوذ عظيم على عهد عبد الله باشا دون ان ارى نفسي مضطراً الى المرور في شبكة من رسميات مخزية يتطلبها الحكام المصريون ، وهي في اكثر الاحيان لا تسفر عن نتيجة . فعند ظهور التنظيم الاول لم يعترف الفاتحون الا بحقوق القناصل المقيمين

في حلب . اما قناصل الاساكل الاخرى فقد اعتبروهم وكلاء . ولما كان قنصل فرنسا وانكلترا وسردينيا وتوسكانا يقيمون في بيروت ، فقد احتج ممثلو دولهم في الاسكندرية على هذا القرار الذي اصدره حاكم سوريا العام واجاز لنفسه القول فيه : ان حلب تستحق وحدها ، نظراً لاهميتها ، ان يكون فيها قناصل .

وبينما كان نائب الملك يدهش للحمايات التي كان يبسطها الاوروبيون بسرعة في سوريا ، سمح بانتقاء وكلاء القناصل من رعاياه . لم يكن شيء يستغرب اكثر من هذا لان تعيين كل وكيل كان سبب حماية ستة من الرعايا الذميين وابعادهم عن متناول يد السلطات . فعمل كهذا يطبّق في كل اسكلة كان ينتزع من قبضة السلطة عدداً لا يحصى من الرعايا ، وهذا امر كان في امكان الدولة تلافيه لو استمرت على تطبيق النظام العثماني .

قالوا ان لنائب الملك غرضاً في ذلك . فكيف يفعل هذا من كان هدفه الاكثار من المال والرجال ؟ أيجهل انه لا بد لكل وكيل من عدة رجال ينعمون بالحماية الاجنبية فلا يبقى له عليهم اي سلطان ؟ ان ما يرمي اليه ، كما قيل ، هو خضد شوكة نفوذ القناصل الفرنسيين الذين كانوا يناهضون حكومته ويحاولون ان يحولوا دون تنفيذ مشيئته . والبرهان على ذلك هو استسلام وكلاء قناصل دمياط اليه وانقيادهم له ، ومساندتهم اياه في ما يجريه للنيل من حقوقنا . فما انتظره نائب الملك قد تحقق ، كما يظهر ، عندما قام بتجربته الاولى .

لاقيت انا شخصياً مشقات يصعب تصديقها[1] رويت اخبارها، ويمكنني القول انها كانت نتيجة تتبعي واجباتي بدقة واخلاص.

منع الحاكم العام اعفاء مؤونتي من الرسوم المفروضة عليها، واجبرني على ان ابعث اليه ببراءة تعييني قنصلاً. ولما ارسلتها وتعذر عليه التملص مما خولني اياه القانون من حق، سمح لوكلاء القناصل ان ينعموا هم ايضاً بهذا الامتياز، على الرغم من ان بعض القناصل الاجانب لم يحصلوا الا على فرمانات بسيطة لا تمنحهم الا قليلاً من الامتيازات.

وكما تجاهلت السلطات المصرية حقوقنا تجاهلت كذلك حقوق الضباط الفرنسيين في استيراد مؤنهم معفاة من الرسوم، في حين انها عفت من تلك الرسوم وسقات من الحبوب لا تخص الاوروبيين الا في الظاهر.

قرر مجلس شورى عكا الزام ضابط فرنسي بدفع المكوس المفروضة على المؤن النازلة الى الشط، واذا ابى دفع ما يترتب عليه فيعني ذلك انه اضمر الضرر للخزينة.

وفي الفترة التي شاء خلالها المصريون ان يحتكروا حاصلات سوريا، ويفرضوا الرسوم الباهظة على البضائع المصدرة، استصدر الانكليز فرماناً من الباب العالي يجبر نائب الملك على العدول عما امر به. وكانت الاوامر الصادرة بهذا الشأن مبهمة للغاية، فشاءت سلطات سوريا أن تفسرها كما تهوى وتريد، فاصرّت ذات مرة

[1] يصدق القارىء بصعوبة اذا قلت له اني طلبت من جميع السلطات التركية، ومن ابراهيم باشا نفسه، اجازة نقل سلاح لاحد هواة الصيد البالغ السن المفروضة، ولم احصل عليها. ان اسباباً عديدة تحملهم على منحي هذه الرخصة، وحسبي ما بذلت من جهود في سبيل انشاء المحجر الصحي وما كلفني من تضحيات، ولكنهم لا يذكرون ...

على استيفاء رسم ثلاثة بالماية من تاجر كان يُصدر بعض القطن الى يافا . فرفع شكواه الى القنصل الانكليزي المستر مور ، فحضر بنفسه وتدخل بالامر . ولما رأى مأمور الكمرك مصراً على ما زعم ، ولم يبال بما قدم له القنصل من براهين ، اضطر ممثل انكلترة الى تصدير القطن عنوة . لم تبال السلطات المصرية ، وهذه حقيقة تقال ، بالقوانين ونظم العدالة . الا ان صلابة القناصل الذين تطاولت على حقوقهم ، كانت توقفها عند حدها ، وقلما رأيناها تجابه المقاومة المبنية على حق صريح .

اضطررنا الى اتباع خطة قنصل انكلترة عندما حالت السلطة دون تصدير الحرير المشترى من بيروت ، اثناء الفترة الوجيزة التي احتكر فيها هذا الصنف . انتهزنا فرصة وجود محمد علي في يافا فقدمنا له احتجاجاتنا الصارخة . والكولونل كامبل الذي كان الى جانب نائب الملك دعم مطالبنا والغى ذلك الاحتكار بسرعة فائقة . وهكذا ساعدت الظروف القناصل بصورة غريبة ، فاستطاعوا حماية حقوق رعاياهم . وكانت محاولة ثانية جرّبت اثناءها الحكومة المصرية ان تحتكر تجارة الحرير ، الا انها اضطرت الى العدول عن هذه الفكرة عندما وقفت بوجهها معارضة قناصل بيروت .

واذا حاولنا ان نفكر بما تهدف اليه هذه التصرفات التي كان يقوم بها موظفو الحكومة فلا يمكننا تعليلها الا بالفوضى في جهاز الدولة المصرية ، وروح البغض والحسد في نفوس مأموريها ، واخص منهم اولئك الذين يحاولون اكتساب رضى رؤسائهم فيقومون باعمال شاذة لا يردعهم عنها رادع مهما كان السبب وجيهاً . ان

الاوامر التي كانت تصدر لم تكن تميز الفرنسيين بشيء عن ابناء هذه البلاد . فالسلطات كانت ترى انه من الضروري ان نُعامل والمواطنين على قدم المساواة .

ان جميع قضايانا كانت تفصل في الديوان الذي يضع اعضاؤه اصول العدالة نصب اعينهم ... فالقضاة كانوا لا يأبهون للمعاهدات وما يتفرع منها . لم ينظروا بعين الاعتبار الا الى مصلحة الخزينة . وهكذا هضمت حقوق الاوروبيين المعترف بها ، وسقطت امتيازاتهم المشروعة والمعروفة عرفاً .

وعندما بحثت قضية اعفاء السماسرة واصحاب المخازن وخدام الاوروبيين من بعض الضرائب ، زعمت السلطة بانه لا تجار في الاسكندرية . اما تجار الاساكل الاخرى فلم يكونوا يقومون ، حسب رأيها ، باعمال واسعة النطاق ... والغاية من ذلك هي عدم منح هذه الامتيازات لغير التجار الذين ترغب فيهم هي .

وبهذه المناسبة نقول ان حمل السلطات على الاعتراف بحقوق تجار جميع انحاء سوريا ، يعود الفضل فيه ، بلا مراء ، الى قناصل بيروت .

كانت وظيفتي تحملني على إنباء القنصلية العامة في الاسكندرية بجميع ما يحدث هنا . وشد ما كنت اقف بوجه السلطات عند تحيزها وانحرافها عن جادة الحق ، ولا سيما بعد ان رأيت بنفسي اساليب الادارة الحكيمة التي كانت تتبع في مصر . قد تبين لي بعد الاستقصاء ان الموظفين الذين يتبعون طرقاً معوجة هم الذين كانوا يعيثون بالنظام فساداً . كنت آمل انهم سيرجعون عن غيهم ويتقيدون بواجباتهم حالما يؤمرون . وهذه التمنيات لم تكن ترمي

الا الى ادارة حكيمة مستقرة كالادارة التي ظننت ان نائب الملك يرغب في تطبيقها في بلده الجديد. وقد ظهر لي ان ظني في محله عندما حمل الي السيد ميمو ثناءً وشكراً من قبل محمد علي. فالقنصل العام الذي قدم له ترجمة بعض الملاحظات التي تضمنها تقريري طلب مني المثابرة عليها، مؤكداً لي ان جميع الاعمال السيئة التي حصلت في سوريا كانت مخالفة لمشيئة محمد علي.

ومع ذلك فقد بقيت الحالة على ما كانت عليه، لا بل ازدادت سوءاً لان اولياء الامر يعملون كل ما بوسعهم ليبرروا تصرفاتهم، ولان الحكومة كانت تفضل ان تستفيد من اعمال هؤلاء العمال بدلاً من ان تهتم في معاقبتهم.

كتب الي السيد لاسبس[1] بتاريخ ١٠ تشرين الاول ١٨٣٧ يقول:

«اؤكد لكم ان الحكومة المصرية تحسن التفريق بين تصرفاتكم وتصرفات القناصل الاخرين، وانها تقدركم حق قدركم.»

ولقد قرأ آخر متسلم في بيروت لمعاوني مقطعاً من تقرير رفعه الى رئيسه يقول له فيه: «لم يكن يجد سهولة الا فيما تطلبه منه قنصلية فرنسا، فهي لم تكن تخرج قط على اصول اللياقة وآدابها حين كانت تطالب بحقوقها.»

وهذا يذكرني بالحديث الذي نقله الي رحالة عن لسان سليمان باشا بينما كان يتحدث واياه عن مشاكله المتواصلة في القناصل:

[1] لا حاجة الى التذكير بان هذا القنصل الذي اعترف بوطنيته العظيمة افرنسيو مصر قبل غيرهم، هو الذي جعلت منه حوادث عام ١٨٤٢ موضوع تقدير افرنسيي برشلونه واعجاب الرأي العام.

« كنت اجد سبيلاً لمؤاخذة فلان او فلان . الا ان المسيو غيز الذي لا يتعدى نطاق حقوقه المشروعة لم يفسح لي في مجـــال مؤاخذته بشيء » .

وكثيراً ما اجد ، بين المعلومات التي جمعتها حول كيفية الادارة ، تفاصيل عديدة لما كان يحصل بيني وبين سليمان باشا من خلاف ومشادة حول قضية ما . فما كاد هذا الباشا يتسلم زمام المهـام المصرية حتى راى نفسه مضطراً الى العمل وفقاً للمبادىء التي كانت تنخر صدر هذه الدولة . ولما كنت لا اريد ان احفظ عنه الا ذكريات طيبة حلوة ، فقد ضحيت ، في سبيل هذه الغاية ، بجميع ما دونته من حوادث تدور حوله ، يوم كان قـابضاً على ناصية الحكم . ومهما يكن من أمر ، فانا واثق من ان تصرفاته ، في تلك الفترة ، كانت تناقض كل المناقضة امياله ونزعاته .

فسليمان باشا رجل عادل ، ذو وجدان ، احب بكل ما أوتي من قوى اسياده الجدد . بيد ان قلبه ظل دائماً لنا . وانه يرى شرفاً في انتسابه الى الفرنسيين . ان اخلاقه تخون وطنيته عند الضرورة . وقد استطعت ، حين كنت في حلب ، امتلاكه قلباً وقالباً ، فاصبحت علاقاتنا ودية خالصة بعد ان كانت ديبلوماسية بحتة .

وشاهدت ايضاً هذا القائد يهتم شخصياً بالعمليات الهامة التي امر بالتمرن عليها في غضون مدة طويلة ، ليعلم الجيش – وكان قائده الاعلى – كيف يطعن الاتراك في ظهورهم . فهذه الخطة نفسها ، المكرورة مائة مرة ، هي التي اتبعت في نيزيب .

ان المناسبة الوحيدة التي اعربت فيها سلطات بيروت عن قليل من اللطف كانت لدى وصول الامير ده جوانفيل .

كنت على ظهر السفينة « ايفيجاني » عندما اتى الحاكم يقدم تحياته لسموه . وكنت اقوم بينهما بمهمة الترجمان . قام الحاكم بجميع اصول اللياقة التي سمح له بها مركزه . رجاه الامير ، بعد ان اعرب له عن امتنانه ، في ان لا يكلف نفسه ما ازمع ان يقوم به من اعمال لاجل اجلاله وتكريمه ، ولكن الحـاكم ابى ان ينزل على ارادة ابن ملك الفرنسيس ، وشاء ان يعرب له ، بما تمكنه منه الحال ، عن شرف قدومه الذي افعم قلبه بالفرح والسرور . ولهذا امر مدفعية حامية المدينة بان تطلق واحداً وعشرين مدفعاً اجلالاً لمقام الامير . ثم احاط طريقه بسياج من الجنود ابتداء من المرفأ حتى القنصلية . كان يتقدم الامير ، وهو ذاهب اليها ، فصيلة من الجنود يدقون الطبول وينفخون في الابواب .

ثم امر الحاكم ان يشيع الامير كما استقبل ، عندما خرج من السراي بعد ان قام بزيارته .

وغداة اليوم التـالي قدم للامير خيولاً ليقوم بجولة في الجبل ، ولكن الامير لم يستطع التجول في لبنان بسبب انتشار وباء الطاعون فيه .

ولدى العودة الى المدينة رأيت بدوياً وقور الطلعة ، فاخترته لسمو الامير الذي يرغب في اخذ رسم عن اللباس العربي . ان عرب الصحراء قلما يؤمون هذه المدينة ، ولكن القدر ارسل الينا هذه الغنيمة الباردة . فاتى به احد الجنود وادخله قاعة الاستقبال .

كان معه رفيق كهل ، فجلس على كرسي وهو لا ينفك يتطلع الينـا . فالاثاث الاوروبي الذي لم يكن قد رآه بعد شغل باله كثيراً .

وعندما انتهى الامير من اخذ صورته شاء ان يكافيء العربي ، ولكن البدويّ رفض اولاً قطعتي الذهب اللتين قدمنا له ، واخيراً قبلها ، بعد الحاح شديد ، وخرج من القاعة قبل ان نعلم انه احد مشايخ قبيلة عنيزة ، وقد جاء بيروت ليفاوض ابراهيم باشا في قضية ما .

شد ما تأسفت وتأسف الامير لعدم معرفتنا هذا الامير ، فقد كان بوسعنا ان نستقبله بلطف متناه ، وغم ان وقته لم يكن يسمح له بالبقاء الا قليلاً . ثم علمت ان امه ، التي كانت تحذره من زيارة القائد المصري ، قد نذرت ان لا تتحلى بجوهراتها او تنام قبل ان يرجع اليها . وهذه الام الحنون تعزت لدى رؤيته عائداً اليها سالماً . لا شك في انه قد خبرها عن رؤيته ابن سلطان فرنسا عن كثب ، ولا شك في انها تفاءلت بهذه الرحلة . فالالتقاء بامير هو ، عند الشرقيين ، بشير بخير او نذير بويل .

الفصل الثالث والاربعون

معاملة المصريين لسكان لبنان .

لاقت شعوب لبنان ، من المظالم التي قام بها المصريون في سوريا ، ما هو اشدها قساوة وهولاً . ففي المدن تقرر نزع السلاح ، وفرض التجنيد الاجباري ، ودفع جزية الفردة ، والسخرة . كانوا يلجأون الى ذلك ، سنوياً تقريباً ، كلما دعت اليه الظروف . بيد ان الذين كانوا يسكنون تلك المدن من مسلمين ومسيحيين لم يعاضدوا المصريين ولم يضحوا في سبيلهم باي شيء ، سواء اكان ذلك في الرجال او في المال ، ليساعدوهم في حروبهم ويشدّوا ازرهم في غزواتهم ، الخارقة العادة ، التي دعي اليها الشعب لبناء ما تهدم من بنايات عكا وقولق البوغاز وكرنتينة بيروت . فالجزية الشخصية (الفردة) التي فرضت عليهم قد حلت محل « البلصات » التي كانوا يعانونها في العهد التركي .

أما الجبل فكانت تكاليفه القديمة تزداد زيادة مطردة ، وتسير سراعاً في هذا المضمار الجديد . كان الاجدر بالمصريين ، ليكونوا عادلين ، ان يعفوا الجبل من هـــذه الضريبة الجديدة ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا . وكأن ما احدثوه لم يكفهم حتى استمروا في استيفاء الضريبة القديمة التي لم تكن الضريبة الاصلية الشرعية ،

ولكنها تلك القيمة التي كان يضاعفها الباشوات بطريقة لا تمت الى العدالة بصلة .

وكأن السلطات قد رأت ضرورة الاعتراف بخدمات الجبليين المخلصة ، فشاءت ، بادىء ذي بدء ، ان تظهر بعض التساهل في جباية الضرائب . غير انها ما لبثت ان فرضتها على الجميع غير مستثنية احداً ، فاضطرتهم الى ان يدفعوا ٢،٦١٠،٠٠٠ قرش (٦٢٥،٥٠٠ فرنك) موزعة على ثمانية وخمسين الف مكلف . وبناء على ذلك يجب على كل رأس ان يدفع مبلغ خمسة واربعين قرشاً .

ان الرسالة التي نشرت بتاريخ ١١ حزيران سنة ١٨٤٠ تحتوي على جميع مطالب الموارنة والدروز اللبنانيين واحتجاجاتهم . واني ارى ان اوردها هنا بدلاً من التوغل في تفاصيل طويلة اصف فيها حوادث جرت وعرفها الخاص والعام بوضوح وجلاء تامين .

رسالة الجبليين الثائرين الى الامير امين

« تعرفون ، كما يعرف ذلك جيداً الامير بشير والدكم الجليل ، مقدار ما يلاقيه اهالي جبل لبنان من اضطهاد وظلم ، وما يؤدونه من ضرائب بعد ان حكم هذه البلاد جلالة محمد علي .

« كنا اول من خضع له . فرجالنا انضمّوا الى جنوده ليحاربوا معه في دمشق وطرابلس وحماة . وعندما تعاقبت ثورات صفد ونابلس وحبرون ، وثورات المتاولة والنصيرية ، كنا نحن الذين اخمدناها ، بناء على اوامر الامير بشير ، بتغلبنا على العاصين واخضاعهم لحكم الباشا . كانت هذه الخدمات تعللنا بحسن مصيرنا وتحسن احوالنا ،

فكانت المكافأة الوحيدة لنا ان جرّدنا من سلاحنا واكرهنا بالقوة على التجنيد، ورأينا من المظالم ما لا يسعنا ان نصفه دون ان نرتجف هلعاً وخوفاً.

« كانوا يقبضون على نسائنا عندما نأبى دفع الضرائب. وبعد ان يشبعوهن ضرباً يعلقونهن من اذرعهن بالاشجار حتى ندفع آخر فلس. واجبروا عائلات اخواننا الذين ماتوا في خدمة جلالته نفسه على دفع ما تبقى على هؤلاء من ضرائب اثناء حياتهم.

« وعندما عثروا على الفحم الحجري في الجبل اكرهونا على استخراجه لهم دون ان نمنح اقل بدل. واجبرونا، فوق ذلك، على ان نقدم نحن جميع المعدات اللازمة لعمليات استخراج الفحم. ثم اقاموا علينا نظاراً من الجنود، فمن لم يعمل اكرهوه بالعصا على الشغل. فاوجبوا علينا نقل الفحم ودفع جميع ما استلزمته المعدات واخشاب البناء والاعدال من نفقات وثمن. اما هم فلم يدفعوا لنا الا الربع، متغاضين عن النفقات التي ذهبت هدراً في سبيل تعويضات الامراء والبلوكباشية المكلفين مراقبة سير الاعمال.

« وعندما باشروا تشييد المحجر الصحي لاقينا نفس المعاملة التي عوملنا بها حين استخرج الفحم الحجري. انه ليطول تعداد المظالم المخيفة التي لاقيناها، وانتم تعرفونها جيداً مثلنا. لقد جعلونا بؤساء كفلاحي مصر، واقتادونا بشناعة ومذلة، لا بل ساقونا بالعصا.

« فرضوا ضرائب جديدة على طواحيننا. فالبناؤون والحدّادون وجميع من هم بحاجة اليهم قبضوا عليهم وساقوهم الى عكا والمحجر الصحي.

« خربت بيوتنا وعوملنا معاملة سيئة ، فلم نعد نملك مواشي ولا اموالاً . فاولادنا جندوا وعبئوا في جيوش منظمة . وغلالنا اصبحت لا تكفينا بعد استيفاء الضريبة منا . وبهائمنـــا صودرت وسخرت ، واجبرنا على اقتيادها لهم بانفسنا ، حتى اضطررنا ، تخلصاً من هذا الجور ، الى قتلها عندما عجزنا عن بيعها خفية باي ثمن كان .

« وعندما تواثبت الويلات الى عنق اخواننا في حوران ، ونشبت الحرب هنالك ، امدتنا الحكومة بالسلاح وبعثتنا لنخضع البلد الثائر . وقد قمنا بهذا العمل مرتين على التوالي . وكثيراً مـا فقدنا من الرجال في هذه الحرب الظالمة التي خضناها رغماً عنا ، على امل ان نستربح بعض الشيء مـن مصائبنا بعـــد خضوع البلاد واستسلامها . ولكننا خدعنا بلؤم ، وكلفتنا هذه الحملة الفي كيس ، ما عدا الرجال الذين قتلوا .

« واخيراً لما كانت بيوتنا قد خربت ودمرت ، واولادنا ماتوا ، ونحن نئن تحت نير عبودية ثقيل ، ويستحيل علينا احتمال نكباتنا بعد ، فاننا نود ان نموت او ان نكون احراراً . اننا نقاوم بقوة السلاح جميع الذين يريدون سحقنا .

« نحن مستعدون لايقاف مقاومتنا والخضوع ، اذ لا نرمي مطلقاً الى انشاء قوة مستقلة على حدة ، بل نسعى الى زحزحة النير عن اعناقنا فحسب . اننا لا نريد ان ندفع الا مالاً اميرياً واحداً عن املاكنا . فاذا قبل طلبنا والغيت جميع المظالم والبلصات والضرائب واعمال السخرة الخ ... الخ ... التي لم نعرفها قبل الاحتلال المصري ، فاننا نرجع عن عصياننا . ولكن لما كنا قد علمنا انه ينبغي لنا ان لا نخدع باقوال جلالته وبكتاباته ، فنحن لا نلقي سلاحنا ما

لم يكفل لنا ممثلو فرنسا وانكلترا تحقيق هذه الشروط . حتى اذا لم تنفذ بحذافيرها عكنا من استنجاد الدولتين الوسيطتين ومطالبتهما بحقوقنا التي تعهدتا لنا بحفظها وصيانتها .

« وفي انتظار الجواب فاننا باقون على ما نحن عليه . فاذا كان الجواب بالايجاب ومنحنا مطالبنا عاد كل منا الى بيته ، والا فخير لنا ان نموت من ان نظل في الحالة التي كنا عليها قبل اعلان الثورة . انكم تعرفون الآن موقفنا وما عزمنا على القيام به ، فلتحكم السلطة وتقرر ما تشاء . »

اما الامر الذي لم تأت هذه الرسالة على ذكره فهو ان اهالي الجبل ، سواء اكانوا مسيحيين او دروزاً ، قد عوملوا في المدن بقساوة كبيرة . كانت السلطات لا تفتأ تسخرهم هم ودوابهم . امر متسلم بيروت ، ذات يوم ، بجلد فلاح قاده اليه الشيخ ، لان كوفيته خضراء اللون . وهذا الشيخ الذي اشتهر بتعصبه البالغ الحد ، كان قد انهال ضرباً على هذا الجبلي في السوق العامة بعد ان مزق له تلك الكوفية .

ثم ان هنالك اشخاصاً آخرين ضربوا على مرأى من الجماهير لهذا السبب او لاسباب اكثر تفاهة من تلك . ولاجل التخلص من هذه المآزق الحرجة ، اضطر الكثيرون الى بيع املاكهم بنصف ما تساوي من ثمن حقيقي ، ورحلوا الى الجبل .

والذي آلم الجبليين اكثر من سواه هو عدم الثقة التي اعربت عنه الدولة المصرية عندما امرتهم باعادة الاسلحة التي وهبتهم اياها كمكافأة على خدماتهم الجلى في سبيل نصرة قضيتها . كان ابراهيم

باشا قد سلم الامير ، قبل مغادرته داره ، على اثر نزع السلاح ، الفين وخمسمئة بندقية قائلاً له : « احتفظوا بهذه الاسلحة لحين الضرورة . انكم تعلمون لمن تسلمونها . اني اتكل عليكم . »

وامر فوق ذلك ان لا يجرد الامراء وزعماء القرى من سلاحهم .

كثيراً ما كان يقلق بال الامراء امر مصيرهم . خاب املهم بثقة الحكومة المصرية باخلاص الجبل لها ، لان مأموريها اظهروا لاهليه ، في كل مناسبة ، قساوة ونهماً بالغي الحد .

اطلع احد هؤلاء الامراء ، في ساعة مسامرة يعود فيها الفضل للخمرة ، على امر سرّي تلقاه قائد مصري ، وهو ينتهي بهذه العبارة : « آمنوا فلاناً وفلاناً على حياتهم مؤكدين لهم ذلك بالله ، وبي ، وبأبي ، ومتى اصبحوا في حوزتكم بادروا الى قتلهم حالاً . »

وهكذا قلّت ثقتهم فلم يعودوا يصدقون ما يوعدون به . ان العثمانيين لم يحلفوا قط باطلاً ، وان انتقموا من الاشخاص الذين عفوا عنهم حين انتهزوا فرصة جديدة وانقلبوا عليهم .

تلاشى تقريباً نفوذ الامير الكبير بعد نزع السلاح في امارته ، وكانت تصرفاته تدل على انه فقد كل امل باستعادة سلطانه . لقد شاخ وهرم ، وكثر حوله اعداؤه ، وتغيرت البلاد ومن عليها . فهذه العناصر الثلاثة ادت به الى ارضاء السلطات المصرية في كل مناسبة لينهي ايامه بسلام ، بدون مصيبة او كارثة .

مرّ مثل هذا في عهد الامير ، في الفترة التي اضطرته الى ان يستنجد بعبدالله باشا ، عام ١٨٢٦ على اثر ثورة الدروز . فسمحت الاحداث لهذا الباشا ان يقدر قوات الامير الحقيقية ويعرفها حق المعرفة ، فناهضه في بلده نفسه اذ الف حزباً قوياً تمكن دائماً ان

يتصرف به كيفما يشاء .

كان عبدالله باشا ينتهز دائماً جميع الفرص لاتعاب الامير بشير ، فخافه الامير وانقاد له ، ولم يعد يستطيع ان يقاومه بشيء . ولهذا حول الامير وجهه شطر محمد علي منذ ذلك الحين . وعندما نال رضاه استفاد من دخول جيشه سوريا ، فحاول استعادة سلطانه القديم . وعلى الرغم من اخلاف نائب الملك وابنه بوعود شتى ، لم يحجم الامير قط عن ان يظهر لهما اخلاصاً اعمى . لم يكن يراعي احداً في سبيل رضاهما وكان ينكر على جميع الناس حقوقهم اذا تعارضت ومصلحة صديقيه ، ظاناً ان شكوى الناس منه لاجل ذلك تكسبه عطفهما ونصرتهما .

ومن الانصاف ان اقول هنا ان محمد علي لم يخب ظناً في شعوره الحقيقي بما يكنته له الامير بشير ، وان لم يحقق ارادته بكاملها . ولهذا السبب ارسل ، ابان تجريد الجبل من سلاحه ، احد وزرائه ليعاون ابراهيم باشا في مهمته ، ويمنعه من ان يعامل الشعب الذي فتح له ابواب سوريا بقساوة وعنف . وقد رأينا ان الامير لم يُراع ، ولم يُلتفت الى الشعب الا بعض الشيء .

وقبل القيام بنزع السلاح لا بل قبل ان يكون هذا الامر موضوعاً يشغل بال الجميع ، امر القائد العام المسيحيين ان يلزموا السكينة معتمدين على رعاية نائب الملك خاصة .

والسفارة الانكليزية في القسطنطينية نصحت الامير عام ١٨٣٦ ان يتصرف وفقاً لرغبة السلطان . ثم ان عدة ضباط من الروس كانوا يظهرون ، بين آونة واخرى ، في سوريا ليمدوا اصابعهم الى بعض الشؤون . فاحست حينذاك بما كان يضمر الامير من

شعور وما يحس به من حرج الموقف .

واخذ الشعب آنذاك يدبر المؤامرات في الخفاء ، ويعد الخطط . فالموارنة ، بعد ثورة حزيران عام ١٨٣٨ ، انفصلوا تماماً عن الدروز ، والدروز الذين يناهضون الامير بشير اضطروا بطبيعة الحال الى ان يوالوا السلطان لانهم كانوا يرون في مقامه وحده امل استعادة السلطة التي كانت لهم قبل سقوط الشيخ بشير جنبلاط الشهير . فابن الشيخ بشير وعدد كبير من اعيان الطائفة في القسطنطينية كانوا يؤملون مشايعيهم في لبنان برجوع السلطة الى ايديهم [١] .

وعلى الرغم من ذلك فالمسيحيون هم اول من ثاروا على السلطة المصرية لانها امعنت في ظلمهم .

« انه لمن الخطأ ، يقول السيد بوجولا ، الاعتقاد بان جميع الشعوب السورية التي كانت في هيجان منذ عشر سنوات لم يدفعها الا غريزتها وميلها الفطري الى اعلان الثورة . يجب ان لا نعتقد ان الشعوب هنا تحركها خساسة في الفكر ، ومطامع في السياسة ، وغاية في النفس . فعندما يحمل الرجل سلاحه في هذه البلدان ، وعندما يترك سكنه ، وجمله ، وخيمته ، فذلك يعني انه هُدد ، وانتزعت راحته ، وهضمت حقوقه ، وديست كرامته .

« فالثورات المتعددة التي شهرتها جميع بلدان سوريا هي احتجاج شرعي محق ينهض في وجه الحاكمين الجدد الذين اتوا من الاهرام

١ ساهم الباب العالي نفسه في تنمية هذه الازمة لانه كان ينوي التدخل في شؤون هذا البلد ، فدفع مشايعيه الى القيام بتحريضات سرية ، محاولا استغلال حالة الحكم المصري ، وعدم رضى الشعب عنه . — ده كادلفين وبارو ، تاريخ حملة محمد علي على الباب العثماني ، ص ٤١٩ .

والقاهرة . وهؤلاء الموارنة ، الكرماء النفس ، الذين اكتسبوا عطف اوروبا ، لا بل اقول هؤلاء الجبليون المحقون الذين لا يتطلبون الا قليلاً من الراحة والسكينة ، فمن يمكنه ان يظن ان ما يدفعهم الى مقاومة عدو منصور ، مخيف في انتقـــاماته ، هو ناتج عن غير قنوطهم المرير ؟ »

ومع ذلك فقد قبل الموارنة بالقاء السلاح على اثر عروض الصلح . الا انهم عادوا الى عملهم لما اتى بعض الجواسيس من القسطنطينية – وكانوا يعرفون مبلغ حبهم لفرنسا – وطلبوا منهم باسمهــا متابعة القتال .

فاول ثورة قاموا بها نتجت عن العود الى محاولة نزع الاسلحة ثــانية ، وكان من حق الموارنة ان يحتفظوا بها الى الابد . فالتفكير بنزع السلاح والاقدام عليه احدث ضجة اخافت اللبنانيين الى ابعـد مدى . ثم ان مصدراً ما اكد ان الحكومة المصرية تنوي جباية ضرائب اربع سنوات دفعة واحدة ، وهي عازمة على تجنيد المسيحيين ، وقد مهدت لهذا العمل الخطير بنزع السلاح ليصبح الشعب اعزل . وهل هنالك سبب اوجه من هذا يمكن ان يدعو الى انفصام عرى تحالف الحكومة المصرية والموارنة؟

اما الثورة الثانية فقد اثارهـا ، كما سبق لي ان قلت ، اناس اتوا يستفزون اللبنانيين زاعمين لهم ان فرنسا التي لها بعض المصلحة في موقفهم قد قرّرت ان تخرجهم من هذا المأزق الحرج ، وانها ستعمل في سبيلهم . وعلى كل حال لم يكن الموارنة يتجرأون ان يثوروا على السلطة المصرية لولا ان قنوطاً لا يقاوم قـد استفز شجاعتهم . فحكمة المسيحيين والانتقامات المخيفة التي لاقتها الشعوب

الثائرة كانت تحول دون ذلك .

ان سكان لبنـــان هم الذين استقدموا المصريين الى سوريا ، وسكان لبنان ايضاً هم الذين اضطروهم ، فيما بعد ، الى الرحيل عنها .

« انها مقاومة عادلة لا بد منها ، قـــال السيدان دي كادلفين وبارو ، كما لو كانا يتنبئان عما سيحدث . فالحاكم الذي يتخذ الشعب وسيلة لمضـــاعفة سيطرته وتقوية نفوذه ، لا يمكنه ان يستخدمه طويلاً دون ان يصبح هو بدوره سبباً لثورة هذا الشعب ، وسبب انقلاب اشد واكثر طولاً من ايام حكمه .

« فليواصل محمد علي الطريق التي اختطها لنفسه . ان مهمتـه شاقة ، واسعة النطاق . كان عليـه ان يهتم بتحسين حالة الشعوب الخاضعة له فيريحها ، وهي بحاجة الى الراحة ، ويفك اذرعها مـــن عقالها لتتعاطى اعمال الصناعة والزراعة وتنهل من منابع المدنيـــة الاوروبية [1] . »

الا ان جميع هذه الكلمات الطنانة كانت عديمـــة الفائدة ، فالمصريون لم يصغوا اليها لا في سوريا ولا في بلادهم ، بدليل رحيلهم عن البلاد التي لم يطردوا منهـــا بقوة السلاح ، بل بتفاعل حنق الشعوب وغيظها .

وعلى الرغم من ان السيدين ده كادلفين وبارو يميلان ، على ما يبدو ، الى اغتفار الاخطاء التي ارتكبتها الحكومة المصرية في سوريا ، فانهما نعيا عليها خطتها وتصرفاتها . لقد خبرانا بكلام

١ تاريخ حملة محمد علي على الباب العثماني ، ص ٤٣٨ .

يشبه الالهام عن سقوط سلطة الحكومة المصرية، فبيّنا اسبابه بقولهما [1] :

« ما من شيء اصعب من وراثة اعمال تلك الادارة البغيضة. فحكومة نائب الملك التي قامت في ظرف غير ملائم لم تكن تخشى تفاقم خطر الجزية والتجنيد المطبقين في مصر على بقعة تدل سكانها وتربتها على كثير من الاختلافات الملموسة. فهذه الاجراءات قوضت آمال السوريين وخلقت فيهم نزعة جديدة هي مقاومة السلطان والحيلولة دون توطيد اركان حكمه لانهم يتوقون الى الاستقلال، ولاجل تحقيق هذه الغاية فتحوا للغزاة ابواب بلادهم. ان تلك الاجراءات والتصرفات دفعت الى العمل زعماء الجبال الذين رأوا انفسهم، وهم المعتادون على نوع من المعيشة الفوضوية وعلى اعمال السلب والنهب في عهد باشوات الباب العالي، تحت ضغط سلطة جديدة اكثر عنفاً واشد صرامة ودقة في تطبيق النظام من الدولة التركية. »

١ تاريخ حملة محمد علي على الباب العثماني، ص ١٩ م.

الفصل الرابع والاربعون

اسباب ثورة الجبل . الحوادث الاخيرة .

عندما بدأتُ بكتابة ملاحظاتي وارائي التي جمعتها منذ مدة طويلة عن بيروت ولبنان ، كنت انوي ان اختمها بنبذة مقتضبة عن الحوادث التي تلت تدخل الدول الثلاث لاعادة نفوذ السلطان الى سوريا . الا انني ، بعد تفكير طويل ، رأيت ان اقتصر على الملاحظات التالية :

١ – ان ملخصاً بسيطاً لا يكفي ، ولو كنت لا اريد بحث مساوىء هذا التدخل الذي لا يحق لي التنبؤ بما سيؤول اليه .

٢ – ان القضية تتعلق بحوادث استطاع الجمهور ان يحكم عليها تبعاً لمشاهداته لها . قد لا تكون هذه المشاهدات صحيحة كل الصحة ، الا انها تمكنه من تكوين فكرة خاصة عنها .

٣ – كان يتوجب علينا ، لتنوير اذهان الجمهور على اكمل وجه وتصحيح افكاره ، ان نعرض جميع هذه الحوادث بدقة . الا ان ذلك لا يأتلف مع خطة هذا الكتاب . فليس هدفنا فيه ان نروي اخبار الحوادث السياسية التي وقعت في بيروت ولبنان ، وان كان هذان البلدان موضوع بحثي ووصفي .

٤ – واخيراً ، يجب على الرجل ههنا ان لا يجاهر ابداً بارائه

خشية ان تتعارض وواجباته .

ثم ان احدى السلطات قامت بذلك فتكلمت بجرأة، فكانت موضوع تذمري وانتقاد الكثيرين نظراً لتصرفاتها الغريبة . فالاجراءات التي يتخذها الحكام الكبار لا يستطيع موظف بسط ان يناها بالانتقاد . ولهذا ادع لغيري من بعيدي النظر رثاء ضعف الفرنسيين في تدخلهم بقضايا سوريا .

رأيت ان اكتفي بنشر اثنتين من القطع الكثيرة التي جمعتها . فالاولى تشتمل على اسباب ثورة الجبليين الموارنة ، والثانية تعرض الحوادث التي تلتها عرضاً صحيحاً دقيقاً .

مقتطف

من رسالة كتبت في طرابلس بتاريخ ٢٨ تموز ١٨٤٠ .

« اما الماضي فتعلمون عنه الشيء الكثير . فما ان سمع الجبليون البؤساء بحديث ضريبة « الفردتين » المفروضة عليهم ، وتجريدهم من سلاحهم ، وتجنيد اولادهم الفتيان حتى اخذوا يتذمرون ويبدون ميلاً للثورة .

« فبعض المشايخ الذين ظلمهم الامير رفعوا اصوات الشكوى الى بيروت . وبلغت استغاثاتهم آذان بعض الفرنسيين الشباب وقلوبهم ، ومن بينهم ابن الكونت ك ... خيل الى هؤلاء انهم رجعوا الى عهد الفندالبين او ايام تحرر الروم . فاستقدموا اليهم هؤلاء المشايخ وزودوهم ببعض النصائح مع شيء من المال والرصاص والبارود ، وبثوا لهم الجواسيس في جميع انحاء الجبل يدعون الشعب

الى الثورة بترويج اكاذيب لا يشك احد بصحتها ، لانهم اجادوا تصنيفها واحسنوا تلفيقها . ولما كان الشعب الماروني لا يحب الحروب بطبيعته ، اقتضت الحال ايجاد دوافع قوية تستفزه وتدفعه الى الثورة . واليكم ما استخدموه من اساليب :

« قالوا : اوفد ملك فرنسا اميراً افرنسياً هو السيد اونفروى (ابن اخت الملك) لينبىء الاهلين بان اربع بوارج حربية ضخمة تنقل الاسلحة والبارود والجنود والمال ستصل الى بيروت في غضون ثمانية ايام ، وان الامير اونفروى المذكور يتولى قيادة ابناء الزوق . وبالوقت نفسه شاع في جبة بشري ان جيشاً يتألف من عشرة الاف جبلي ، مصطحباً مؤناً لا تحصى ، يقف على ابواب بيروت ، وان كل متطوع فيه يقبض مبلغ قرشين ونصف عن كل يوم علاوة على ما له من اجر .

« ولكن جميع هذه التخرصات والاحاديث الملفقة كانت غير كافية لاثارة همة الموارنة ، فهم يخشون ، كما يقال عنهم ، ارتكاب خطيئة مميتة بقتلهم رجلاً . فما بقي ، اذن ، الا ان يقولوا لهم ان الحرب هي حرب مقدسة ، وان الامير الفرنسي يحمل رسالة من قداسة البابا الى غبطة البطريرك يأمره فيها ان يمنح الغفران الكامل لكل من يحارب الباشا ، وان صاحب الغبطة البطريرك اذاع منشوراً يمنح فيه البركة الرسولية لجميع الذين يحاربون العدو ، و « يحرم » من يتخلفون عن هذا القتال .

« هذه هي الاراجيف التي تقدمت جواسيس بعض المشايخ ، فكان لهذا الامر اثر فعال في النفوس ، فتجمع حولهم بضع مئات من الرجال ، ومشوا يهددون بهم القرى التي تأبى الانضمام اليهم .

وفي نهاية شهر ، وبعد ترويج عدد لا يحصى من الاكاذيب ، توصلوا الى حشد جيشين وربما ثلاثة جيوش . اما انا فلم يبلغني شيء اكيد عن جيش زحله .

« كان يتألف كل جيش من حوالى ثلاثة الاف رجل . فاحدهما رابط قرب بيروت ، والثاني قرب طرابلس . وكان جل هؤلاء الجنود المزعومين عزلاً من السلاح ، ونصف المسلحين منهم ليس لديهم رصاص وبارود ، والذين استطاعوا منهم ان يستعملوا بعض الاسلحة كانوا عدداً ضئيلاً جداً . وكان في كل معسكر سبعة او ثمانية مشايخ متضاربي النزعات والمآرب ، وذوي مصالح مختلفة . اما المال فما كان لديهم منه شيء .

« فالذين لم يبعدوا عن قريتهم الا مسافة ثلاث ساعات او اربعاً كانوا يغشونها ليلاً باحثين عن شيء يأكلونه . اما الباقون فكانوا يعيشون من السلب والنهب . وظل هذان الجيشان مرابطين حوالى شهر كامل لا يأتيان عملاً الا بضع مناوشات مع جنود المدينة كانوا يقومون بها من حين الى آخر .

« وهذه المعارك الصغيرة كان يفوز بها الجبليون ، لانهم لم يقاتلوا الا وهم يتقهقرون معتصمين وراء الصخور . اما اعداؤهم الذين اضطروا الى تعقبهم ، وفقاً للاوامر ، فكان يجب عليهم ان يتقدموا ابداً الى الامام . ولهذا كان عدد قتلاهم اكثر من قتلى اولئك واضخم .

« لست اتناول في حديثي هذا الا مدينة بيروت . اما جيش زغرتا الواقف قرب طرابلس فقام بهجمتين لا غير انهزم فيهما انهزاماً شنيعاً . فالشيخ بطرس (كرم) كان يرفض دائماً الاشتراك

في هذه الثورة ، ولكن اهالي اهدن ، واكثرهم نزل الى ساحة القتال رغماً عنه ، ظلوا يضطهدونه ليل نهار ، طوال شهر كامل ، حتى اجبروه اخيراً على بعث ابنه مخايل الى المعركة في اليوم الذي حصلت فيه الهزيمة المنكرة الاخيرة . وهكذا ارغم سائر مشايخ الجبة على الاشتراك في هذه الحركة ، لان اتباعهم كانوا يطاردونهم مسلحين ، ويلحقون بهم الى عقر دارهم . »

مقتطف

من جريدة Les Débats بتوقيع السيد غزافيه ريمون [١]

« في اواخر شهر آب ١٨٤٠ عندما قررت الحكومة الانكليزية ان تحشد قواها لمحاربة محمد علي ، أستدعي الاميرال جون لويس الى نظارة ترسانة مالطة ، بينما كان السر شارل نابير يتلقى الامر بتخليه عن دفة القومودورية لقيادة اسطول مؤلف من اربع بوارج ومباشرة عمليات حربية على شواطىء سوريا . انه من المؤسف جداً ان لا ينبئنا السر شارل نابير ، الذي يحتمل ان يكون عرف سر هذا العمل ، عن الاسباب التي حملت الوزارة الانكليزية على اتخاذ مثل هذا التدبير في مثل هذه المناسبة . على ان السر نابير الذي كان باستطاعته ان يعلمنـــا بذلك لم يفكر بالامر البتة . فالمستندات العديدة التي اتى على ذكرها في كتابه لم يروها الا تصديقاً لمزاعمه ،

١ يتعلق هذا المقال بكتابين طبعا في لندن ، ويدور موضوعها على الحرب التي خاضها القومودور السر شارل نابير ورفيقه و . ب . هنتر في سوريا .

وتعظيماً لكفاءته الشخصية . ويبدو انه لم يخطر على باله ان اوروبا يهمها غير معرفة ما أتى من اعمال تشرفه في حقلي السياسة والبحار .

« فالقضية اذن لا تزال على جانب كبير من الغموض . وانا لن ادعي اني سأحلها ، ولكنه يمكن الاستنتاج ، على وجه معقول ، من جميع الوقائع التي ذكرها السر شارل نابير في كتابه ، ان الوزارة في لندرة قد دهشت وشعرت انها اجبرت على العمل مدفوعة بما تعرفه من سياسة السيد تييرس Thiers وبنتائج سياسة اللورد بونسونبي السرية حتى على الحكومة . فالى هذا السياسي غير المنازع في براعته ، والذي برهنت اعماله عن بغض عنيف لمحمد علي ، يجب علينا على الارجح ان نعزو مسؤولية السياسة الانكليزية .

« أليس من الغرابة بمكان رؤية سفير يعمل بدون امر من حكومته او يعمل عكس ما تأمر به ؟ بيد ان ذلك امر واقع ، والسير شارل نابير يشير الى ذلك اكثر من عشرين مرة في كتابه . والسيدان وود ومور اللذان اضرما نار الثورة في الجبل ما هما الا من الاحصاء المقربين من اللورد بونسونبي . فلماذا اذن لم يُستدعيا ؟ وعلى الرغم من ان الحكومة الانكليزية زُجت في المعترك رغماً عنها ، لم يكن باستطاعتها ، في الحالة التي كانت بها الاوضاع والخواطر ، ان تعنف سفيرها على تصرفاته فتستنكر ما نسب اليه . وهي لو فعلت لكان يعني ذلك تراجعها ، فضلاً عن ان اللورد بونسونبي عرض نفسه اكثر من مرة واحدة لتنبيهات قاسية توجهها اليه حكومته .

« اما الزعم بان وزارة حزب « وايغ » في لندرة قد دهشت لدى وقوع هذا الحادث فهذا كلام لا ريب فيه . ويمكننا ان نؤيد هذا القول بعدة براهين . وليس ثمة برهان على ذلك ابلغ من حالة الاسطول الانكليزي عند توقيع معاهدة ١٥ تموز وخلال الشهر الذي تلا هذا التوقيع . فعندما تلقى الاسطول الامر بالتحرك كان الفصل قد تقدم كثيراً ، وكانت السفن الانكليزية مبعثرة هنا وهنالك في البحر المتوسط . وكان الاميرال ستوبفورد في مالطة على رأس قسم من بوارجه . اما القسم الآخر فكان في فورلا . وكان السير شارل نابير عائداً مع بارجته الى مينائه القديم في ازمير حين التقى على شاطىء كاراماني المركب البخاري الذي امره بالتوجه للمرابطة امام بيروت . وكانت بحارة جميع هذه البوارج دون المعدل المطلوب عداً . وكان ينقص الدارعة « البرنسيس شارلوت » ربع بحارتها المسلحين المتأهبين للحرب . ولكي يجدوا الفاً وخمسماية بحار يقومون باعباء الحملة كان لا بد لهم من ان يفتشوا عنهم في جزر بحر ايونيا ومالطة وجبل طارق . وكان الاميرال النمسوي في ازمير يقود بارجة واحدة . امـا الاتراك ، وكان يتوجب عليهم على الاقل ان يكونوا في الخط الاول ، فلم يكونوا على اقل استعداد ، بل كانوا يفتقرون الى الرجال والبوارج والاعتدة .

« واليكم بياناً بما كانت تتألف منه قوات الدول المتحالفة في هذه المغامرة :

« كان الاسطول الانكليزي في البحر الابيض المتوسط يتألف من اثنتي عشرة بارجة قتال ، وثماني بوارج خفيفة ، وخمسة مراكب

بخارية . وقد أستقدم الف وخمسماية بحـــار على عدة بواخر نقل .
وكانت هذه الفرق المعدة للنزول الى الشـــاطيء بدون قائد .
فحملتهم سرعة العمليات البحرية التي قاموا بها على ان يعينوا
على رأسها ضابطاً كان يومذاك مريضاً في جبل طـــارق . فلم
يتمكن من الاتصال بها الا بعد انتهاء القتال الفعلي .

« اما الاسطول النمسوي الذي كان معقود اللواء للاميرال
بانديارا فكان يتألف من عمارتين كبيرتين ، ومركب ذي صاريين ،
ومركب بخاري . وقد تمكن هذا الاسطول من انزال مائة مدفعي
الى الشاطيء . وهذا هو النصيب الذي ساهمت به النمسا .

« اضف الى ذلك بارجة تركية كان يقودها القبطان ولكر ،
وهو من ابرز ربابنة البحرية البريطـانية . والبـارجة « فوكوارد »
التي كان يقودها قبل ان تصبح في خدمة تركيا ، تركت ذكريات
طيبة في سجل اعمال الاسطول الانكليزي . اما العمارة « مقدمة الخير »
التي كان يرفرف عليها علمه ، فقد كانت حسبما يقول السيـد
هنتر « رمزاً واضحـــاً لحالة المملكة العثمانية الحاضرة . كانت
عتيقة بالية تتصاعد اليها المياه من كل جـــانب ، ولا يجرؤ ان
يصعد عليها الا اشجع البحارة وابسلهم . » ومع ذلك فهي العمارة
الوحيدة التي بقيت للسلطان ، اذ ان جميع البوارج الأخرى قد
سلمت الى محمد علي على اثر خيانة رئيس الاسطول العثماني . وجد ولكر
بك هذه السفينة الحربية في مرفأ « سانتيجي » تتقاذفها الانواء ،
وكانوا يعتبرونها غير صالحة للابحار فاهملت منـذ عدة سنوات .
ولكن مقدرة هذا القائد وسعة علمه مكنتاه مـن اصلاحها قـدر
المستطاع ، فاقتادها حتى أرساها امام بيروت .

« اما البحارة فكانوا اغرب مزيج من المخلوقات يمكن ان يتصوره الانسان . اننا لا نستطيع تخيل هذا المزيج ونصوره ما لم نر بام العين اسواق القسطنطينية . فمن هنالك اتى هؤلاء البحارة . كانوا من الاتراك الحقيري البنية ، المضطربي الاعصاب ، التائهي النظرات ، ومن باعة الثلوج او الاسفنج ، ومن خدام الحمامات ، والبقالين الخ... وكان يبلغ عددهم حوالى الثمانماية رجل يضاف اليهم مائة رجل ذوي بنية اشد واكثر منهم تيهاً من طبقة الفلاحين والمتشردين . وعلى كل لم يكن بين هؤلاء اكثر من عشرين رجلاً سبق لهم ان نزلوا الى البحر . اجل ، مع هؤلاء البحارة التعساء قضى ولكر بك جميع لياليه مرتدياً ثيابه .

« وكانت تتبع هذه البارجة قافلة تقل اولى الفرق ، وهي تتألف من خمسة الاف وثلاثماية جندي تركي ، يقودهم الجنرال جوكنوس . ويقال ان هذا الرجل هو رجل ثوري شعبي من اصل هانوفري اخذ يطوف العالم مدافعاً عن الحرية ، على اثر خلاف حصل بينه وبين حكومة بلاده . ساهم في اعمال حملة البرتغال برتبة ضابط في معسكر دون بيدرو ، وظل ينتقل من مغامرة الى مغامرة حتى ادرك اخيراً القسطنطينية وتطوع فيها . وهو اليوم حائز على رتبة فريق او قائد فرقة . وفي عداد ضباطه واحد كان يدعى عمر بك ، وهو مرتد نمسوي انتدب اليوم حاكماً على لبنان . فهذا الرجل هو الذي كان سبب الحرب الاهلية التي خاضها الدروز والموارنة ، والذي اوقف بخساسة ومكر زعماء الدروز على اثر مأدبة دعاهم اليها .

« وكان سر عسكر هذه الجيوش ، وحاكم سوريا من قبل السلطان ،

عزت محمد باشا ، وقد اصبح مذ ذاك صدراً اعظم ، ثم فقد حظوته عند السلطان . وهو هو الذي دافع ببسالة عن « فارنا » ضد الروس ليكافئهم ما طمحوا اليه ثمناً اغلى ، على ما يقال . انه تركي من المدرسة القديمة ، يهيم بجمع المال . ففي اليوم الذي سقطت فيه بيروت كان اول ما فكر فيه ان يفرض على المدينة سلفة قدرها عشرون الف قرش تدفع ظهر اليوم التالي . والقومودور لا يحترمه بدليل ما كتب الى اللورد بالمرستون قال : « اذا كان جميع الباشوات كالذي اوفدوه الينا ، فالشعب ههنا سيكون اكثر بؤساً وتعاسة مما كان عليه في عهد محمد علي . » ثم استطرد يقول : « فهذا الباشا هو اقبح رجال العالم ، فاذا لم يبعدوه ، فما من شك بان كارثة ستحل . » بيد ان القدر شاء ان يحقق امنية القومودور . فما ان انتهت المعركة – وهي معركة واحدة اقتضتها جميع اعمال الحملة ضد ابراهيم باشا – حتى ابتهج الاتراك لظفر الانكليز ، فاخذوا يحيون نصرهم بطلقات نارية قوية . والباشا كان قدوة للناس في ابداء فرحه بلسان الرصاص والبارود . واتفق ان عثرت به فرسه ، فانطلقت رصاصة من مسدسه ، فاخترقت فخذه .

« فصاح القومودور : « يا للاسف ! ليته اطلق هذه الرصاصة على رأسه ! » فعاد عزت محمد باشا الى القسطنطينية ليتداوى . « بيد انه عندما ذهب ، يقول السيد هنتر ، استصحب صندوق مال الجيوش التركية . »

« تلك كانت جميع وسائل الدول المتحالفة . فالجيوش التركية التي وصلت على التوالي حتى بلغ عددها رقماً يراوح بين الخمسة عشر والثمانية عشر الف رجل ، لم تصل الا بعد الاستيلاء على عكا .

اما بروسيا وروسيا فلم تقدما شيئاً مــن البواخر والجنود ، ولم تدفعا فلساً واحداً ، ولا قدمت للجبليين الاسلحة الضرورية في بدء الاعمال الحربية . فلو كانت الوزارة الانكليزية ، وهي التي تحسن تقدير الامور وعواقبها وتعد لها العدة ، قد درست بتأنٍ وتبصر معاهدة ١٥ تموز ، والحملة التي نتجت عنها ، لما خاطرت بنفسها وسيّرت تلك القوات بهذه الاعتدة الهزيلة لتحارب عدواً كان يبدو انه قوي.

« واليكم بياناً بما كانت تتألف منه قوات نائب الملك :

« في مرفأ الاسكندرية كانت ترابط ثماني عشرة سفينة قتال ، وست بوارج كبيرة ، وحوالى عشرين عمارة خفيفة ، وعدد كبير من المراكب البخارية . وكان هذا الاسطول مسلحاً بعدته الكاملة . وكان بحارته على استعداد للحرب .

« اما سوريا فكان يعسكر فيها جيش يراوح عدد رجاله بين ثمانين وتسعين الف مقاتل ، منهم عشرة الاف خيال مجهزون احسن تجهيز . وكانت المدفعية التي تتألف من مائة وست وستين قطعة في حالة حسنة . واذا اضفنا الى هذا الجيش ما كان لدى ابراهيم باشا من الجنود غير المدربة ، يجب علينا ان نجعل عدد قواته مئة وعشرة الاف مقاتل[1] . وهذا عدد كاف لجيش قوي المعنويات لم يكن قد مني بعد باية هزيمة ، بل كان يحالفه الانتصار الباهر اينما حل وتوجه .

« وكان في مصر جيش ثان يتألف من حوالى اربعين الف رجل .

١ تبين من احصاء صحيح وضع في ايار عام ١٨٤٠ ان عدد الجنود المدربين في الجيوش المصرية التي نزلت آنذاك في سوريا قد بلغ ٦٦٢٤٠ جنديا . اما الجنود غير المدربين فقد بلغ عددهم ٥٧٠٠ جندي . وهكذا لم يتجاوز عدد الجيش الـ ٧٠٩٤٠ رجلا .

« ثم ان الباشا كان يقاتل في بلاده ، وهذه اسبقية يجب ان يحسب لها اكبر حساب ، فحالة الطقس كانت تلائمه وتساعده لانه الفها وتعودها . واخيراً ، فهناك اسطول فرنسي مرابط في تلك المنطقة وقد قام بعمليات ، عن قصد او عن غير قصد ، من شأنها ان تقلق الضباط الانكليز .

« فماذا نقول عن العمليات الحربية اذا سلمنا ان هنالك عمليات حقيقية ؟ ان الاميرال ستوبفورد ، الذي عينته الدول المتحالفة قائداً عاماً للقوات البحرية والبرية ، لم يتلق امراً واحداً . انه لم يتلق منها ما يرشده الى ما يجب ان يقوم به . فكان اقصى همومه ان يحتل مدينة ما ، يمكنه ان يقضي فيها مع بحارته وجنوده ايام الشتاء ليبدأ من ثم حملته عملياً في اوائل فصل الربيع من عام ١٨٤١ .

« ومع ذلك فهنالك اعمال يجب ان يقام بها اثناء هذه الايام الباقية ، ألا وهي اعداد الجبليين وتسليحهم . وخير نقطة تلائم هذا العمل هي مدينة بيروت ، ولكنها في يد سليمان باشا الرابض بها على رأس جيش يتألف من ١٢،٠٠٠ رجل ، فليُفتش اذن عن موقع آخر .

«على بعد ثلاثة فراسخ تقريباً ، شمالي بيروت ، يوجد خليج جونيه المنبسط عند اقدام اكمات وربى وعرة ، يحميه ، من جهة بيروت ، نهر الكلب الذي شق طريقه في وسط الجبال العالية والاودية التي لا تقطع . فعلى من يحاول قطع هذه الطريق الممتدة من بيروت الى جونيه ، ان يعبر على جسر ضيق معلق في الهواء ، يقع عند المصب . تستطيع عمارة او عمارتان ان تسد هذه الطريق بوجه

سليمان باشا ، فيتوجب عليه ، اذا شاء مهاجمة الجيوش النازلة في جونيه ، ان يتوغل في البلاد ليقوم بحركة التفاف واسعة النطاق تراوح مسافتها بين الخمسة عشر والعشرين فرسخاً .

« اختير خليج جونيه موقعاً لانزال الجيوش . ولاجل نجاح هذه الخطة قام الاسطول الانكليزي بمحاولة هجوم شكلية على بيروت ، فشغل سليمان باشا بالمدافعة عن هذه المدينة .

« كادت هذه الخطة المرسومة ان تنجح اكبر نجاح ، ولكن الاميرال ستوبفورد الذي اقلقه الاسطول الفرنسي وبوارج محمد علي – وكانت ثماني عشرة بارجة – ما لبث ان ابتعد عن الساحل مصطحباً قسماً كبيراً من اسطوله . وخلال غيبة السر شارل سميث ، وكان انذاك مريضاً وقيل انه كان منصرفاً الى وضع خطة علمية للعمليات التي بدأت ، ظل القومودور مرابطاً على شاطىء جونيه مع بضع عمارات ، وقيادة معسكر جونيه . ولكنه لم يضع وقته . فبينما كانوا يقومون بالتحصن حوله ، كان هو يوزع الاسلحة والذخائر على الجبليين . ثم بعث بوحدات من اسطوله لتهاجم جبيل والبترون وصور ، هذه الفرضات غير المحصنة . فسحقت مدفعية البوارج الحربية الحفنات القليلة من الالبانيين المنسيين وراء جدرانها ، لا المستعدين للدفاع عنها .

« واغتر الاميرال بهذه الانتصارات فحدثته نفسه بمهاجمة صيدا ، المدينة الهامة ، راجياً ، كما زينوا له ، ان تقضي فيها جيوشه فصل الشتاء . وهنا اشتدت المنافسة بين السر شارل نابير وقائد البارجة « ثوندرر » ، وهو سليل عائلة بركلي الشهيرة ، فطلب ان يقود هذه الحملة : انه لا يريد ان يترك شيئاً لسواه . وبعد قصف

صيدا بنيران المدافع حوالى نصف ساعة ، نزل الى البر على رأس فرقة تركية وفرقة من جنود البحرية ، فهزم الحامية المصرية .

« لم نمن في هذه المعارك بسوى خسائر طفيفــــة ، فالعدو لم يكن يظهر له اي اثر في مكان ما . وكان القومودور يلح على الاميرال بوجوب توسيع نطاق عملياته ، فاجابه السر روبـــير ستوبفورد : كلا . اخشى ان يعوزنا الحديد والنار . وخيرٌ من ذلك ان نحشد جيوشنا في نقطة معينة . اما القومودور فكان يرى غير هذا الرأي ، فاعتمد على كونه عين قائداً موقتاً للجيوش وتسلل الى الجبل .

« وبماذا كان يهتم حين ذاك ابراهيم باشا ؟ لا نعلم شيئاً عن هذا . فالعمليات ابتدأت في اوائل شهر آب ، وها نحن في اوائل تشرين الاول ، فماذا فعل خلال هذه الفترة ؟

« بينما كان الناس يعتقدون في اوروبا ، وهـــذا ما زاد القضية اشكالاً وتعقيداً ، انه يتوجه الى القسطنطينية على رأس ثمانين الف رجل تاركاً وراءه بعض الفرق لتحمي الجبل ، كان الباشا ، كما انبأتنا اخبار الاسكندرية اليومية ، يحشد جيوشه . فمن يستطيع التكهن اذن عن هذا العمل ، وعن غاية القائـــد الذي يعتبرونه ذا مقدرة حربية لا تضاهى؟

« ان قائد القوات المتحالفة لم يعلم الا حوالى اليوم الثامن من تشرين الاول ان ابراهيم باشا يزحف الى جونيه على رأس جيش صغير يتألف من ثلاثة آلاف رجل ، وهذا هو الجيش الذي استطاع ان يؤلفه ، بعد جهود شهر كامل ، من فلول جيشه الضخم .

« استغرب القومودور هذا النبأ كل الاستغراب ، وباشر من ثم

العمل حالاً . كان يتقدم نحو العدو ظاناً ان سليمان باشا على مقربة منه . وانه اذا اعطاه الوقت الكافي لينضم الى ابراهيم باشا فسيبلغ عدد جيشيهما خمسة عشر الف رجل . رأى انه يستطيع التغلب على ابراهيم باشا وحده ، وما من شك في ان نتيجة النصر ستؤثر على الجيش المصري المهدم المعنويات . فلاقى ابراهيم باشا على رأس جيش مؤلف من اربعة الاف رجل من الانكليز والاتراك والمصريين الفارين من الجندية .

« اقلقت بال الاميرال هذه الحركة الجريئة والمعقولة معاً ، فبعث الى القومودور برسائل يتلو بعضها بعضاً ، يسأله فيها بلهجة الرجاء والحب ان يحارب مندحراً . فكان جوابه دائماً : الى الامام .

« اوضح خطته للسر روبير ستوبفورد . ولكي يهدىء من روعه حدثه عن الانتصارات التي لاقاها الامير القاسم على المصريين . فاجابه الاميرال : ان الامير رجل شجاع ، ولكنكم تخاطرون كثيراً بنفسكم .

« لم يأبه القومودور نابير لهذه الاراء ، بل ازداد نشاطاً لان ظروفاً مؤاتية حثت خطاه . فالسر شارل سميث شفي من مرضه ، وعاد الى معسكر جونيه ليقوم باعباء القيادة . فلا بد ، اذ ذاك ، من تخليه له عنها . وهذا ما حدث فعلاً . فقد انبأه ستوبفورد بذلك وامره بالانسحاب ، ولكن الامر بلغه متأخراً ، فقد كان القائد الموقت قد صار وجهاً لوجه مع العدو في بحرصاف على قمة جبل ذي ثلاث طبقات . استحث السر شارل نابير جنوده ، وبعد فترة تردد فيها الاتراك ، استولى على الموقع . ففر ابراهيم باشا على رأس كتيبة من الخيالة ، ثم لم تر الجيوش المتحالفة وجهه الا بعد اعلان

الهدنة .

« انها معركة « مارينكو » ! هكذا سماها القومودور نابير الذي قام بها . لقد كلفته حوالى خمسين رجلا و كثيراً من ضروب البلاغة ، ومن بينها بلاغة العصا لاكراه الاتراك على التقدم على حد قوله في رسالة خاصة . ويروي السيد هنتر ان غيظه البالغ الحد دفعه الى ان يتناول بندقية ويبطح تركياً على الارض ليطلق رصاصها على صدره . ولكن الكولونيل هودجر ، وكان يومذاك قنصل انكلترا العام في الاسكندرية — وهو اليوم في همبورغ - ادار لحسن الحظ فم البندقية وانتزع سلاح القومودور الثائر . ولكن طبيعة التربة الكثيرة الحصى اعطته سلاحاً جديداً وهو الحجارة ، فاخذ يطارد بها الاتراك ، فتتساقط عليهم كأنها البرد . وما زال بهم حتى اذعنوا وانقادوا له . وعلى كل فالجنرال جوكنوس يقول ، في تقرير رفعه الى اللورد بونسونبي ، انهم وان لم يحاربوا كما حاربوا ايام سليمان الكبير فانهم لم يدخروا شيئاً من جهدهم في مطاردتهم المصريين . »

« وبعد القتال تلقى نابير امراً من الاميرال ستوبفورد يقول له فيه : « اطلب اليكم ان تتراجعوا الى جونيه لانكم لم تتقيدوا باوامري . »

« واخيراً عاد نابير فدخل جونية دخول الفاتح . وبعد ان صعد الى البارجة « بوفرفول » تنازل عن مهمة قيادة الجيوش للسر شارل سميث غير عابىء ، كما يقول السيد هنتر ، الا بالتحدث عن انتصاراته بعد عمل مضن ، ولم يبق يعنيه غير تدوين مواقيت الازمنة التي مر خلالها في سوريا .

« ثم اخذت قضية احتلال عكا تراود نفس القومودور ، ولكن

التحدث عنها لم يعجب الاميرال التركي ، فاحس شارل نابير بشيء من الضجر والسأم ، فاخذ يتنزه في الجبال التي وصفها لنا وصفاً جميلاً . واخيراً صدر الامر من انكلترة بوجوب مهاجة حصن سوريا الاساسي .

« اننا نعلم ما حدث بعد ذلك . والشيء الوحيد الذي لفت النظر هو ان هذا القائد – نابير – المكلف قيادة احدى فرق الاسطول غيّر من تلقاء نفسه وجهة الخطة التي قررها المجلس الحربي قبل يوم . اعجبته اراؤه الخاصة ، ولكن الاميرال الذي كان يخالفه في رأيه قد استقبله بأشد الجفاء بعد قيامه بهذا العمل كما شاء .

« اشتعل شارل نابير غيظاً وطلب ان يحاكم امام محكمة عسكرية . الا ان روبير ستوبفورد رفض هذا الطلب ، واوفده ، حين عجز عن اصلاحه ، للقيام بمحاصرة مرفأ الاسكندرية .

« وهنا تبدو الصورة الاكثر غرابة في جميع تصرفات هذا القائد خلال اعماله في هذه الغزوة . فما بلغ الشاطىء المصري حتى طلب مقابلة الباشا . وبدون اية تعليمات سابقة او تفويض ، او امر او استشارة شخص ما ، عقد معه اتفاقاً اعترف له فيه ، باسم القوى المتحالفة ، بوارثة الولاية على مصر ، شرط ان يرد الاسطول التركي ، وان تجلو الجيوش عن سوريا و كاندي (قبرص) والمدن المقدسة . وبعد هذا الحادث رجع نابير ، على متن الـ « بوفرفول » ، الى خليج مارماريس لينتظر فيه بهدوء العاصفة التي اثيرت حول تصرفاته غير الشرعية .

« كانت العاصفة شديدة للغاية . فقد اجابه السر شارل سميث الملقاة على عاتقه مهمة القيام بالحملة ، في رسالة جافة ، على ما وصلت

اليه مفاوضاته كما لو كان كلف ذلك . وانكر السيد روبير ستوبفورد الذي اتعبته تصرفات نابير الغريبة جميع ما اتى به من اعمال . ولم تسر سفراء الدول الاربعة في القسطنطينية تصرفات بحري تطاول على حقوقهم فقاموا يناصبونه العداء . ورفض الديوان الهمايوني الذي كان ينتظر انهيار محمد علي ما اقره شارل نابير في مفاوضته . واشد هؤلاء المعترضين غضباً كان اللورد بونسوني الذي يكن حقداً اعمى لنائب الملك فقال في ذلك : احاطوا بهذا القومودور الشيخ من كل جهة فغلبوه على امره ، اما انا فاني لن اتراجع ابداً .

« يقول السيد هنتر : « سمعهم هذا الشيخ الباسل ، اكثر من مرة ، ينعتونه بالقرصان . انهم لم يتحرجوا يومئذ في اطلاق كل صفة قاسية عليه . كادوا يقولون : ان مشنقة غير عالية كثيراً تكفي لشنقه . ومع ذلك فلكي اعيد ما كان يحدث به نفسه ، وهو يتنشق سعوطه بهدوء ، اقول : انه لم يبال بهذه العاصفة الهوجاء قط ، وقد كان يعلم كل العلم ان مفاوضاته ستؤيد في لندرة . وقد حقق الزمن ما تنبأ به . »

« كانت دول اوروبا قلقة مذعورة من جراء الحوادث التي كان شاطىء سوريا مسرحاً لها . فهي تريد ، مهما كلفها الامر ، وضع حد لها . فالسر شارل نابير لم يخطىء اذن عندما باشر مفاوضاته . الا ان اللورد بالمرستون لم يجرؤ ان يؤيد تأييداً صريحاً طريقة تصرفاته غير الشرعية . وفضلاً عن ذلك فانه لم يلمه على عمله . وبالاتفاق مع السيد ماتيرنيخ امر سفيره ان يفاوض على الاسس التي وضعها القومودور . وبالواقع كانت مفاوضات نابير اسس

المعاهدات التي حددت بعد ذاك موقف محمد علي . ولقد سر السر شارل نابير بان يُوفد الى مصر مع ولده الليوتنان كولونيل نابير لينولى بنفسه السهر على تنفيذ هذه المعاهدة . »

هكذا انتهت حملة سوريا . وهنا ، على ما يرجح ، ينتهي حديث القومودور . وعلى كل فقد خصص اكثر من نصف جزء من كتابه ليدل على القليل من الارادة الطيبة ، واذا احسنا التعبير قلنا : على القليل من حسن النية التي اظهرها اللورد بونسونبي نحو حكومته في المفاوضات التي كلف القيام بها . الا اننا نجد هنالك بضع صفحات ممتعة عن تقارير دورية مليئة بالادعاءات كان الجنرال جوكنوس يوجهها الى الديوان ، ليؤكد له انه يقضي على ابراهيم باشا في يوم واحد . اما السر شارل نابير فقد اظهر سخافة جميع العمليات التي كان يصفها جوكنوس في تقاريره وصفاً فخماً ويبعث بها الى الديوان . وبيّن ان الجيوش التركية لم تصطدم اصطداماً فعليا ، ولو مرة واحدة ، مع ابراهيم باشا ، ثم ختم كلامه قائلاً : « وهذا الجيش الذي يربو عدده على المائة الف جندي ، ويبلغ مع النساء والاولاد اكثر من مائتي الف نسمة ، لم يدخل منه مصر اكثر من ثلاثين الف شخص . ان مجموع من فقدناهم في الحرب لا يتعدى الاربعة الاف رجل ؟ فماذا حل بالباقين [1] ؟ »

وبعد احتلال سوريا تداولت لبنان اشد العجائب واقساها . فرغم السكينة التي ظهرت في الجبل لم يتمكن الاهلون ان ينعموا

[1] ان القسم الاكبر من النساء والاولاد ، وعدداً لا يحصى من الذين فروا من الجندية ، ظلوا في البلدان الجنوبية التي تشابه تماماً بلدان مصر . وعلى كل فيجب ان لا ننسى انه بولغ كثيراً فيما ذكر من عدد جنود ابراهيم باشا .

براحة حقيقية ، فكانوا دائماً عرضة للاهوال المخيفة .

اما سوريا فلم تكن اكثر سعادة من لبنان . كان الحاكم يعامل رعاياه بقساوة متناهية ، ويرهقهم بفرضه الضرائب الثقيلة ، وينكر عليهم حقوقهم . وكان ممثلوه يعاملون هذا الشعب بلامبالاة مفرطة .

قالوا ان الاتراك نشروا المدنية . ولكنه يمكنني ان اؤكد ان شيئاً من هذا لم يكن في سوريا .

اني اقيم في هذا البلد منذ اكثر من اربعين سنة ، وغيابي عنه مرات مكنني من اجادة الحكم عليه . فانا لم ارَ أي تغيير الا في مظهر الذين يقدمون من القسطنطينية . ذلك ان اتراك سوريا لم يتطوروا في شيء حتى في البستهم . اما اولئك الذين كانوا يتكلفون الظهور بمظهر اوروبي ، فقد آنسونا اذ اباحوا لانفسهم الجلوس على موائدنا ، ولكن بعد ان اتبعوا العادات التركية التي يحسنون التفريق بينها وبين العادات الفرنسية . فالشرب على الطريقة الاوروبية يعني الاكتفاء بتناول بعض كؤوس من الخمر . اما « الكيف » فيعني عندهم شرب العرق والخمرة قبل الاكل ، وتناول جميع الخمور التي تقدم على الخوان ، ثم الانسحاب قبل ان يقوم المؤاكلون ، والجلوس على ديوان مع بقية من القابلية للتدخين ، وتناول القهوة خشية ان تكب على الصدرية . فالاتراك اصبحوا يلبسون الصدرية بعد الاصلاحات التي قاموا بها .

اما اعمال الادارة وما يتعلق بها فلا تزال سيئة كما كانت عليه قديماً . ومناهج القضاء لم تتغير ، سواء أكان ذلك في اساليب احقاق الحق او الانحراف عنه .

ان اصح كلمة تقال ، للدلالة على الآلام التي لاقتها شعوب

سوريا ، هي انهم اخذوا يتأسفون على عهد المصريين ، تلك الفترة التعسة التي سبق لي ان وصفتها فيما كتبته . ان تعاسات زمن ولّى وراح تفقد دائماً الكثير من طابعها المخيف . والانسان لا يتألم ولا يشكو الا مما يعانيه في الساعة التي هو فيها .

ملحق

الامير بشير

هذه مقتطفات من مقال شائق كتبه السيد اوجين بوربه عن الامير بشير ، ننقلها هنا لانها تتمّ وتؤيد احكامنا على الامير بشير الشهير ، وما جرى في عهده من احداث جسام كانت له في توجيهها اليد الطولى .

لا مشاحة في ان الامير بشير هو احدى الشخصيات التي تهمّ تاريخ الشرق المعاصر اكثر من سواها . فما من رحالة طاف في انحاء سوريا ، منذ نصف قرن خلا ، الا تناول بتفصيل او باقتضاب حياة شيخ الجبل الذي جعلته حوادث عام ١٨٤٠ شهيراً كل الشهرة في اوروبا . قد يكون تكرار ما قيل حول القضايا الخاصة ، التي تخللت حياته الطويلة المضطربة ، امراً تافهاً ، ولكن بعض الغموض الذي يحيط في الشرق بالاشخاص والاشياء قد اكتنف قسماً كبيراً منها ، فدعانا الى ذكرها لنطّلع بدقة على حقيقة هذه الشخصية التي تنازعها اعجاب البعض ولوم البعض الآخر ، فأدى الامر الى اصدار احكام متناقضة عليها .

ان التناقض وعدم الاستقرار في الرأي العام هما نصيب اولئك الرجال المفارد الذين ينجمون في بلاد تمزقها المنازعات والثورات

الاهلية . فمؤيدو الامير يرفعون قدره مندفعين بالحماسة عينها التي يحط بها اخصامه من مقامه . فالمؤيدون يرون في الامير بشير بطلاً عظيماً ، والمعارضون يرون فيه سفاحاً زنيماً .

ولعل ما يقرب من الحقيقة هو التوسط والاعتدال بين هذين الرأيين اللذين هما على طرفي نقيض . فاذا شئنا ان نحكم على الامير منصفين وجب علينا ، قبل كل شيء ، ان نراعي طبيعة المكان ، وحرج موقفه في الساعة التي كان فيها سيد الموقف بين شعب مختلف الميول والاهواء .

ما ابعد الفرق بين الشرق الذي يضم شعوباً وطوائف مختلفة ، وبين البلدان الاوروبية التي تخضع لنظام واحد ، فما يعدونه هنالك تسامحا وحلماً يعد ههنا ضعفاً وجبناً . والعنف الذي يرونـه في اوروبا ظلماً قد كان ، منذ بضع سنوات في الشرق ، عدالة مثلى تطبق وفقاً للعرف والتقليد .

وبعد هذا فلست اخشى ان ينسب إلي التحامل او التحيز اذ ان أبهة السلطة وهالة جلالها قد فارقتا امير الموارنة ، ولم يعد يحيط به اليوم شيء منها . فزوال نفوذه ، وانهيار مكانته ، ونفيه اظهرت جلياً كل ما يزين هذا الامير من صفات طيبة وما يشينه من مساوىء . اجل ، لم يبق له الا مصائب ذنوبه ، او رونق خصاله الحميدة .

ان الامير شريف النسب وهو ابن بيت عتيق مجده . فاسلافه كانوا سادة قبيلة كثيرة الرجال . خرجت هذه القبيلة من الحجاز (مقاطعة من جزيرة بلاد العرب) واستقرت في حوران في فترة يصعب علينا تعيينها بالضبط . ليس لدينـا عن اصل الامير الا

معلومات غامضة مبهمة جمّلها خيال الشعراء الذين يتقربون من الامراء الشرقيين، ويقومون في بلاطهم بما كان يقوم به شعراؤنا الجوّالون .

فقصائدهم التي تغنوا فيها بمدح الامير تشير الى ان هذه القبيلة، قبيلة بني مخزوم، قد هاجمت الفرنسيين، وانتزعت من ايديهم حاصبيا . كان ذلك، بلا ريب، حين كان الصليبيون يسيطرون على سوريا. وقد امتاز احد شيوخ بني مخزوم بوجه وسيم وضاء، وكان عظيم المهابة، فلقب بالشهاب . ثم ما لبثت القبيلة ان لقبت بهذا الاسم الذي تعرف به أسرة الامير . وهنالك أناس آخرون يردّون اصل هذا الاسم الى عصور قديمة جداً، فيزعمون ان كلمة شهاب لقب بها رجل يدعى عبدالله، حين أبلى بلاءً حسناً على عهد الخليفة ابي بكر في اثناء حصار دمشق[1] .

ومهما يكن من امر فبوسعنا التأكيد ان آل شهاب كانوا في الاصل مسلمين، وان الفرع الذي تتحدر منه اسرة الامير اعتنق الدين المسيحي بعد زمن طويل .

كان آل شهاب، منذ قرنين، اصحاب السيادة المطلقة في الجبل . انتقل اليهم هذا الحق بالوراثة عن المعنيّين . فاحد امراء هذه العائلة، وهو فخر الدين، استطاع قديماً ان يكتسب شهرةً اوروبية نظراً لتصرفاته المهذبة، وروح التساهل التي ساس بها رعاياه المسيحيين، حتى حمل هذا التسامح احد المؤرخين المسلمين على اتهامه بدعوة الناس سرّاً الى اعتناق الدين المسيحي . وزعم

[1] لامرتين، رحلة الى الشرق، معلومات عن الامير بشير .

احدهم ان فخر الدين قتل ، بناءً على هذه التهمة ، بأمر من مراد الرابع ، نيرون السلاطين ، الذي قتل بيده ، او ذبح امام عينيه ، خلال السبعة عشر عاماً التي ولي فيها الحكم ، اربعة عشر الف رجل وامرأة .

خلف فخر الدين الاميرُ احمد ، ابن اخيه لا ابنه كما روى بعضهم ، لان ابا هذا الاخير هو الامير يونس ، شقيق فخر الدين ، فكان آخر امير معنيّ . ثم دعي الى تولي الاحكام في الجبل زعيم شهابي اسمه بشير لانه اقرب الناس الى اسرة معن المنقرضة . وبعد انقضاء تسع سنوات خلفه الامير حيدر الشهابي ، فدامت ولايته اربعة وعشرين عاماً . ثم انتقلت الى ابنه ملحم فلم ينعم بالسلطة الا سنة واحدة . ثم قسمت بين اخويه احمد ومنصور . بيد ان احمد ما لبث ان نُحّي ، فاستقل منصور بالحكم طوال سبعة عشر عاماً لا ينازعه فيه منازع .

كان لملحم ولد لا يستطيع ان يخلفه ، لصغر سنه ، ولكن صفات هذا الفتى الطيبة كانت تؤهّله لتولي الحكم ، فانتظر رجاله الاقوياء المخلصون الساعة التي يخلو له فيها المكان الذي يشغله عمه ليحملوا الناس على الاعتراف بحقوقه .

وخلال هذه الفترة ولد في غزير ، في كانون الثاني ١٧٦٧ ، الامير بشير الذي نتكلم عنه ههنا . فهو ابن الامير قاسم المسيحي ، وقد قبل بشير نفسه سر العماد المقدس في تلك القصبة ، وعمّده فيها مرسل لاتينيّ من الآباء الكبوشيين . وهذا الحدث يضع حدّاً لمن يشك بمعتقد الامير ، لا بل للذين زعموا انه لم يكن مسيحياً قط . ونرى لزاماً علينا هنا ان ننزع عنه هذه الصبغة الحزبية وهي

التلبس بجميع الاديان ، وانتحال جميع المذاهب . ان ذلك لم يكن غير قناع سياسي يظهر الملأ من خلاله انه يدين بكل المعتقدات ، بينا هو في الواقع براء منها جميعاً .

اذا عدّ غيرنا هذا العمل مهارةً ودهاءً فنحن لا نرى فيه الا التستر بالرياء الشائن ، والخبث المخجل . فـالقلب هو الذي يصنع الرجال . والقلب لا يكون كبيراً الا بايمانه ، او بقوة معتقده الديني ، مهما يكن شعار ذلك الدين . ان اللامبالاة الفلسفية لم تكن بعد قد تسرّبت الى المجتمع الشرقي . فما من احد كان يجرؤ فيه على التباهي والافتخار بانه يعيش دون مبدإ او هدف وسط الاوهام وخرافات الجحود الغامضة . فالشرق مهبط الوحي يفاخر بانه كان دائماً مهد الرسل وموطن الانبياء . ولهذا كان لا بدّ من مذهب لكل شرقي ، فيتبعه ويعمل بتعاليم النبي الذي هو على دينه . اما مذهب اختيار الاراء المستحسنة ونبذ الأخرى فلم يكن قد تسرّب بعد الى الشرق . فلو كان الامير ، على حد قول لامرتين [1] ، يدين بجميع ديانات بلاده ، اي انه مسلم امام المسلمين ، ودرزي امام الدروز ، ومسيحي امام المسيحيين ، لما كان تمكن من حكم المسلمين والدروز والمسيحيين في وقت معاً ، لان جميع هؤلاء كانوا يظهرون له احتقاراً واحداً .

انه لم يأت عملاً يحمل على الشك بدينه الحقيقي الا مرة واحدة في حياته ، ولكن حسن نيته يحملنا على ان نغفر له ذلك . واذا قلنا هذا فلا يعني ذلك اننا نريـد اقناع المؤمنين بانه كان

١ رحلة الى الشرق ، مجموعة المؤلفات ، ص ٦٦ ، بروكسل ١٨٣٦ .

مثالاً يقتدى به في حرارة تقواه حين كان سيد الجبل ، او ان جميع تصرفاته السياسية يمكن تبريرها من الوجهة الدينية المسيحية . فمن منـــا يجهل الفتور ، والبذخ ، والاهوال ، وجميع الشؤون التي يتطلبها التنعم بالحكم ؟ من يمكنه ان يوفق بين تعاليم الانجيل وما تبشر به من بساطة ورحمة ، وبين ما يتطلبه فن الحكم من تصرفات عنيفة قاسية تشكك الناس ؟

ثم اننـــا نعلم ان احد مرشديه الروحيين قد عنّفه وبكّته على ظلمه وبغيه ، وابى ان يظل مرشداً روحيًا له . جرى هذا الحادث يوم كان الامير قد بلغ ذروة مجده . وهذا يدلنا على انه لم يكن يؤمن بديانته فقط ، كما يظن ، لسوء الحظ ، كثير من المسيحيين ، بل كان ايضاً مسيحياً ممارساً . والمقربون منه لم يكونوا يشكّون بذلك قط . والموارنة لم ينظروا اليه كزعيم وطنيّ ، بل عدّوه اميراً كاثوليكياً . وهذا ما جعلهم يثبتون على التعلق به وباسرته . وهذه الميزة التي تحلى بها الامير تدلنا عـــلى سبب معارضة هؤلاء وكراهيتهم الدول المسيحية الـــتي قوّضت سلطان الامير .

ان حكم لامرتين المخطىء هو نتيجة احساس شخصيّ اعرب عنه حين نشر كتابه رحلة الى لبنان ...

. . . .

وفي الخامس من شهر نوار ، في السنة نفسها التي ولد فيهـــا الامير بشير ، توفي والده الامير قاسم فاصبح بشير يتيماً منـــذ ولادته ، لان امه تزوجت بعد انقضاء بضع سنوات من احد افراد اسرة شهاب . ومتى عرفنا هذا ، سهل علينا الحكم على قيمة تربيته

الاولى المهملة تقريباً . ان النشأة الاولى تتصل اتصالاً وثيقاً بحياتنا ، فللتوجيه الاولي اثر فعال في مستقبل الرجال . اجل، اذا عرفنا ان الفتى بشيراً كان مهملاً تقريباً ، سهل علينا ان ندرك مقدار طموح من استطاع بباعه وذراعه ان يبلغ قمة المجد .

تلك هي حقيقة الامير بشير . كان هـذا الرجل العصامي لا يحتاج الى احد ، وكان واثقاً مـن نفسه ، يدرك مدى مقدرتها الغريبة . فلما ان بلغ من عمره العام الثالث عشر حتى عزم على مغادرة البيت الذي رأى فيه النور . وقد آلمه جداً فراقه لشقيقه حسن واخته الحبيبة اليه .

ان موت ابيه المبكر جعل اثاث البيت زهيداً جداً . فعندما طالب بما يصيبه من إرث ، كانت حصته سريراً وبضع أوان تكاد لا تكون حمل جمل . سار على بركة الله واستصحب خادمته ، وهي عبدة عجوز . وبهذه العدة مشى ينشد الثروة .

وتشاء احدى الصدف الغريبة ان تقوده ، بادىء ذي بدء ، الى بتدين ، الى المكان الذي انقلب فيـه البيت الحقير الذي استأجره الى قصر مغربي كبير ، ذي ابراج تخترقها القناطر ، وأروقة ، ودور مزينـة بالاعمدة ، وقاعات مبلطة بالرخام ، ونوافير مياه صاخبة ، واسطبلات تضم المئات من الخيول العربية ، وخدم وحشم يرتدون افخر الثياب واغلاها : انه قصر بيت الدين .

وفي تلك الفترة التي كان يتقدم بها نابوليون على رأس جيشه الى عكا ، حاول القائد الفرنسي محالفة الامير ، لانه كان يقدّر قيمة المساعدة التي يسعه ان يقدمها له اذا ما وفّق الى استمالته اليه .

لاموا الامير لانه لم يعر هذه التمهيدات اذناً صاغية . بيد ان الحكمة كانت تقضي عليه بالتريّث ، منتظراً ما ستسفر عنه المعركة النابليونية الاولى . فلو استولى بونابرت على قلعة عكا لكان اصبح سيد الجبل ، لان جميع المسيحيين كانوا يؤيدونه سرّاً . فتظاهرهم كان يعرّضهم لاشد المظالم تلحقها بهم السلطات التركية لو درت بذلك . ولهذا حافظ الامير على الحياد التام ، وتقبّل ، بامتنان وعرفان الجميل ، البندقية التي حملها اليه الكولونيل ساباستياني الشاب . اما الرسائل الموجهة من الامير بشير الى القائد العام (نابليون) فهي من صنع جرجس باز ، وقد كتبها بدون علم الامير ، فاقام دليلاً جديداً على ما اتصف به من رياء . ولكنه دفع غالياً ثمن هذه الخطيئة وثمن الاخطاء الاخرى التي ارتكبها شخصياً .

وحوالى تلك الفترة نفسها تزوج الامير من ارملة امير مسلم ، وكانت ذات ثروة ضخمة . واذا شئنا ان نصدق بعض ما يشاع ويذاع[1] قلنا ان شائبة مخزية تشوب هذا الزواج الاثيم ، لان الزوج ، حسبما قيل ، قتل في ساعة ثار بها الهوى الجشع ، واسفر عن اغتصاب المرأة وثروتها ، بعد ان اكرهت على التنصر لحجب هذه الجريمة تحت ستار ديني باطل .

ان الوقائع تنفي هذه الافتراضات وتكذّبها . فالست حبوس[2] ، وهذا هو اسم الارملة ، ولدت مسيحية ، فاجبرها زوجها الاول ،

١ رحلة الى الشرق ، مجموعة المؤلفات ، ص ٦٨ ، بروكسل ١٨٣٦ .
٢ اما زوجة الامير بشير الاولى التي يعنيها الكاتب هنا فاسمها الحقيقي شمس . — المعرب .

واسمه بشير ، على الارتداد عن النصرانية لانه كان مسلماً . واذا كان قد سبق لها ان ساهمت ، مدفوعة بكرم نفسها ، في دفع فدية هذا الامير الذي سجنه الباشا ، فما كان ذلك الا بناء على توسلات الشيخ بشير (جنبلاط) ، وزير الامير بشير واسترحامه .

فالامير بشير قاسم لم يكن قد عرفها من قبل . وهكذا وقع الالتباس في الاسماء . وعندما كلف بمصادرة اموال زوجها ، بعد ان قتله الباشا ، تسنّى له ان يرى هذه الارملة ويحادثها . كانت تبلغ من العمر ثلاثين سنة تقريباً ، ولها ابنتان اعتنقتا الدين المسيحي . وعندما ادهشته صفاتها الشخصية ، وقد زادها روعة وجمالاً وقعُ المصاب ، عرض عليها ان يتزوج منها ، فكان الجواب ان بسطت احد اطراف فسطانها ، وسمحت للامير ان يقوم ، وهو راكع ، بصلاته . انه شبه اعتراف ديني يتمّمون به وعداً بالزواج في هذه البلدان ، حيث لا يزالون يحافظون على عادات عهد التوراة (!!) ، أو لم تقل راعوث لبوعز : « انا راعوث امتك ، فابسط ذيل ثوبك على امتك لانك وليّ » ؟ وبهذا المعنى ايضاً يكلم الرب اورشليم بلسان نبيّه : « فبسطت ذيل ثوبي عليك وسترت عورتك ، وحلفت لك ، ودخلت معك في عهد ، فصرت لي . »

ان الست حبوس التي تزوجت من كاثوليكي رجعت من تلقاء نفسها الى ممارسة الديانة التي أكرهت على تركها . ومنها رزق الامير اولاده الثلاثة : امين ، وخليل ، وقاسم .

وكان ان بعث اولاد الامير يوسف ومدبّرهم جرجس باز بوشايات كاذبة ، اوقعت الريبة في نفس الباشا ، فغضب على الامير غضباً شديداً . فاخذ الامير ينتظر نفياً جديداً يشبه بقساوته النفي

الذي لاقى آلامه في سجن قلعة عكا .

وكان الاميرال سيدني سميث يرابط حينذاك باسطوله امام شواطىء سوريا ، فطلب منه الامير ان ينقله الى مصر ، فقابل طلبه بلطف متناه واقتاده ، بادىء ذي بدء ، الى مالطة .

ما أغرب الشبه بين هذا النفي الاختياري الذي كان سبب نجاته ، نظراً لما اتصف به هذا الاميرال الانكليزي من صدق واخلاص ، وذلك النفي القسريّ الذي دفعه نحو تلك الجزيرة نفسها بعد اربعين سنة من ذلك التاريخ ، وقد ضعضعته وهدمته خيانة ستوبفورد !

ولما جاء مصر اضافه محمد علي برحابة صدر . وبعد ان ابقاه الى جانبه مدة طويلة ، ليعرفه حق المعرفة ، بعث به على ظهر باخرة انكليزية الى عكا وحمّله كتاباً الى الجزّار . كان هذا الكتاب يبرر تصرفات الامير ويقضي على الباشا نوعاً ما ان يعيد اليه حكم الجبل . فمحمد علي كان يفكر حينذاك ببسط نفوذه ذات يوم على هذه الاقطار ، وقد اخذ يفتش عن عضد ، تدفعه رابطة مزدوجة هي رابطة المصلحة وعرفان الجميل على مؤازرته والعمل في سبيل قضيته . انه لم يخطىء فيما كان يرمي اليه . بيد ان هذا التعلق بباشا مصر ، آنذاك ، استحال ، فيما بعد ، حجة على الامير لدك سلطانه وتقويضه .

اهتم الجزار باشا بتوصية محمد علي ، فعاد الامير الى ادارة الشؤون . فبرهن بشير عن كثير من المهارة والدهاء والحكمة . فهدأت جميع الخواطر ، وساد الجبل أمان عميق . فالمنازعات المتواصلة التي كانت تفرقه ، والاضطرابات التي كانت تدميه ، لم تكن الا دليلاً على المصاعب الناتجة عن ادارة بلاد كتّلت فيها الثورات شعوباً مختلفة يتنازعها تنافس المعتقدات واختلاف المصالح . ثم ما

لبث ان مات الجزار ، فحل محله سليمان باشا ، وهو رجل معتدل بذل جهوداً كبيرة في سبيل استتباب الهدوء والسكينة بين شعوب لبنان .

ان الولد الذي تركه الامير رهينة عند الجزار أعيد اليه . ولما كانت عائلته قد اخذت تزداد عدداً باشر حينذاك القيام باعمال بناء واسعة النطاق جعلت من بيت الدين مقراً يليق حقاً بامير . شيد فيها القصور له ولاولاده ، ولاولاد اخيه ، وكان البناء بديعاً للغاية . ان هذه البقعة القاحلة بطبيعتها ، لان شمساً حادة تكويها ، لم تفتقر الا الى مياه لتكتسب طراوة وتخصب ارضها ، وينعم اهلوها ببعض الرفاه ، ناهيك بان الاسرة الاميرية قد تعودت الاكثار من الاستحمام ، وهذا يتطلب مياهاً وافرة ، فجرها اليها من الباروك [1] التي تبعد عنها حوالى ست ساعات .

جرّت هذه المياه العذبة في مجار واقنية تمر في اراض كان قد سبق له ان اشتراها ليحول دون المنازعات . بكى الملاكون عقاراتهم التي اخترقتها الاقنية ، ولكنهم فرحوا بعدئذ وسروا بما جرته اليهم من نفع عندما رأوا الارض القاحلة تستحيل بساتين وكروماً ، وتحل محل الاودية ذات الحصى اراض صالحة للزراعة ، زاد في غلتها وريعها نشاط الاهلين الذين لا يعرفون الكلل .

لم نكن نجد حينذاك طاحوناً ما تفضل طاحونة مدينة دير القمر الصغيرة . وازدهرت تجارة الحرير فغرست تلك الجبال توتاً حين استطاع الشعب ان يسقيه .

[1] الواقع ان مياه قصر بيت الدين هي من نبع الصفا . – المعرب .

ولكن خميرة [الثورة] والفتنة لم تبارح قط نفس ابني عمه حسين وسعد الدين ، ولدي الامير يوسف ، فحاول هذان الاميران الشابان العصيان مرة اخرى . الا ان الامير بشيراً تمكن من القبض عليهما ، ففقأ اعينهما . وهذه هي احدى الجرائم الفظيعة التي لاموا الامير عليها ، وحق لهم اللوم .. بيد ان هذه العادة البربرية المتبعة للتخلص من نفوذ خصم سياسي ، او من طامح الى الحكم ، لم تكن حينذاك لتثير ، في هذه البقعة من الشرق ، التقزز والهلع اللذين تثيرهما اليوم ، بعد ان تسربت مبادىء المدنية الانسانية الى الشرق ، واخذ يعمل على تعديل نظمه .

كان ذلك النوع من العقوبة نوعاً ألفه امبراطرة بيزنطة ، وما زال يعمل به في بلاد العجم ، وهم يعتبرونه دون عقوبة الموت عنفاً من الوجهة الانسانية . فما من شك في ان الامير ، بسلوكه هذا المسلك مع منافسيه ، قد ظن انه يقدم برهاناً على حلمه ورحمته . ولكنه كان اشد قسوة تجاه جرجس باز وصيّهما الذي تبين انه كان اعظم ذنباً منهما ، كما تدل الظواهر ، فحكم عليه بالموت .

لا جدال في ان الامير قد اساء الى سمعته حين نفذ مثل هذا الحكم في بلد تجتمع فيه السلطة التنفيذية والسلطات الاخرى في يد واحدة . فالحكم الذي يصدر في غير هذه الربوع تهتم بتنظيمه محكمة خاصة ، فيكون محترماً ، لانه يظل قابلاً للطعن فيه ، ومعرضاً للنقض ايضاً .

وفي الفترة التي تلت ذلك من حكمه وقف الامير منا موقف جفاء ، وهذا ما حمل بعضهم على ان يصوروه لنا سفاحاً صغيراً لا يعنيه الا تنظيم جدول باسماء من سيقتلهم بدون محاكمة ، تاركاً

المكان خالياً خاوياً حوله[1] .

لنكن عادلين . أوليس علينا ان ننحي باللائمة على فساد طريقة الحكم اكثر من لومنـــا القائمين به ؟ فهذه السلطة المطلقة غير المراقبة التي تلعب كيفما شاءت بحياة الرجال ، كانت ، حتى هذه السنوات الاخيرة ، السبب الاساسي لكثير من المظالم التي اساءت الى سمعة الشرق .

ان بوناً شاسعاً كان يفصل الباشوات والحكام الاتراك عن الرعية . كانوا ينظرون اليهم نظرتهم الى رجال سفلة يمكنهم ان يظلموهم وفقاً لرغبتهم ومشيئتهم . فرجالات الحكم لم يكونوا قد استقوا بعد ، من احتكاكهم باوروبا ، هذه المبادىء الانسانية التي حوّرت تفكيرهم ، فيما بعد ، لحسن الحظ ، وجعلتهم يتقيدون بشريعة العدالة المسيحية الاولى . لم يكن بوسعهم ان يوحوا الى ممثليهم اتباع ادارة ملائمة . ثم ان البخار لم يكن قد ربط بعد بين مختلف اطراف هذه المملكة الشاسعة ، فيمكن موافاتها او تزويدها بالمعلومات باسرع ما يمكن وبدقة كليّة .

ان دور الطباعة السياسية لم تكن قد وجدت ، بعد ، لتفضح المظالم . والحاكم الذي يريد ان يتحرّى الحقيقة كانت تحف بـــه حاشية قابلة للرشوة ، فخدعته وأبقته في جهل لا يقهر . اضف الى ذلك نشوة التنعم بالسلطة ، وعلى الاخص حين تُدرك بعد التنازع عليها طويلاً . فاذا ما نظرنا الى كل هـــذه الاسباب امكننا ، عند ذاك ، ان نفهم بسهولة كيف اقتيد الامير الى منحدر قلق

[1] ميشو وبوجولا ، رسائل شرقية ، ج ٧ ، ص ٣٥٢ .

المجاز ، سريع المزالق .

جاء في هذه المناسبة احد مرسلينا ، وهو افرنسي عازاري ، ليقوم برسالته في هذه البقعة ، ورسالته ، كما هي في جميع بقاع العالم ، رسالة مدنية ومحبة . ولما رأى ما رأى من جور اعمال الامير ، والقساوة البالغة الحد ، تجرّأ ولامه على عمله ، ولكن ارشادات هذا المرسل ذهبت عبثاً ، فاحجم عن القيام برسالته في بلد الامير لئلا يلصق الشعب بالدين تلك الاخطاء التي يرتكبها الامير ، مع ان دينه يشجبها ويستنكرها .

وحدث ذات مرة ان بعث باشا دمشق احد الجباة ليستوفي الضرائب والعشر . فما دخل احدى القرى الخاضعة للامير حتى اخذ يعامل اهليها بقساوة وعنف . فشكا الامير الى عبد الله باشا هذا التعدّي الفظيع ، فطلب عبد الله باشا التعويضات من باشا دمشق . ولما ابطأ عليه في ادائها قرر ان يجبره على ذلك بقوة السلاح مدفوعاً بطموحه الى بسط سلطانه على سوريا ، فاقتضت الحال ان لا يعتزل امير لبنان هذه الحرب .

مشى الامير على رأس عشرة الاف رجل الى دمشق ، مخدوعاً بالفرمان الذي زوّره عبدالله باشا ، ومصدّقاً ان باشا دمشق معزول من رتبته وولايته . ولولا هذه الخدعة لما انقاد سيد الجبل المسيحي لهذه الاعمال الطائشة التي كادت تؤدي به الى محاربة الباب العالي نفسه . الا ان باشا دمشق عرف كيف يحافظ على سلطانه ومقامه امام اعضاء الديوان الملكي الذين كانوا آنذاك يتصرفون بجميع مراكز المملكة . فاستطاع ان يثبت لهم براءته : وجاء الفرمان الذي يثبّته في ولايته حين كان الموارنة على اهبة ان يحاصروا

المدينة . فوقفوا وقد انجلت لهم الحقيقة .

عرف الامير ان عبد الله لعب به وانه جرّ على نفسه نقمة السلطان بعد ان خلع عن حكم ولايته . اما عبد الله باشا فظن انه يستطيع الثبات والمقاومة ، فاعلن ثورته وحاصر في عكا التي حصنتها الطبيعة قبل الانسان . ودعا للقتال قوى الولاية البحرية والبرية . ولما كانت جيوش الباب العالي المنظمة على اسوإ ما يكون ، ولم تتعوّد بعد اتباع اساليب الحروب الاوروبية ، فقد حاصرت ، على غير جدوى ، ذلك المكان مدة تسعة اشهر ، فكبّدت المحاصرين فيه خسائر لا طائل تحتها . وفي هذا الظرف العصيب آثر الامير ان يعتزل الحكم ويغادر الجبل خوفاً من ان يقوده عبد الله باشا الى عصيان يسيء الى شرفه وضميره . وكانت ولاية بيروت تحظر عليه دخول ارضها ، فاتجه فكره مرة اخرى نحو مصر ، واستطاع ان يبحر على مركب تجاري افرنسي الى مصر ، ويلجأ الى محمد علي .

استقبل محمد علي الامير بشيراً بالحفاوة عينها التي استقبله بها منذ عشرين سنة خلت . فهذا الباشا الذي يتميز بمهارته وعناده كان لا يزال يطمح الى الاستيلاء على سوريا ، فلم يدع مناسبة تمر دون ان يقدم خدماته التي يبرهن بها عن قوته ونفوذه . لقد عمل جميع ما في وسعه لدى الباب العالي لحمله على العفو عن عبد الله والامير . والباب العالي الذي احرجت موقفه حرب « الموره » لم يشأ ان يغضب سيد احدى مقاطعاته الهامة الذي يمكنه ، ساعة يشاء ، ان يسلمها للثوار . وبناء على هذا غفر لعبد الله باشا فعلته بعد تغريمه بدفع نفقات الحرب .

وفي الوقت نفسه عاد الامير الى مقره في بيت الدين حيث استقبله جميع الشعب بعلامات الابتهاج والتعلق اللذين لا شبهة فيهما ...

ان الامير الذي شغلته قضاياه الخاصة واحداث حياته ، لم تكن تنقصه الثقافة . فمعلوماته لا تتجاوز ، في الواقع ، نطاق معرفة اللغة العربية وآدابها . بيد ان هذه الناحية الاساسية في الثقافة الشرقية التي تشغل حياة عالم مخصص لها قد ألفها الامير ، فانقادت له بسهولة . وهذه المزية قلما نجدها عند المسيحيين الذين يكتفون عادة بمعرفة قراءة التعاليم الدينية البسيطة ، متغافلين عن كل ما له علاقة بالتاريخ والفقه والشعر .

والان فلنتكلم عن الامير ، في ساعات فراغه ببيت الدين ، كسيد يعترف به جميع الزعماء ، فيقيم بينهم حكومة ذات أبهة ملكية لا كسيد تربى تربية قاسية ، وعاش عيشة شبه عسكرية . كان في هذا الموقف ، موقف الامير والزعيم الاكبر ، صديق العلوم والمعارف ، وحامي الثقافة والشعراء . كان الشعراء ، وهم عنوان ثقافة دولته ، ينظمون له القصائد متغنين بانتصاراته ، ويعيشون من هباته وعطاياه .

ثم فكر في تحسين حالة الثقافة التي اهملت تماماً في اثناء اضطرابات الحروب الاهلية ، ففتح على نفقته الخاصة عدة مدارس مخصصة لرجال الاكليروس . فكان لهذا العمل احسن وقع في قلوب جميع الاكليريكيين . فاكتسب محبتهم ، وحاز على عطف البطريرك ، فاصبح غرضهما السياسي واحداً . فكلاهما يرغب في وضع حد لهذه الفوضى الاقطاعية التي قسمت الجبل الى عدة شعاب . كان الاول (الامير) يطمع في وحدة التنظيم الاداري ، وكان الآخر (البطريرك يوسف حبيش) يريد وحدة الادارة الدينية .

ولما اخذ باشا مصر ، بعد ان بسط سيطرته على سوريا ، يطمح

هو ايضاً الى اخضاع كل شيء لسلطانه ، نشأ عن ذلك اختلاف بين مصالحه ومصالح الامير . الا ان الامير كان على جانب كبير من الدهاء واللباقة ، فتمكن من كظم غيظه . فتعهداته التي قام بها لنائب الملك حين هرب الى مصر ملتجئاً اليه ، كانت تربه مجاملة هذا الحليف القوي فرضاً واجباً عليه ، ولا سيما بعد ما رأى ان قوته تزداد ازدياداً عجيباً حتى كادت تهدد بل هددت السلطان نفسه سيد البلاد ومولاها .

ومن المؤكد ان الامير لم ينقد انقياداً اعمى الى محمد علي . فقوة هذا الاخير لم تكن تملأ عينه . وهو ، قبل وبعد ، لم يلق عنه نير حاكم تركي ليخضع الى آخر مصري يرجح انه اكثر قساوة من ذاك . فهدف الامير وامنيته الوحيدة كانا خلق ولاية مستقلة بحكمها ، وان يكون حليفاً مخلصاً واميناً عند الحاجة ، لا تابعا كسائر ابناء الرعية الذين يساسون بظلم وتعنت .

ولم تكن قوة الباب العالي الا اسماً بلا مسمى ، فظن الامير انه مرتبط بمن كان سيد البلاد بالفعل ، اي محمد علي . ولهذا قبل بارتياح تام مساعدة ابنه ابراهيم باشا ، ففتح امام جيشه الغازي ابواب اهم مدن سوريا . ولكن بقدر ما كان يرى طريقة الحكم المصرية تزداد عنفاً في البلاد وتنتقص من حقوق ابنـــاء الجبل وحرياتهم ، كان هو يلزم الحياد ضمن حدود دائرة سياسية حذرة ، ورزانة يقظة لم يستطع نائب الملك ان يخترق حجبها الا بعـــد انقضاء زمن طويل .

فالاحتكار التجاري الذي حاول ان يفرضه سيد سوريا الجديد كما هو مفروض في مصر ، حمل الاهالي على الخوف من ان يقاسموا

فلاحي ذلك البلد نصيبهم المشؤوم . كانت هذه الحالة سبب ثورة عكار واللاذقية التي احدثت استياء عاماً احسنت استغلاله سياسة اوروبية . فكثيراً ما كان يهم الانكليز ان يحولوا دون تنفيذ قانون كهذا يسد عليهم منفذ رواج منتوجاتهم . ومن هنا جاءت معارضتهم لمحمد علي ، وللامير الذي ظنوه متعلقاً به تعلقاً اعمى لنصرة قضيته .

وعند ذاك انتشر مندوبوهم السياسيون في الجبل يمثل بعضهم ولا يزال يمثل دور المبشرين . حاولوا ان يستميلوا الى البروتستانتية الشعب المسيحي الكاثوليكي ، ولكن هؤلاء لم يستقبلوا البروتستنت استقبالاً طيباً ولا كتبهم المقدسة التي كانوا يوزعونها عوضاً عن القاء المواعظ لانهم لا يعرفون اللغة كفاية ، فاحرقت هذه الكتب في الساحات العامة . اما الروم والسريان المنشقون فلم يكونوا اضعف من اولئك ميلاً الى هذه الديانة الجديدة التي سميت « المذهب الانكليزي » ، هذا الاسم الذي لا تزال تحتفظ بـه في داخل بلاد الاناضول وبلاد العجم .

لم يغفر الانكليز لهؤلاء ولا لاولئك عنادهم وثباتهم في عقيدتهم وايمانهم ، فحركت بغضاء قديمة كانت تضمرها للمسيحيين الشعوبُ غير المسيحية ، كالمتاولة والنصيريين والدروز . فمنذ ذلك اليوم اصبح الجبل فريسة للفتن والثورات الاهلية التي لا تزال تدمره دون ان نستطيع التنبؤ بنهاية الحرائق والمذابح ...

جدير بنا ان نلاحظ بان خلع الامير بشير كان يخفي تحت الظواهر السياسية فكرة دينية : كان يؤمل بهذا العمل دك الكثلكة ، وهدم نفوذ فرنسا القديم العهد في وقت معاً . ولم يكن

هذا المشهد اقل غرابة من الرواية السياسية التي مثلت عام ١٨٤٠ .
هبّت انكلترة وروسيا وبروسيا والنمسا لتعمل وتأخذ كل منهـا نصيبها من الارث المتنازع عليه بنفس المحسدة : فروسيا استغلت الضغن الذي يكنه الناس للمذهب البروتستنتي فانتمه إلي هذه البقعة من الارض . الا ان النجاح تعدّى آمالها فرأت اللوثرية البروسية تتصالح بسهولة مع الانكليكانيكية ، وتتنازل عن امتيازها في تعيين اسقف كقنصل للقدس يكلف ادارة رعية لم تكن موجودة او يرجى وجودها ، وذلك في مقابل اثني عشر الف ليرة استرلينية .
والنمسا على الرغم من انها كاثوليكية المعتقد مدت لهما يد المعونة وهي ترجو اخيراً تحقيق تلك الخرافة الحلوة لسياستها الشرقية .

الحق يقال ان روسيا كانت اكثر هذه الدول لباقة حين شاءت ان تنتهز الفرصة فتربط الروم والسريان والارمن المنشقين عن الكنيسة بروابط جديدة . اما ما يؤسف له حقاً فهو نتائج اعمال هذه الرابطة اللاكاثوليكية . فانكلترة اعتمدت على الدروز حين افتقرت الى بروتستنت تحميهم ، بعد ان خدعت بتقارير مغرضة حملتها على الظن بان الدروز يميلون الى المعتقد الانجيلي .
فمندوبوها السياسيون الذين انضموا الى المرسلين البروتستنت سلكوا طريقاً تركت وراءها على كل قدم لطخة من الدم . انها مسؤولية جسيمة لا تقع على عاتق بعض الرجال فحسب ، بل على الحكومة نفسها التي يدعون تمثيلها .

والامير الذي نقل الى القسطنطينية عومل اولاً ببعض اللطف والرعاية . وتشاء الصدف الغريبة ان يفقد الجبل الهدوء والامان لدى مغادرة السيد بلاده . فخيل للدولة التركية انه كان هو

المحرّض على ذلك سرّاً . ثم كبر هذا الظن وصار يقيناً عندما طلب جمهور من الشعب عودة الامير ، والتمس ذلك من الباب العالي . بنوا هذا الالتماس على ان عودة الامير الى الحكم تعيد مياه السلام الى مجاريها ، فيستتب الامن ويستقر النظام . وعند ذلك اخذ الامير ومشايعوه يذوقون لذع الحرمان ، وتضاعف ظلم النفي من كل جانب رويداً رويداً .

قالوا ان الامير نقل معه ثروات طائلة عندما غادر سوريا ، ولكن هذا القول صعب التصديق على ما يرجح . فالنكبات المتعددة التي لاقاها في حياته لم تمكنه من ادخار شيء . وهب انه عرف كيف ينمي دخله إبّان الفترة الاخيرة من حكمه ، فحاشية قصره في بيت الدين والتجميلات التي كلفته مبالغ ضخمة ، وميله الطبيعي الى الاعطيات ، تلك الفضيلة الشرقية التي تستحيل عادةً الى تيه وفخر ، تبين لنا انه انفق جميع ما ملكت يداه .

واذا اضفنا الى ذلك حوادث عام ١٨٤٠ التي داهمته بسرعة ، علمنا ان شأناً جليلاً كهذا يحول دون جمع المال بل يقتضي الانفاق ، وخصوصاً بمن كان مثل الامير الذي تعود فيما مضى ان يسترد خسائره بعد تشريده . أفلا يحق له الاعتقاد ايضاً بانه يمكنه ان يستعيد ثروته حين تسنح له فرصة جديدة ؟ ثم كيف كان يمكنه ان يتنبّأ عن رحلة يتبين منها انها كانت رحلة الابد !

هنالك بعض اشخاص من الذين عرفوا حالة الامير حق المعرفة ورأوها بام العين ، قد اكدوا لنا انه لم يكن يصطحب ، حينما نزل الى البحر ، الا مبلغ مائتين وخمسين الف فرنك . كان هذا المبلغ كافياً لسد حاجاته بلا شك . غير انه كان مقضياً عليه ، ابتداء

من عام ١٨٤٠ ، ان يعول عائلة كبيرة ، ويقوم بسد نفقات حاشية تكدس بعضها فوق بعض . وقد سبق هذا الحادث بايام قليلة ان اضطرت المرأة التي تزوجها ثانية ، وهي سرية شركسية اعتنقت فيما بعد الديانة الكاثوليكية ، الى ان تبيع من جوهري ارمني قسماً من حلاها بثمن عشرة الاف فرنك .

كان يليق بالوسطاء السياسيين الذين سلموه ان يأخذوا جميع الضمانات ليكفلوا له ، على الاقل ، نفقات العيش الضرورية . فبلوغه سناً متقدمة من العمر كان يحمل على الظن بان هذه المدة لن تطول ، والانسانية توجب هذا العمل الذي تتطلبه العدالة .

يظهر ان العناية الالهية شاءت ان تزوي الامير في هذه الضاحية لتلمع فضيلة قلما نجدها اليوم ، وتثأر لاسمه من جميع الشكوك والريب التي حامت حول ايمانه الصادق . فجميع الذين يتكلمون عنه يمثلونه ، بوجه عام ، رجلاً ينشد الثروة ، ويريد بلوغ قمة المجد غير عابىء بشيء . يبدل ديانته حسب الظروف ، فهو مسيحي او كاثوليكي حين تقتضي ذلك المنفعة السياسية .

قد برأنا من هذه التهمة الامير الذي ولد في حضن الكنيسة الجامعة ، وآمن بتعاليمها بحرارة لا تفتر . فالذين ضعضعتهم الشكوك في فضاء النظريات المذهبية يرون ان السيطرة في بقعة تعيش فيها عدة ديانات متنازعة تقريباً توجب التخلي عن الاعتراف بالمذهب الديني . ولكن اذا امكن تحقيق هذه المخادعة بين شعوب بلغ عندها الانحطاط الاخلاقي ، كالفضيلة نفسها ، ابعد مداه ، فالشرق حيث لم تبلغ فيه الرذيلة والفضيلة هذا الحد ، براء من هذه الاعمال المريبة . فالايمان لا يزال يحافظ هنا على جذوته الاولى ، وهو

الحاجة الضرورية التي يحتاجها القلب والفكر . ومن لا يعبأ به او يلعب بقدسيته لا يمكنه ان يبلغ ابداً كرسي الحكم .

كان الامير بشير ، منذ ولادته ، ابن الكنيسة التي اعتنق هو وعدد كبير من اسلافه ديانتها ، فلم يخرج من حضنها قط . واذا وجدناه في بعض فترات حياته ، وقد حركته الحروب وحافز الطمع ، لا يتقيد بواجباته تقيداً دقيقاً كما كان في شيخوخته ، فليرجم الامير بحجر من لم تمر عليه في ماضيه فترة لم يتخللها هذا النسيان والاهمال ؟

يجب علينا القول ان هذه الديانة المقدسة هي اليوم عضده وعزاؤه . فمن ممارستها البسيطة الصحيحة كان يستقي القوة اللازمة لينهض بعبء الامة الثقيل . وهل يمكننا ان نفتش في مكان غير هذا عن سر احتماله هذا الحرمان الموجع بعد حياة رفاهية وثراء ؟ وبماذا نعلل صبره على غل يديه عن العمل بعد نصف قرن جهاد مستمر ؟ واخيراً اي افتراض يحل لنا معضلة احساسه بالخيانة ، ولمسه نسيان الاصدقاء له ، بعد ان حفّ به عدد كبير من المشايعين المخلصين ؟ ان تذكره الاخطاء السياسية التي كان يسعه تلافيها ، ورؤيته مشهد الحروب التي خاضها ، كان يمكنهما ان ينتزعا من شيخوخته بقية الهمة لو لم يبادر الى مداواتها بصلاته فيجد ، وهو يستغفر اليد التي لطمته ، اللذة المجهولة التي نجدها في التوبة .

فبيته ، الذي رأيناه كما هو ، كان كأنه بيت بطريرك هرم ينتظر العذاب والمنفى . فمن بين افتقار هذا البيت الى المفروشات ، وتشويش وتبعثر ما فيه من امتعة لا تتجاوز ماعون خيمة يمكن ان ترفع في الغد ، وبين فرح الصغار الذين تنقصهم قوة ادراك

المصيبة التي حلّت بهم ، وبين فقر الخدام الامنــاء في بلواهم ومذلتهم ، كان وجه الامير يبدو لنا اكثر تلك الوجوه هرماً وهيبة ، حين يجلس على كرسي بسيط بابهة من تعود ان يكون سيد الموقف .

هذا هو المشهد المؤلم الذي يراه من يحاول ان يدخل مقر هذه العظمة الهاوية . اننا نحس بؤساً تصعب مؤالفته يختبىء ههنا ، ولكننا نلمس في استسلام جميع هؤلاء وهدوئهم عاطفة دينية تقويهم وتعزيهم . فالى جانب الامير كان يقوم مرشد ديني جدير بالاحترام ، وهو تلميـذ قديم للمجمع المقدس الروماني وقـد نذر نفسه ووقف جميع رسالته على الامير وعائلة الامير . ففي كل صباح كان يقيم له الذبيحة الالهية في غرفته التي هي كنيسته ايضاً . فيقف جميع هؤلاء امام المذبح ليجددوا قواهم ويقووا على احتمال تجارب النهار وويلاته التي تنتظرهم .

ان لحية الامير وشاربيه الكبيرين الابيضين كانا يدلان على هيبته الطبيعية التي تزيد في جلالهـا عيناه المختبئتان تحت حاجبين كثيفين ، عريضين . كانت تصرفاته على جانب كبير من اللباقة والتهذيب ، وشد ما كان يؤثر بهما من يزورونه في دار غربته . فاسئلته او اجوبته ، وهي بالعربية دائماً ، متزنة واضحة ملقاة بتحفظ الرجل الذي يشعر انهم يتجسـون عليه .

كان ، في بعض المرات ، يستنيب عن التفوه بالكلمة المرجوة نفثة من دخان يرسلها في الفضاء مـــن غليونه الكبير الذي لم يكن يفارقه قط . فهذا الغليون ، الذي لا بد منه عند الشرقيين ، ليس بدون نفع ، وعلى الاخص في مقابلات او زيارات ذات طابـع

سياسي . انه يمكن من الهدوء والسلوى ، ويحول دون التلفظ بكثير من كلمات قد تقع في غير محلها ، اذ تكون الشفاه مشغولة في الالتصاق بعوده الثمين . ولكن اكتفى الامير ، بدلاً من ان يتوغل في تفصيلات طويلة ، برواية بيت من الشعر ، او ارسال مثل كله معنى يفي بالمرام .

وفي السابع من حزيران الفائت ابلغوا الامير ان الحكومة قررت نفيه الى قلب مقاطعة الاناضول ، الى فيرانشهر من سنجق بولي . فاسم هذا المكان المنزوي الوحشي ، وهو يعني المدينة المهدمة ، ليليق بمن لم يعد الا دماراً محترماً عن الماضي . وبدون ان يعطى الوقت الكافي ليهيء جميع ما يحتاج اليه في سفرة كهذه ، نقل مع سائر افراد عائلته الى ظهر باخرة صغيرة قطعت به البحر الاسود حتى وصلت الى مدينة هيراكله القديمة .

كان فصل الصيف قد اخذ يخفف من حدته . وعلينا هنا ان نفكر بالاخطار التي تحدق بالامير في هذه الرحلة التي جعلها هواء الشمال طويلة متعبة . واذا كنا قد رثينا لحال الامير البائس حينما كان في قلب العاصمة ، تحت سمع الحكومة وبصرها ، فما عسى ان تكون حاله في مكان قصي يفتقر فيه الى اسباب المعيشة ولا يشعر بشيء من العطف الذي هو عزاء التعس الوحيد ؟ اتراه قد اذنب فعلاً بتدبيره احدى المؤامرات السرية ؟

كان يتوجب ، في وقت ينبذ به رجال الامة المثقفون تقاليد الحكم المطلق ، محاكمة الامير واثبات ذنبه ، ثم تطبق عليه العقوبة . هذا ما كان يجب ان تعلمه وزارة رضا قبل ان تتعرض لخطأ هذه القساوة غير المجدية .

والاشخاص الذين تبعوا الامير الى فيرانشهر يبلغ عددهم ستة وخمسين نفساً: تسعة امراء وثماني نساء وتسعة وثلاثين خادماً، ما عدا الاب الفاضل الخوري اسطفان حبيش الذي كرس نفسه لهذه القضية الدينية الوطنية.

وشاع، بعد سفرهم، خبر مفاده ان احدى العصابات التي تعبث بداخل بلاد الاناضول قد هاجمت قسماً كبيراً من هؤلاء فذبحتهم. الا ان الحكومة كذبت بصورة رسمية هذا النبأ.

ما انا بمادح الامير او وكيل دفاع عنه. لقد رويت ببساطة تفاصيل حياته التي يعرفها الجميع، وتحاشيت ان اوجه اليه نقداً لاذعاً، او ان ابالغ بالتملق له فاطنب في الثناء عليه. فانتصارات الامير وانكساراته التي لاقاها في حياته وحروبه الهدامة، وفترات حكمه الهادئة المحلية، وعدله وانتقامه العنيف، ورقته المتناهية واخطاؤه، والهمة الوثابة التي كانت تنقصه بغتة عندما يكون استعمالها ملائماً، والاستسلام ظاهراً لمصابه، في حين انه لا يخلو في الواقع من مكائد ومناورات كاذبة، تلك كانت مميزات هذه الشخصية.

لم تستطع الدول التي جمعتها محالفة عام ١٨٤٠ ان تقدره حق قدره، فنحته جانباً كما ينحى الممثل الذي يفرغ من تمثيل دوره، او كالشيخ الذي هدّمته السنون. كثيرة هي المناسبات التي تبين منها ان قضية احلال رجل محله يقوم بعبئه ليست بالقضية الهيّنة، وان الهدم اسهل من البناء.

انه ليستحيل فرض رأي او ارادة على شعب كامل — وعلى الاخص حين يتعرض ذلك الرأي المفروض لمعتقد الشعب وايمانه —

دون ان يلاقي ذلك رد فعل عنيف . فعدم مقدرة الذين حلوا محل الامير ابدت للملأ جلياً كفاءته الشخصية . وغير واحد من الذين رغبوا في دك عرشه وتقويضه اخذوا يتمنون اليوم عودته . فسوء الحالة الذي ازداد على التوالي حمل على الظن ان رجوعه يكون الدواء الوحيد . فالتأسفات على نفيه ، والرغبات في عودته جعلت قضيته قضية وطنية حتى طلب بعضهم اعتبار بيت الامير سلالة لها حق الاحتفاظ بحق الحكم عدة قرون . انه رأي مبالغ فيه ، ولا يقوم الا في خيال شعراء العرب المداحين .

رأينا في مكان آخر ان الامير لم يرث الحكم عن ابيه ، وانه كان يعود الى كرسيه ، عندما يخلع عنه ، بقوة دهائه ومقدرته الشخصية ، وحظه الذي يساعده على ذلك . فكفاءته رفعته الى المحل الارفع اكثر مما رفعه اليه بيته . فنحن اذن في غنى عن الاستشهاد بهذا العنصر الاخير .

سبق لنا ان تكلمنا عن الموفدين البروتستانت الذين جاؤوا سوريا ، حوالى عام ١٨٣٠ ، وحاولوا ان ينشروا فيها رسالتهم . فنحن ، اصدقاء حرية المعتقد ، لا ننازعهم ابداً هذا الحق ، حينما تدار المهمة التي كلفوا بها بامانة ووفقاً لنظم المحبة الانجيلية الحقيقية . فالموارنة هم كجميع كاثوليكي الشرق متمسكون بدينهم . ولما بدا لهم ان مذهب هؤلاء الاسياد خاطئ وخطر ابعدوهم عن تخومهم باساليب لا نود هنا ان نبرر صيغتها لما فيها من قساوة وغلاظة وخشونة . فالكاثوليك ينبغي لهم ان يواجهوا اعداءهم بسلام واعتدال تفرضها معرفتهم الحقيقة معرفة كاملة . وهذه القوة الهادئة الرزينة هي طريق النصر المؤكد .

ان هؤلاء الدوّارين المهذبين (الجنتلمان) الذين طردوا من المدن والقرى ، ولم يوفقوا إلا بمقـــدار الى نشر مذهبهم بين الروم او السريان المنشقين ، ثم لم يلبث توفيقهم ان انقلب اخفاقـــاً ، قد حولوا وجوههم صوب الدروز ، فكانت النتيجـة نشوب ثورات وفتن واحداث مذابح متواصلة .

والباب العالي الذي وجد نفسه عاجزاً ، وحده ، عن وضع حد لهذه الفوضى فكر في ان يعتاض عن ذلك بمنافع سيـــاسية . فالسلطة التي كانت تهدف دائماً لبسط شبكة الوحـدة الادارية على جميع اطراف المملكة وجدت الفرصة مؤاتية لتبسطها حتى على هذه الولاية التي تكاد تكون مستقلة .

وهكذا استطاع الباب العـالي ان يلعب بتكتل الدول عام ١٨٤٠ . وهذا التكتل الذي ما اراد تبديل الحالة في لبنان الا لتحسينها ، وضمانة احتفاظ الجبل بامتيازاته ، قد شهد جميع فصول مأساة ستنتهي بفنـاء شعبين كاملـين – الدروز والنصارى – فناءً كلياً في حرب اثيرت بينهما ، حتى اذا تعبـا من القتال جرّا الى وضع رقابهم في متناول مناجل التنظيمات[1] .

سيصبح لبنان ولاية كبغداد وارضروم . ومن يسعه ان يلوم الباب العالي ؟ فهل تكون معارضة الدول هي التي منعته من قبول عروض فرنسا الحكيمة ؟

[1] التنظيم الاداري الجديد .

فهرست

الفصل السادس والعشرون

الآثار القديمة في لبنان : عين القبو ، فقرا ، صنين ، جبل الكنيسة ، فيطرون ٥

الفصل السابع والعشرون

تابع الآثار القديمة في لبنان ١٨

الفصل الثامن والعشرون

تابع الآثار في لبنان : وادي البقاع ، دير مار سمعان ، عنجر ، النبي زور ، النبي نوح ، زحله ٢٧

الفصل التاسع والعشرون

تاريخ الموارنة ٣٥

الفصل الثلاثون

تاريخ الروم الكاثوليك والدروز ٤٨

الفصل الواحد والثلاثون

اخلاق سكان لبنان وعاداتهم ٥٨

الفصل الثاني والثلاثون

تابع اخلاق سكان لبنان وعاداتهم ٧٠

الفصل الثالث والثلاثون

تاريخ الامير بشير شهاب ٨٥

الفصل الرابع والثلاثون

تابع تاريخ الامير بشير شهاب ٩٥

الفصل الخامس والثلاثون

حكم امير الجبل ، ادارة البلاد ، حالة الزراعة ، دخل الامير ، حالة الصناعة ١٠٢

الفصل السادس والثلاثون

عادات امراء لبنان ١١٣

الفصل السابع والثلاثون

تابع عادات امراء لبنان ١٢٥

الفصل الثامن والثلاثون

اكليروس لبنان ، الاكليروس الماروني ، والملكي ، والارمني ، والسريان الكاثوليك ١٣٥

الفصل التاسع والثلاثون

الارساليات الاوروبية في لبنان ١٤٥

الفصل الاربعون

تصرفات المصريين في سوريا، بضع كلمات عن محمد علي ١٥٣

الفصل الواحد والاربعون

معاملة المصريين للسلمين ١٦٤

الفصل الثاني والاربعون

معاملة المصريين للاوروبيين ١٧١

الفصل الثالث والاربعون

معاملة المصريين لسكان لبنان ١٨٢

الفصل الرابع والاربعون

اسباب ثورة الجبل ، الحوادث الاخيرة ١٩٣

ملحق

الامير بشير ٢١٤

تمّ طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم العشرين من تشرين الثاني ١٩٥٠ .

مباحث اجنبية في تاريخ لبنان

سلسلة وثائق ومعلومات تاريخية عن لبنان
تنشرها دار المكشوف

•

صدر منها :

رحلة في لبنان (١٨٣١) لجون كارن

الاقطاعية :
في مصر وفلسطين وسوريا ولبنان
من ١٢٥٠ – ١٩٠٠
لبولياك

يوميات في لبنان (١٨٣٨–١٨٥٢)
(الجزء الاول)
لادوار روبنصن

بيروت ولبنان (الجزءان الاول والثاني)
منذ قرن ونصف القرن
لهنري غيز

ثلاثة اعوام في مصر وبر الشام (١٧٨٣) لفولني
(الجزء الاول)

•

يصدر تباعاً :

ثلاثة اعوام في مصر وبر الشام (١٧٨٣) لفولني
(الجزء الثاني)

يوميات في لبنان (١٨٣٨–١٨٥٢) لروبنصن
(الجزء الثاني)

الثمن : [illegible] لبنانياً